ميزان العدل

في المحاكمة بين جنود العقل والجهل

السَّمكيّة

للعلّامة الفقيه السيد محمّد رضا فضل الله

المتوفى سنة ١٣٣٦هـ - ١٩١٧م

تقديم وتحقيق

يوسف نظام الدين فضل الله

دار البلاغة

ميزان العدل

في المحاكمة بين جنود العقل والجهل

«السَّمكيّة»

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

978-9953-551-36-4

دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - هاتف: 5 / 334 544 9611+ - فاكس: 787 546 9611+ - ص.ب:16/25 الغبيري
E-mail: dar_albalagha@hotmail.com

ميزان العدل

في المحاكمة بين جنود العقل والجهل

«السَّمكيّة»

للعلاّمة الفقيه السيد محمد رضا فضل الله
(١٢٨١ ـ ١٣٣٦هـ/ ١٨٦٤ ـ ١٩١٧م)

شبكة الفكر
alfeker.net

تقديم وتحقيق
يوسف نظام الدين فضل الله

دار البلاغة

إهـــداء

إلى أمي

إلى ابنة أخ العلّامة السيد محمد رضا.

إلى من سهرت الليالي على راحة أبنائها...

إلى من ربّتنا على الإيمان والوعي والعلم...

إليكِ يا من اختزلت العطف والحنان والأمومة بشخصك الكريم...

إليكِ يا أمي... أهدي خلجات مدادي

وهو أقل من عصارة جهدك وجهادك...

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

بين أيدينا رسالة كتبها مؤلفها العلاّمة الفقيه السيد محمد رضا فضل الله.

مرَّت عليها السنون، وحجبتها الأيام والليالي، وبقيت طيَّ حبرها، تتداول ذكرها تراجم الأعيان، وكتب المؤلفين، وهي تنسل من بين الفتن والحروب والاجتياحات، وتنجو في ظروف قاسية مرت بها القرى العاملية خلال قرن من الزمن.

قيّض الله لهذه الرسالة أن ترى النور، ولو بعد حين، فأخذت طريقها للتدقيق والتحقيق، وسلكت نحو حروف الطباعة وأثير النشر، ليفوح منها عطر الأدب الأصيل، ويُعرف من خلالها عمق معانيها الروحية السامية، وطريقة معالجة الموضوعات الفلسفية والحكمية، بالغوص في أعماق المفاهيم الدينية، وسبر أغوار النفس الإنسانية، بأسلوب أدبي وقصصي شيّق، أبدعته يد كاتب مرموق، ومؤلف غزير الفكرة، قوي العبارة، متين النص.

إنها رسالة، خطتها ريشة فقيه بين العلماء، ومنارة بين الأدباء، وسيد من الشعراء كما خبره أبناء جيله، وعرفه معاصروه، وشهد له رفاق درسه، وعلماء عصره. وشهد له بكل ذلك أيضاً نظمه ونثره.

ما كان لنا من سبيل إلى معرفة سرّ فصاحته، وسحر بيانه، وحسن بلاغته، ورفيع ذوقه الأدبي، وجزالة شعره ونثره، وعلمه الفذّ، سوى ما وجدنا من تراثه الغني، كالرسالة التي أبَّن فيها علاّمة عصره الميرزا الشيرازي، والرسالة التي ترجم فيها الشيخ موسى أمين شرارة، وأبحاث في موضوعات أصولية وفقهية وعقائدية، ومجموعته النثرية والشعرية، والرسالة التي بين أيدينا، وقد وجدت فيها:

من الشعر عنده الآيات، وفي بيانه السحر السلس، ومن البلاغة والفصاحة درجات عالية راقية، ومن الفلسفة والحكمة سبر أغوارٍ بأوضح العبارات، ومن الأدب السهل الممتنع، ولا عجب في ذلك فعلمه من علم الكتاب، ونهجه من سلسال نهج البلاغة، وهو العالم المتبحّر، والفقيه المجدّد، والأديب المبدع، وقد أجاد في كتاباته مقارعة الشيطان وجنوده بالحجج البالغة، والأجوبة المقنعة، وغلّب عليه العقل وجنوده، بمقامات رفيعة، وأساليب عذبة رقيقة، بحكاية شيّقة اعتمدها السيد لتكون تسلية للعامة، وتذكرة لأولي الألباب، إنها رائعته المعروفة ب«السمكيّة»، والتي في أعماقها الدرّ المكنون ساكنٌ، والعقيق والياقوت والسندس، لمن غاص في بحر بلاغته المترامي، وأبحر في محيط أدبه العميق.

وهذا ما شجّعني وأغراني، فقوّى همّتي، وشدّ عزيمتي، بأن أدلي

بدلوي في سحيق بئره، وعميق فكره، لعلّ تذكِرته تنفعني، وأكون ممّن حصّل شيئاً من فائدة وقليلاً من معرفة وهداية.

خطوات البحث

هذه الرسالة، بقالبها الفني المتميّز، هي عبارة عن نص واحد متكامل، من بدايته حتى النهاية. فالكاتب لم يقسمه إلى فصول، ولم يضع له العناوين، ولا حتى علامات الوقف. وقد بقي هذا النص مخطوطاً لم يعالج في أي بحث أو دراسة، إلى أن توافرت ظروف إخراجه إلى حيّز الطباعة.

اعتمدت المنهج العلمي في تحقيق المخطوطات، من خلال جملة خطوات قمت بها، وهي تدرجت وفق الآتي:

١ ـ قدّمت في البداية، نبذة عن حياة الكاتب، ثم قدّمت إضاءات على هذا الكتاب، شارحاً أسلوبه ودوافعه وأهدافه ونتائجه وعِبَرِه.

٢ ـ تدقيق النص، وضبط الكلمات حسب القواعد العربية المتّبعة حالياً، ووضع علامات الوقف.

٣ ـ استخراج الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث الشريفة، وإسنادها إلى مصادرها.

٤ ـ استخراج الأشعار، وإسنادها إلى أصحابها، وإيضاح بعض التعديلات التي أدخلها الكاتب على الأبيات الشعرية لتتناسب ومحل الشاهد.

٥ ـ معظم الأشعار التي لم أشر إليها في الهوامش هي للكاتب.

٦ ـ شرح بعض المفردات التي تحتاج للتفسير، وذكر معاجم اللغة.

٧ ـ وضع العناوين المناسبة لهذا النص، والمستوحاة من النص نفسه.

وأخيراً لا بدّ من الإشارة إلى أن الهم الوحيد كان إخراج هذه الرسالة إلى العلن، لتبقى متاحة بين أيدي الباحثين والقرّاء، والمهتمين في مجالات الفلسفة والحكمة والأدب والشعر، وبرغم الجهد، والكدّ والتعب، وسهر الليالي، كان حرصي الشديد أن تخرج هذه القطعة الأدبية المميّزة، بأحسن صورة ممكنة، وأوضح فكرة مقروءة، إلاّ أن الكمال لله وحده، ومهما بذل الإنسان من جهد، يبقى النقص وارداً، لأنّه من سمة البشر، لهذا فإن أي خلل قد أكون وقعت فيه، فهو لا شك غير مقصود، لذلك أستطيع القول، إن هذا الجهد هو مقدمة للبحث مجدداً في أعماق هذه الرسالة الغنية، وسبر أغوارها الفلسفية والحكمية والأدبية، لأنها تحتاج إلى الكثير من الدراسة والعناية، فهي غنية بأبواب عديدة تفتح على مجالات متشعبة وكثيرة للوصول إلى أعماق أعماقها، واستخراج مكنوناتها وأخذ العبر والمواعظ منها، والاستفادة من دروسها، والاهتداء بهديها إلى طريق الخير وتحكيم العقل وتغليب الإرادة على قوى الباطل والشر، لأنها كما أرادها الكاتب هي رسالة تذكرة لأولي الألباب، وموعظة لأصحاب العقول.

أفادنا الله وإياكم مما تركه لنا سلفنا الصالح، والحمد لله رب العالمين.

والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق.

يوسف فضل الله

العلاّمة السيد محمد رضا فضل اللّه

هو عالم، مفكّر، فيلسوف، وأديب وشاعر عاملي، عرفته ميادين الفقه، وحلقات الدرس، وحلبات الشعر، ومنتديات الأدب في النجف الأشرف، وكان في جبل عامل من أبرز الفقهاء والأدباء المجددين، والشعراء المعروفين، وله أيضاً من الآراء الفكرية الجريئة خاصة ما له صلة بدور علماء الدين وقيادتهم للأمة، وله أيضاً إسهامات مباشرة في الحراك العلمي والأدبي والفكري الذي شهده كل من جبل عامل والنجف الأشرف في حقبته التاريخية، امتداداً إلى الحقب اللاحقة التي كانت زاخرة بالتحولات السياسية، والمتغيرات الاجتماعية، والتطورات الثقافيةً.

ولادته:

ولد السيد محمد رضا عام ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م، وكانت نشأته الأولى في بلدته عيناثا، في رحاب عائلة علمائية، وتبلورت شخصيته في بداياتها على يد آبائه، وهم أسرة آل فضل الله التي سكنت عيناثا منذ أن هاجر إليها جدهم الأعلى الشريف حسن الذي يعود نسبه للإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

السيد محمد رضا هو ابن السادة: رضا بن نصر الله بن محمد بن علي بن يوسف بن محمد بن فضل الله بن الشريف حسن المكي الحسني، وهذه السلسلة من الآباء والأجداد شكلت حلقة متكاملة من العلماء والأدباء، الذين أسهموا بأدوار كبيرة في الحياة الاجتماعية، والنهوض بالعلوم الدينية والتعليم في جبل عامل على مدى قرون من الزمن.

دراسته:

بدأ السيد محمد رحلته في التعليم الديني في عيناثا، وقد برزت فيها موهبته الأدبية، ثم انتسب بعد ذلك إلى مدرسة حناوية عند الشيخ محمد علي عز الدين ومنها انتقل إلى مدرسة بنت جبيل التي وجد فيها ميدانه الرحب في أجواء عامرة بالعلم والأدب، واصل نشاطه التعليمي في مدرسة طورا التي أسسها السيد يوسف شرف الدين والد السيد عبدالحسين شرف الدين من عام (١٣٠٥هـ ـ ١٨٨٧م) إلى العام (١٣٠٨هـ ـ ١٨٩٠م)[١]، ثم انتقل إلى النجف الأشرف، شأن الكثير من طلاب جبل عامل لطلب العلم، وهناك انتظم في حلقات الدرس بجد ورغبة على جماعة من المدرسين، وهم أبرز المراجع الدينية التي حفلت بهم النجف الأشرف في تلك الحقبة.

اشتهر السيد في مجال الفقه، وشهدت له حوزة النجف الأشرف

---

(١) عبدالحسين شرف الدين، **بغية الراغبين**، ج١، ص٤٦٥.

بالمستوى الرفيع الذي ميّزه، واستفاد منه طلاب كثر درسوا عليه، وكان يرفد هذا المستوى الفقهي والأصولي ثقافة أدبية ولغوية عالية.

شهادات علماء وشعراء:

وصفه معاصروه ممن ترجموا لأعلام تلك الحقبة، فأثنوا عليه، وامتدحوه بأجمل العبارات، منها:

ـ «هو ذو علم وأدب وشعر ونثر وقلم حسن، أحد حسنات هذا العصر»[1].

ـ «هو شاعر شهير وكاتب مبدع، وله نثر بليغ»[2].

ـ «له في البلاغة، نظماً ونثراً مقامات شامخة تبتهج به القارة العاملية»[3].

ـ «من الأدباء الأماثل، وكثيراً ما كان يشترك في الحلبات الشعرية في النجف الأشرف»[4].

هذه الشهادات وغيرها تبين لنا أنه جمع إلى كونه فقيهاً وعالماً شخصية الأديب المبدع والشاعر الموهوب، كما شهد له معاصروه من علماء وشعراء كانوا قد امتدحوه في مناسبات عديدة وأشاروا إلى تميّزه.

---

(١) حسن الصدر، تكملة أمل الآمل، ص٣١٩.

(٢) علي الخاقاني، شعراء الغري، ج١٠ ص٤١٩.

(٣) محمد علي الأردوبادي، سبائك التبر، ص٢٣٧.

(٤) محمد حرز الدين، معارف الرجال في تراجم العلماء والأدباء، ج٢ ص٢٨٤ و٢٨٦.

امتدحه السيد إبراهيم الطباطبائي النجفي، وهو شاعر مشهور (ت: ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م) بقصيدة طويلة نختار منها هذه الأبيات:

أنت المقدم في العلى ... لا من تقدم أو تخلف
قد جئتنا فرداً فمن ... قد جاء بعدك جاء مردف
يا محرزاً قصب العوالي ... الصم بالقصب المجوف
والملهم القلم اليراع ... إذا انكفى برقيً وأوكف
قلم يريق رضابه ... علقاً على الورق المزخرف
عريان من دنس تجرد ... نازع الشبهات مترف
أنت السري لكل قوم ... سرى تسرع أو توقف
إن سرت سار ميمماً قصداً ... وإن وقفت وقف

كما امتدحه الشيخ عبد الكريم الزين (ت: ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م) بقصيدة طويلة منها:

يا بن الأكارم والغطارفة الألى ... والمجد والشرف العظيم الأقدم
أنت المقدم عند كل عظيمة ... وإليك أبكار المكارم تنتمي
لك صهوة المجد التي لا ترتقى ... بالفكر يوماً لا ولا بتوهم
ولك السيادة والرياسة فاحتكم ... ما شئت في هذا الزمان أو احكم
أخلاق أحمد والوصي المرتضى ... أوتيتها طبعاً بغير تعلم

إلى أن يقول:

عزم كمصقول الغرار وهمة ... علياء تهزأ في مناط الأنجم
ومواهب كالبحر عب عبابه ... متدفقاً أو كالغمام المرزم
قلم بكفك صامت متكلم ... في مثل آيات الكتاب المحكم

كالصل أطرق راعشاً ولعابه ... كالشهد ممزوجاً بطعم العلقم
كم خطبة غرا وموقف حكمة ... لك في القلوب نوافذ كالأسهم
يعنو اللبيب لها ويمضي حاسداً ... في مهجة حرى وأنف مرغم
هذي الشريعة سلمتك قيادها ... دون الورى من معرق أو مشئم

كما امتدحه أيضاً الشيخ محمد أقعون العاملي (ت: ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م)، بقصيدة طويلة أيضاً نذكر منها:

زعيم الورى يهدي إلى سبيل الهدى ... إذا ضل بالسارين في المجهل الخبط
له حزم مغوار وعزمة ملبد ... تفل المواضي دأبها القد والقط
له همة تعلو صعوداً فينثني ... لأصغرها شم الشواهق ينحط
محمد من أمسى به الفخر في الورى ... إذا انتضل الأقوام وافتخر الرهط
له مقول أمضى من العضب فيصل ... وفي كفه دون الورى الحل والربط
ومهما دجى في محفل العلم مشكل ... ففكرته عن غرة الفجر تنأط
هو الطود حلماً والنسيم خلائقاً ... هو البحر علماً ليس يلفى له شط
محط رحال المجتدين من الهدى ... إليه إذا زمّوا لديه إذا حطوا
على ما يشاء الله يجري به الرضا ... وليس لغير الله أن يعره السخط

هذا غيض من فيض، من شهادات كتّاب التاريخ ومترجمي الأعيان والأدباء، وأشعار أشهرهم في عصره، كل ذلك يعطي الصورة الواضحة عن بعض ملامح شخصية العلاّمة السيد محمد رضا فضل الله وموقعه العلمي في النجف الأشرف، ودوره الريادي فيها، بما فيه من اندماج في مناخاتها الذي لم يقتصر على الشأن الفكري والفقهي والنهضوي،

بل تعدّاه إلى الاندماج الاجتماعي من خلال مصاهرته لأحد بيوتات النجف الأشرف العلمية.

بعد سنوات الدراسة عاد السيد إلى جبل عامل، فأقام في بلدته عيناثا مدة، ثم انتقل بعد ذلك إلى قانا وأقام فيها، فلقي الاهتمام الواسع وامتد نشاطه إلى القرى العاملية، وبقي في قانا إلى أن توفي سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م، ودفن فيها.

أسرته:

عاش السيد محمد رضا في أجواء عائلة علمية، ترعرع في كنف والديه، وبين إخوته، في أسرة علميّة وأدبيّة توارثت هذا الإرث جيلاً بعد جيل، وقد شكّلت سلسلة متصلة الحلقات، وتواصلت عبر مرور الزمن في جميع الظروف متخطّية كلّ صعوبات المكان والزمان.

ـ والده السيد رضا (ت: ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م)، كان من أعيان بلدته والبلدات المجاورة، وكان يمتلك الإمكانيات المادية، فشجّع التعليم الديني، وقد موَّل دراسة أخيه العلاّمة السيد محي الدين[١] في رحلته إلى النجف الأشرف، واهتمّ بتعليم نجله السيد محمد رضا، وقد أشار الشيخ موسى أمين شرارة[٢] إلى الأخوين السيد رضا والسيد محي الدين، في رثاء أخيهما السيد زين العابدين. حيث قال:

---

(١) السيد محي الدين: من مشاهير الرجال، وقد تولّى الزعامة الدينية في زمانه، وكان حياً عام ١٨٦٣. (د. إبراهيم فضل الله، المشروع الحضاري الإسلامي، دراسة جامعية).

(٢) الشيخ موسى أمين شرارة، (١٢٦٧ ـ ١٣٠٤هـ/ ١٨٥١ ـ ١٨٨٧م).

مضى محيي دين الله من كان للهدى ... وللعلم والتقوى كجزء مقوم
مضى والرضا الزاكي تلاه بروضة ... عليه الرضا يهمي بأوطف مرزم

ـ أخوه السيد أمين، كان شاعراً، رقيقاً مرهف الحس، وله قصائد عديدة، ومن قصيدة طويلة في مدح أخيه السيد محمد رضا نختار:

هبْ أن ماءك صافٍ ما به كدر ... وأن نبتك فيه الشِّيحُ والبانُ
ما كل ماءٍ كصدَّاءٍ لشاربه ... كلا ولا كل نبتٍ فهو سعدانُ[1]
الراح والخلُّ في لونيهما اشتركا ... لكنما شارب الصهباء نشوان

ـ أخوه السيد عبد الهادي، قضى على يد الجنود الأتراك أثناء سوقه للجندية في ما كان يعرف بالرديف.

ـ أخوه السيد علي رضا، «وهو جدي لأمي» كان من الأفاضل معرفة ودراية، والرأي الصائب، يأنس به من يُجالسه ويستمع لحديثه، لطيف الطبع رقيق الأشعار، لكن لم تدوّن قصائده، فطواها النسيان.

أبّنته الشعراء بعد وفاته، ونذكر على سبيل المثال هذه الأبيات للفاضل الأديب والشاعر السيد عبد اللطيف فضل الله[2]:

طوى الدهر ماضينا وانذر من بقي ... وجمَّعنا في رحبه للتفرُّق
وما هذه الأرواح إلا كسلعة ... متى وردت سوق المنيّة تنفق
مضى بعلي بعدما غرس العلى ... بها واستغل الحمد من كل منطق
وخلف في الأيام أي رزية ... يرن صداها بين غرب ومشرق

---

(١) السعدان: نوع من النباتات.

(٢) السيد عبد اللطيف (١٩٠٤ ـ ١٩٩١م)، أديب فاضل وشاعر مبدع، له ديوان مطبوع.

دفنت به الأحلام بيضاً كريمة ... وبدلت عنها بالأسى والتحرق
عهدتك منك اللطف والرّفق شيمة ... فداؤك نفسي من لطيف ومرفق
تناهب ريب الدهر نفسي وهذه ... بقيتها مني فخذ أنت ما بقي
فيا أخويَّ الأنجبين وقيتما[1] ... إذا جاء أمر الله بالحق من يقي
فما خسرت للحلم في الناس صفقة ... ولا رخصت نفس إلى الله ترتقي
فصبرا لريب الدهر كل مصيبة ... متى قرنت بالصبر والصدر تخلُق

واستمرّت هذه السلسلة، بالسيد محمد نجيب، ابن السيد علي رضا (١٩٠٨ ـ ١٩٩٠م)، وكانت له مع الشعر والأدب جولات وصولات، عرفته المنابر الأدبية والشعرية في لبنان.

شهدت له المنتديات، وسعت إليه المنابر. كان شاعراً لا يجارى وجريئاً لا يبارى، وإلقاؤه فنٌّ خاصٌ به لا يُقلَّد، به يبدأ الحفل وبه يختتم، هفت لشعره الأفئدة وهتفت بقوافيه الحناجر.

له ديوان شعر مخطوط، وديوان «القطريات» مطبوع.

نشر بعض نتاجه في كتاب «صليل القوافي» كمقدمة لنشر كامل تراثه الأدبي.

هذه السلسلة لا زالت تتواصل إلى يومنا الحاضر، بشاعرين مبدعين من هذه العائلة من أبناء السيد محمد تقي ابن السيد علي رضا، وهما:

ـ السيد عارف: وهو الابن الأكبر للسيد محمد تقي، شاعر مجيد، ناقد فذّ، مرهف الحس، يُجيد أصعب نماذج الشعر، وهو الشعر

---

(١) يقصد بأخويّ: ابنيّ السيد علي رضا وهما: السيد محمد نجيب والسيد محمد تقي.

التأريخي، ولعلّه من القلائل الذين لا زالوا يجيدون هذا النوع من الشعر، لصعوبته، ودقّة حساباته. له عشرات القصائد في مجالات شتى، لا زالت مخطوطة.

ومن نماذج شعره التأريخي، قصيدةً أهدانيها مؤرخاً لولادة نجلي عليّ[1] وكان فجره قد تأخّر مطلعه، وتمهّل علينا بالقدوم، فقال فيه:

علي الرضا.. بعد التدلّل أقبلا ... وكان علينا بالقدوم تمهلا
على ظمأٍ قد جاء والشوق مبرح ... فأنعش آمالاً ونوّر منزلا
وأشرقت الأيام بعد عبوسها ... وكل ظلام حين هلّ قد انجلى
على صورة الأملاك للطرف إذ بدا ... تزوّد منه الطرف بالحسن وامتلى
كأن له من يوسف حسن يوسف ... فسبحان من سوّاه خلقاً وكملا
فيابن الكرام الصيد مجداً وسؤددا ... لك المجد منهم رفعة وتأصلا
فجدُّك موسى للشَّريعة شيخها ... وفي عاملٍ أمسى مناراً ومِشعلا
كذاك حسينٌ ذاع بالفضل صيتُهُ ... وفي أُفقِ العلياء حلَّق أجْدلا
ويا بن الذي نفسي من الحب نفسه ... رأيتك من روض الحدائق أجملا
وباليمن والتبريك أرخت والسنا ... ولادة بدر في المهاد تهلّلا

١٤٣٢هـ

ـ السيد معروف: شاعر رقيق الديباجة، جيد الأشعار، يتابع نهج عمه السيد محمد نجيب بقصائد وطنية ودينية ووجدانية تثير الاهتمام، له ديوان مخطوط فيه أشعار كثيرة وله وقفات منبرية عديدة.

(١) ولد في سنة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

وقد أرسل لي هذه الأبيات أثناء تحقيق السمكية معجباً ومادحاً:

سِفرٌ على متنيه من وجه الفلك ... أثرٌ لوهج النَّجم في غلس الحلكْ
أخرجت مخبأه الدفين ودرَّه ... وجمعت فيه من اللآلئ ما سلكْ
قد صِدت من بحر الرِّضا ياقوته ... ولربَّ غوَّاصٍ بلجّته هلك
شتّان من يصطاد جوهر حكمة ... أدباً ومن يصطاد في الشرك السمك
يامن له يُنمى بأكرم نسبة ... ما دمت منه بعضه فالدُّر لك

لا عجب لاستمرار نهج الشعر والأدب، فعائلة آل فضل الله ومنذ أن توطّن جدّهم الشريف حسن بلدة عيناثا وهم يتوارثون الأدب والشعر والعلوم الدينية، وقد نبغ منهم العلماء الكبار والأدباء والشعراء ورجالات الفكر والسياسة والجهاد في كل عصر ومصر، ولا مجال لعدّهم أو الحصر. ولو تسنى لنا دراسة شخصياتهم لأفردنا لكل واحد منهم كتاباً خاصاً به، ولعلّ بعضهم يحتاج لمجلدات لتفيه حقّه، فحين نبحث في تاريخهم، ونتلمّس تراثهم وآثارهم، نجد منارات واضحة، أضاءت ردحاً من الزمن فأبهرت أنوارها، ومع تعاقب الأجيال انتقلت أخبارها، وستبقى ما بقي الدهر تبعث السنا الوهّاج بلمسات سحرية، فكأنهم بيننا، نتعرف عليهم كل يوم أكثر، ولعلّنا نقدّرهم حق قدرهم بحفظ تراثهم كما يستحقون ولو بمفاعيل رجعية إلى غابر الزمن.

إضاءات على ميزان العدل

الرسالة التي بين أيدينا بأبعادها الفلسفية، والحكمية، والعلمية والأدبية، لا يُحاط بجميع قضاياها، ولا أبعادها ومراميها، في صفحات معدودات، فالكاتب يفتح أبواباً متشعبة لمعالجة نوازع النفس وصراعاتها الداخلية، من خلال منطق كل من جنود العقل وجنود الجهل، ويُجري ما يشبهُ المحاكمة بينهما بأسلوب أدبي جميل يعيدنا إلى العصور الأولى الرائدة لفن الكتابة والإبداع، ويطرق أبواباً دينية عديدة من بداية الخليقة إلى قيام الساعة والحساب. برع السيد بسبر أغوار النفس الإنسانية من جميع جوانبها، بحكمة متعالية، وغاص في أعماقها لإخراج مكنوناتها من خيرها وشرها، وهذا ليس بالكثير على مجتهد فقيه، وأديب لامع، وحكيم بارز وشاعر مبدع، خبر شؤون الحياة، وله باعه الطويل في فنون الكتابة والشعر.

انطلق الكاتب في بداية الرسالة من حادثة طريفة حصلت معه في النجف الأشرف بالعراق، فقد دعا زملاءه إلى أكلة سمك على نهر دجلة بعد الفراغ من حلقات الدرس، عرف آخرون بالموعد، فأحبّوا ملاطفتهم على سبيل المزاح، وأخذوا السمك بطريقة خفية بعد الانتهاء من تحضيره وإعداده في منزل أحد المدعوين، وبعد أن اكتشف السيد

ورفاقه المسألة، أخذتهم الحيرة والدهشة، لأنّ مثل هذا السلوك غير مألوف ولا معروف في أوساط السيد أو من يعرفونهم.

دخل السيد من هذا الباب، وعالج أبعاداً تعكس ميول النفس نحو طلب الدعة ومتع الحياة، فعمد إلى ترجمة الحادثة على شكل رسالة في الفلسفة والحكمة، متوجهاً فيها إلى أولي الألباب الذين يظنون أنهم بمنأى عن الوقوع في شرك الشيطان، وما ذِكْرُ السمك إلا مثالٌ للمقصود، ولم يكن الهدف وصف مجالس الأنس والسرور، أو الإسهاب في الكلام عن ملاذ الجسد، وطيبات الحياة الدنيا، ولم تكن الرسالة أيضاً حسرة على ضياع السمك. كما ذكر صراحة: «الغرض من ذكر السمك، إنما هو مثال للمقصود، وقنطرة للمطلوب، وقديماً كانت الحكمة أمثالاً تضرب، وسيراً تقص، واقتفت الحكماء ذلك، لأنه أشدُّ وقعاً في النفس، وأمضى قوةً في تنبيه العقل».

اختار الكاتب الأسلوب القصصي، لأنه الأكثر تأثيراً في النفوس، ففي ظاهر رسالته سيرة وقصة: «النفس لاستماع السير والأمثال أرغب... وفي ذلك لهو للعامة وتذكرة لأولي الألباب».

الهدف يتبلور بتحذير وتنبيه ذوي العقول، ألاّ يقعوا في شرك إبليس، وحيله ومكائده، وهو المتسلط الدائم بأدواته الخاصة، يستهدفهم بها، فأساليبه مختلفة عن تلك التي يتوجه بها إلى عامة الناس.

يتسلل جنود الجهل والشيطان من خلال تحوير الخطاب الديني،

وتفسير الآيات والأحاديث التي تزين للمرء مغريات هذه الحياة الدنيا، وقد ينزلق تحت تأثيرها، ويقع في مهاويها، وهو يظن كل الظن أنه في الطريق السليم، وفي النهج القويم، وعلى الصراط المستقيم.

بعد مقدمة الكاتب وشرح الأسباب، يبدأ المشهد بالتبلور تدريجياً، ويتناول بالتفصيل مغريات لذّات المأكل والمشرب، وكيفية تسلط الشيطان على فئة من القوم، وهم من أصحاب العقول والعلم والاطلاع، فاصطادهم بشركه، وأوقعهم في حبائل مكره وخدعه، «فاقتنصوا السمك، وأخذوه بديكه وفرخه».

يرى السيد أن هذا الانقياد لمكائد الشيطان يظهر تبدل القيم، وتغيّر الزمان وأهله: «أما بعد، فإن الأيام قد اختلفت تاراتها، وتنكّرت حالاتها، وسمل فيها جلباب المعروف، واستفحل خصيّ المنكر، وانسدَّت طرق العدل، وتفتّحت أبواب الجور... يُحنث بالغموس من اليمين على وذرة، ويُباء بعظيم الوزر على أحقر من نواة أو بزره».

تسلّط إبليس على النفس الضعيفة فخدعها، وأضلّها بمغريات امتلك زمام أمورها، وما أكثر جنوده المجندة لذلك، ويكفي أن يسلِّط الشهوة على هذه النفس مثلاً، أو الشره، أو الطمع وما إلى ذلك، ولكلٍّ من هذه الجنود ما لا عدّ له ولا إحصاء من لذّات ومباهج لهذه الحياة الدنيا، والتي لا طاقة للنفس على مقاومتها، أو صدِّها، لأنها ضعيفة، ميالة إلى الشر، امام قوة الهجوم الشيطاني.

وقعت النفس في شرك الشيطان الذي نصبه لها بالسمك، وهو (أي

السمك) عبارة عن مثل مضروب، ورمز إلى أدوات الصراع العنيف داخل النفس للاستيلاء عليها، فلكل رمز من رموز العقل ما يقارعه من رموز الجهل، والحرب ضروس تستخدم فيها كل أسلحة الإثبات والإقناع، والصراع لا يتوقف إلى أن تكون الغلبة لمن ثبت وصمد في النهاية.

برع الكاتب في أدبه الفلسفي الذي غلب على الرسالة، بتصوير مشهدي مسرحي، لم يكن مألوفاً في عصره، فبين طيّات رسالته، وما رمَّزهُ فيها، وضعنا أمام معسكرين متصارعين وجهاً لوجه، هذان المعسكران هما:

معسكر الجهل، وجنوده وأعوانه، ومراكز تواجده، ومكامن القوة والضعف عنده، وصولاته وجولاته، ما بين كرّ وفرّ، من مكر وخداع، وتضليل وتلفيق، وادعاء وكبرياء، وتسلط ووقاحه، لاستمالة النفس وسوقها إلى جهنم.

معسكر العقل، وجنوده وأعوانه، ومراكز تواجده، وحصونه المنيعة، وتأييده وتسديده من الروح القدس، بصموده الدائم، وصده العنيد، وثباته في خنادقه، بمكامن القوة التي يمتلكها، شامخاً على منابر عزّه، يكيل للجهل صاعاً بصاع، وحجة بحجة، ويواجه التضليل بالبرهان الساطع، والحقيقة العلمية الواضحة، جاعلاً لكل قرين من الجهل قرينه، ولكل ندٍّ ضدّ، كل ذلك في سبيل تخليص النفس من شر الشيطان وكيده، وأخذها بأمان واطمئنان، إلى السعادة والخلود الدائم في جنات النعيم.

أما السلاح المستخدم في هذه المعارك فهو:

الآيات القرآنية الكريمة، بظواهرها وبواطنها.

الأحاديث المروية عن الرسول محمد ﷺ، وعن باقي الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وما تناقلته كتب السيرة.

الأشعار، وأجمل القوافي التي تفي غرض الرسالة، من المروي عن العرب.

ما نظمه الكاتب من أشعاره، وما كان منه خصيصاً للرسالة،

الحكم والأمثال وما قاله العرب قديماً.

الخطابات النثريّة الجميلة، والمستوى الرفيع من البلاغة والفصاحة التي اعتمدها الكاتب، بأسلوب أدبي خاص به، ولعله أحد إبداعاته الفنية التي امتاز بها، كتصويره للمعارك، وصياغة الصور البلاغية بقالب فني فريد، بأن يستعرض قوى الطرفين في ميدان الصراع، والميدان هو هذه النفس البشرية، والهدف النهائي هو السيطرة عليها والاستحواذ على قيادتها، كلٌّ إلى حيث يريد.

اختار الكاتب أسلوب اعتلاء المنابر، وإلقاء الحجج والبراهين، وطرح الاشكاليات، وإجراء المناظرات بين الطرفين، بلغة راقية ونثر بديع، يضاهي مقامات الحريري، ونثر ابن العميد. أراد الكاتب إظهار مخاطر الانقياد وراء خطاب جنود الجهل، لأنك تجد نفسك مقتنعاً بإلقاء حجته وبرهانه، وقد تستسلم لمقولته لطلاقة لسانه، وحسن بيانه، لأنه يعمد إلى أساليب حشد الأدلة الدينية، للتغرير بالإنسان، لكن

الكاتب بين في النهاية أن حجة العقل أرجح، وبرهانه أوضح لمصلحة الإنسان في الحياة الدنيا، وسعادته الأبدية في الآخرة.

هذه المقاربة امتاز بها السيد، الذي أوصل القصة في صياغتها التشويقية إلى ذروتها، حين انطلى الأمر على جنود العقل، وكادت المطمئنة تستسلم لهذا المنطق، قبل التنبه إلى المكيدة، وفي ذلك ترميز إلى أن إبليس يصل إلى هذا الحد من الإغراء، حتى لأولي الألباب، لولا أنّ العقل وجنوده قد تدخلوا فكان للقنوع خطاباً طويلاً مفصلاً، وللعفّة رأياً ومقولة هادئة، وللإيمان والتقوى موعظة مؤثرة، وكلمات واضحة.

أما العلم، «كاشف سدف الغمَّة، ومنير الحنادس والظلمة، بأنوار حججه الساطعة، وأشعة براهينه اللامعة..».

قد بيَّن الحق من الباطل، وأرشد إلى الهدى والصواب، بما حمَّله الله من نور المعرفة، والبراهين القاطعة، وبعد خطاب العلم المطول، وشواهده التي لا يرقى إليها شك، وأنوار الحق الساطعة، وثباته في حصونه المنيعة، يرى الكاتب أن في ذلك تنكيساً للجهل بهذا الخطاب العلمي العقلاني.

إبليس لا يستسلم ولا يستكين، وبمكابرته ومعاندته لا ييأس، وكل هذه البراهين لا تقنعه، فيعود إلى عادته من المكر والخداع، بالوسوسة للنفس البشرية، وينتفض وينصب الأشراك، ويقول: «مهلاً رويداً،

هيهات أن يغلبوا مني كيدا، او يثلموا لي حديدا، أو يخدعوا مني شيطاناً مريدا».

أنا أبو مرة إن جد الوهل خلقت غير زمل ولا وعل
ذو خدعة وذو دهاء وختل إن ملني الشر فإني لا أمل

بعد حيرة الجهل وجنوده، واليأس من الظفر بهذه النفس المطمئنة، والفشل في دفعها إلى حيث يريد، يصف الكاتب لنا عودة إبليس إلى الخديعة، لاستغلال يوم الفرح والسرور عند القوم، ويبدو أنه كان يوم خميس، كما أشار الكاتب شعراً:

ذاك يوم أضاء للأنس فيه شعلة أخمدت شعاع الشموس
كم قلوب سررتها ونفوس لاعدمناك يا صباح الخميس

في هذا اليوم اطلقت الناس العنان لاتخاذ الموائد والولائم، وصافي الأشربة وأنيقات المطاعم، فكأنّه يوم عيد عندهم، ففي هذا الجو السعيد تطلب الإمارة برمزيتها عند الكاتب من المطمئنة برمزيتها أيضاً الإذن بمكرٍ وخداع بأن: «خلِّي بيننا وبين القوم، لنؤدي شكر نعمته هذا اليوم».

وكان الجواب: «إن كان الأمر كما ذكرت، فاذهبي وضعي ما شئت، ما كان لله فهو لله، وما كان للشيطان فهو للشيطان».

اعتبر الكاتب هنا أن فرصة الشيطان هي التلاعب بمجالس البهجة والسرور، ينفذ في غفلة من القوم، وهم في أنسهم وفرحهم منغمسون، وأظهر خطورة خطاب الشيطان لمن يعتقد أنه محصن ضد حيله

وألاعيبه، ويعتقد أنه من أولي الألباب، وأنه «لم يدنسه ما هو فيه من الإثم رجسه، ولا من المحرم نجسه».

هذا ما استفز أبو مرة واستنفره، وجعله يستشيط غضباً، وتعلوه الكآبة، وينتفخ سحره غيظاً، وتضطرم نيران الحسد في قلبه، وتُهمِد الذلّة أجراسه، فما كان من جنوده، إلا أن اجتمعت عليه تشكو له الأمر، فأشار عليهم شيطان من مردته وأعوانه، وجندٍ من جنوده: «باقتناص السمك من قدوره، وأخذه بلبه وقشوره، فاختطفوه بعظمه ومخه، وديكه وفرخه». وقد زيَّن لهم هذا السمك بأجمل زينة، وأبهى صورة، ونعته بأبلغ الأوصاف، للسيطرة على النفس الضعيفة أمام إغراء السمك، واستلاب إرادتها، وكيف لا يكون له ذلك وهو ينشد:

لو يعلم الناس ما طعمي ولذَّته ما كان غيري من المطعوم يدخر
لحمي طري فلا الأضراس يتعبها مضغاً وها أعظمي من دقة إبر

السمك بما يرمز إليه من مغريات الحياة يتباهى ويتفاخر بجماله، وكأنه يبرِّر لمقتنصه السبب، وها هو يقول: «وله الفضل أن كسا جسمي قشوراً متينة، صلبة رقيقة، متداخلة كتداخل الدروع، منتضدة كانتضاد الجواشن... وجعلني مطعماً لجم من هذا الخلق العظيم... وخلق لحمي طرياً شهياً، وعظمي دقيقاً بهياً، تتفاخر به الأكياس، ويغالى به بين الناس، ويدور لحمي بالمضغ على أرحية الأضراس، بلا تعب ولا كلفة، ولا نصب ولا مشقة».

كل هذا الوصف للسمك، وما لحقه، وما سبقه، من إغراء، إنما هو حيلٌ وتلاعب على هذه النفس من قبل الشيطان، وبرغم حذر النفس

وحيطتها، ووعي الفئة العاقلة من أولي الألباب، والتي اختطفت السمك على سبيل المزاح، إلا أنها في النهاية وقعت في شرك إبليس، وانطلت عليها حيله ومكائده، وحصل ما حصل، والشيطان بخديعته النافذة، حصد نتائج جهده باصطياد أهل العلم والوعي، باستغلاله لهوهم، وساعات أنسهم وسرورهم.

وأخيراً، السيد ورفاقه بانتظار السمك على ضفاف النهر ساعة الغداء، وإذا بالمفاجأة بخبر اغتيال السمك. صمت القوم، «كأنما على رؤوسهم الطير، أو خرَّ من فوقهم السقف».

وتردوا في الحيرة ساعة، «وما هشوا وما بشوا».

وبعد الصحوة من الصدمة، والوعي من سكرة الغفلة، استفسروا عن الأمر، «فبلغهم شرحه، وبزغ عليهم فجره وصبحه».

عاد الكاتب بعد هذه الصولات والجولات، إلى اليقظة والتبصر إلى العبرة والموعظة، وكان له ولأصدقائه، وقفات تأمل مع النفس، فواحد ينطق بالحكمة، وآخر ينظم الشعر بما حصل، وهذا يشرح أو يصف، وذاك يتعظ ويعتبر، ثم يستنتج أن كدَّ الإنسان وتعبه في الحياة لاجتناء ما ليس له، فوزر الأعمال على كاهله، ومهنؤه لغيره، ولا بد للمرء من حسن تقدير الأمور جيداً، والحيطة والحذر من الغدر والخيانة، فالأيام والليالي لا يؤمن جانبها...

وختم السيد رسالته... «بعد أن انحلت من المجلس عرى أوشاجه،

كيف أوسع بالكشف عن النفوس... والقوى الباطنية... والعقل وجنوده، والجهل وجنوده، وما رمز إليه، وأثبته وركز عليه».

هذه الإضاءات البسيطة على ميزان العدل، تبيّن ما ذهب إليه السيد في كشف حقائق النفس وصراعاتها ما بين العقل والجهل وأدوات كلٍّ منهما، وضرورة تنبيه الإنسان إلى ما يحاك له، ولو كان يظن نفسه أنّه محصّنٌ وهو في مأمنٍ من الشيطان.

إنها رسالة مليئة بالدلالات والحِكم والإرشادات للنفس البشريّة، كي تسلك الطريق المستقيم، وتتخلّص من مكائد إبليس وألاعيبه وحيله، وترتقي وتسمو وتتكمّل لتصل إلى السعادة الأبديّة والخلود في جنّات النعيم.

ميزان العدل
«السمكيّة»

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الخلق بلا روية أجالها، ولا فكرة اضطرب إليها، وجعله نامياً بعد أن كان جماداً، ومتحركاً بعد أن كان ساكنا، وناطقاً بعد أن كان صامتا، وجمع فيه بين المتضادات، وألّف بين المتباينات، فأقام الكثيف باللطيف واللطيف بالكثيف، وبناه على حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة، وأودع فيه طمعاً وقنوعاً، وحرصاً وعفّة، وزهداً ورغبة، وبغضاً وحباً، وقسوة ورقّة. وجعل لكثيفه النعيم بالكثيف مما يشاكله من مركزه الأسفل وعنصره الأدنى، وللطيفه ما يشاكله من الصفات الروحانية والأخلاق الربّانية، والصلاة والسلام على نبيّه الواقف على الحد المشترك بين عالمي الغيب والشهادة، والنمط الأوسط بين المركزين سفلي الكثيف وعلويّ اللطيف، فلا مركز سفليه يلوي به عن مشاهدة علوية ولا مشاهدة علوية يحول بينه وبين إصلاح سفليه، فكان خلقه معجزة باهرة، وآيةً ظاهرة، وعلى آله المشتقين من نبعته، والمتفرعين من جرثومته[1]، القائمة بهم صفاته، واللاصقة بهم نعوته.

---

(١) جرثومته: الجرثومة: الأصل. (لسان العرب).

أما بعد فإني كنت في يوم عيدٍ من الأعياد، ومع زمرةٍ من الإخوان، تضمنّا حلقة الأنس في سلك السرور.

وذلك في النجف الأشرف في ظلال الصحن الشريف[1]، نقطف من زهر السرور يانعة، ومن ثمر الظرف أحلاه، والمجلس يطفح بأهله مفاكهة بالحديث، ومنادمة بالمسائل العلمية، نتشبث بشظف نجدٍ ساعة، ونتعلق بأهداب أرياف العراق أخرى.

فبينما نحن كذلك، إذ اجتمع رأي القوم أن يكون غداؤنا سمكاً(*) مقلياً بعد أن طال في تصويب هذا الرأي التشاجر، وكثر النزاع، ثم انتدب لشرائه أنفذهم بصيرة به، وأعرفهم بغثه وسمينه، وتعهد أعلمهم بطبخه وقليه أن يأتي به مكان الاجتماع، وهو من المطبوخات بين أجناس وفصول وأنواع، وقال: أعدّوا له ما استطعتم من الرطب الجني والخبز الطريّ، والشراب الذي يهزأ بابنة العنقود لونه، ويزري بالعنبر الداري نسيمه. وكان جماعة منا قد عرفوا ما عليه عزمنا وبه تشاجرنا وائتمرنا، فنصبوا للسمك أشراك خدعهم، وبثوا لقنصه حبائل مكرهم، وطرحوا أشباك دهاهم في بحور مناهم، فأمهلونا حتى إذا نضجت جلدته وأينعت ثمرته وكادت أن تتناوله يد الجاني، اصطادوه من فخه، وأخذوه بديكه وفرخه، وعظمه ومخه، وركبوا به كل سنام وغارب، ونزلوا به منزلاً لا تعرفهم به مدلهمات الغياهب، وتركونا نخبط في

---

(١) الصحن الشريف: مقام الإمام علي عليه السلام. والصحن أي دار المقام.

(*) عرفت الرسالة بالسمكية لأن مناسبتها أكلة سمك لم تتم.

بيداء الأماني ونقول: لا والله لا تؤمن عثرات الأيام ولا غدرات الليالي.

فأحببت أن أترجم هذه الواقعة بأنثار فائقة وأشعار رائقة، لما اشتملت عليه من خيبة الظن، وكذب الأمل، والغرض ما وراء ألفاظها من المعنى، وما هو جدير أن يقصد ويعنى، من أنه كم يكدح المرء في جمع شيئه ووزره عليه ومهنؤه لغيره، يتنعم به من لم تسع أقدامه في مذاهب طلبه.

وحرص المرء في الدنيا شديد ... وليس ينال منها ما يريد[1]

(١) هذا البيت للشيخ بهاء الدين العاملي (١٠٣٠هـ/ ٩٥٣م) وورد على الشكل التالي:
وجهد المرء في الدنيا شديد ... وليس ينال منها ما يريد
محسن الأمين: أعيان الشيعة، ج٩ ص٢٤٩.

جنود الجهل

١ ـ لوازم الجسد:

طالما كان يدور في الخلد ويختلج في الصدر، أن ما عليه عامة هذا الخلق العظيم من التنعّم في هذه اللّذات، والعكوف على هذه الطيبات، التي يجزي النزر منها في قوام الجسد، وبقاء نمو هذا الجسم. هل لهم على رجحان التلبس بذلك من مستند ودليل معتمد؟ أم هو مجرد شهوة نفسانية، ونهمة حيوانية، وتفاخر وتكاثر؟.

فنظرت في الأمر فرأيت أن ما هم عليه من العكوف على هذه المطاعم الأنيقة والمشارب الرحيقة، إنما هي بسائرها ملاذّ لهذا الجسد، وأغذية لهذا الجسم، ليس للروح الروحانية حظ في شيء منها، ورأيت أن الله سبحانه أودع في هذا الجسد قوى خاصة تحركه على أغذيته وتدفع به إلى ملاذّه، هي على رأي المتشرعة تحدث عند حدوث أسباب خاصة، لا تأصّل لها في الوجود، فتكون ساقطة عن الجواهر، وداخلة في حيّز الأعراض، وأما أهل الفلسفة والمتصوفة من المتشرعة فالذي يظهر منهم تأصلها، وتعدّدها.

وقد استند المتصوفة إلى أخبار منها: رواية كميل بن زياد عن أمير المؤمنين عليه السلام حين سأله عن النفس قال: أي الأنفس تريد؟ إنما الأنفس أربعة[1] وقد نقل بعض أنها خمسة، ويظهر من الرازي أنها ثلاثة.

كيف كان، فالذي نراه أن ابن آدم قد شارك جميع الموجودات، فهو من حيث الجسمية جماد كالحجر والتراب، وإليه الإشارة بقوله ﴿صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾[2]، ومن حيث الكبر بعد الصغر والطول بعد القصر نام كالأشجار والنباتات، ومن حيث الحساسية والتحرّك بالإرادة حيوان، ومن حيث طلبه الأغذية وانهماكه بها بهيمة، ومن حيث بطشه وغضبه سبع، ومن حيث خدعه وإضلاله ومكره وحيله شيطان، ومن حيث عباداته وطاعاته وتدبره في العواقب وتعقله للمطالب وإدراكه المنجي من المردي ملك، فكانت هذه الجهات سبباً في اختلاف التسمية.

فمن حيث النمو سموا نفساً نامية، ومن حيث الحساسية سموا نفساً حيوانية، ومن حيث النهم في المطلب للأغذية سموا نفساً بهيمية، ثم أضافوا إليها لقب الأمَّارة، ومن حيث الفتك والغضب سموا نفساً سبعية، ثم أطلقوا عليها اللّوّامة، ومن حيث التدبر والإدراك سموا بالمطمئنة تارة وبالكلية الإلهية أخرى، وشرح ذلك يطول وهو موكول

---

(١) قال: يا كميل إنما هي أربعة: النامية، النباتية، والحسية الحيوانية، والناطقة القدسية، والكلية الإلهية... (الفيض الكاشاني، التفسير الصافي، ج٣ ص١١١).

(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٤.

إلى محله، ثم بالبديهة إن ما عدا الأخيرة إنما هي قوى ترجع إلى الجسد والأخيرة هي الروح، ولها قوى وعوارض على ضد هذه وخلافها سننبِّهُ عليها فيما سيأتي.

ولما كانت الغاية القصوى والغرض المهم من هذه الرسالة أنه هل هناك أدلة واضحة وحجج معتمدة تقضي برجحان التلبس في لذات الدنيا على تركها أم لا؟ وإنما هو مجرد شهوة ونهمة، ترجمت ما هو واقع من الخصومة في هذا الباب بين ما هو من لوازم الجسد وعوارضه ولوازم الروح وعوارضها، وأظهرت ما ضمره من الدليل المرجح كل من القبيلتين، والبرهان الذي اعتمد عليه كل من الطائفتين من طريقي العقل والنقل، وهذا النزاع إنما هو مع عدم اكتناف هذه اللذات بمرجح خارجي وإلا فقد تتصف بالأحكام الخمسة، وهو فيما زاد عما به قوام الجسم وبقاء نموه، فما وجدت لجند الجسد من دليل عليه يعتمد وإليه يركن، والذي يكشف عن ذلك أن الإنسان لو ترك الاعتبارات الدنيوية لوجد أن ما زاد عما يحتاج إليه بقاء الجسم عبثاً وفضولاً، فيعلم أن ما ارتكبه هذا السواد الأعظم ليس الباعث عليه إلا شهوة ثائرة وبطنة طاغية، وتفاخر وتكاثر يحرض عليها ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾[1] ولقد ذكرت كيفية مكره وحيله وإضلاله للناس.

وكان الغرض من ذكر السمك مجرد مثال للمقصود وقنطرة

---

(١) سورة الناس، الآيتان: ٤ و٥.

للمطلوب، وقديماً كانت الحكمة أمثالاً تُضرب وسيراً تقص، واقتفت الحكماء ذلك لأنه أشد وقعاً في النفس وأمضى قوة في تنبيه العقل، إذ النفس لاستماع السير والأمثال أرغب وإلى الوقوف عليها أحب، وفي ذلك لهو للعامة وتذكرة لأولي الألباب، والله الهادي إلى منهج الصواب.

ولما كانت هذه الشهوات البدنية واللّذات الحسية قطباً تدور عليه أرحية نفوس هذا السواد من هذا العالم، ومعشوقاً استعبد هذا الخلق العظيم من ولد آدم، فكان هو المستحق للمحامد والممادح والشكر والثناء، فبلسان حالهم قدمت أمام المقصود أثنيةً ومحامدَ طفحَ بها لسان المدح في معرض الذم، فقال بشرائف متواليات الحمد، وكرائم متواترات الثناء، أخص جلائل هذه النعم ولطائف تلك الآلاء لا سيما مختلفات الألوان من أنيقات هذه المطاعم، والمنتضدة برحاب جفانها أسمطة الموائد والولائم، وأطائب نقولها التي تحفها في موائدها وزواهر بقولها، التي تحوطها في مشاهدها المتجلية لأولي الشهوات في آفاق العيش قمراً منيراً وشمساً مستطيراً، والحاملة لفراعنة ذوي الشَّره على المرح والخيلاء والتجبّر والكبرياء، حتى استعبدت ببريق نضارتها الأحرار، واستخدمت بصنوف ملاذها الأبرار، وذلّت لأطائب لذاتها صعاب الجبابرة، وخضعت طواغيت القياصرة والأكاسرة، وأنيط جليل صفات المدح وعظيم نعوت الشكر، بنواصع تلك الأشربة المشرقة في بروج كاساتها والمتلألئة في آفاق سما جاماتها... حتى صارت معكف اللذات ومسرح الترهات، ومورد الملاهي ومصدر الدواهي، وبها عمر حانوت الضلال وأقيمت دعائم الغي والوبال، وألفت سيد هذه

المطاعم ومليك تلك الموائد والولائم، التي ائتلفت مختلفاتها واختلفت مؤتلفاتها، بحاستي الذائقة والشامة على اختلاف أجناسها وتكثر أصنافها وتعدّد أوصافها، المنعم به على هذا الجمّ الغفير من خلقه والملأ العظيم من عباده، على حين لا اندراس من اللحم ولا قرم من النفس ولا طغيان من البطنة ولا شره من الشهوة، ولا فترة من نهس الأنياب[1] ولا انقطاع من نهش الأسنان، ولا رقدة من هرش الأضراس، ولا نسيان من مضغ الشفاه ولوك الألسنة وعلك الأفواه، ولا حرمان من تقطيع الازدراد[2]، ولا خلاء من تلك البطون المظلمة والأكراش المقفرة والأجوفة السَّغِبة والأمعاء الوغرة، المتحجب للطافة هيكله في لجي الماء وغمراته، والمتخذ لفرط نزاهته سكنا قعر البحر ووهداته الذي كبر عن أن ينقاد لمن ناواه، إلا بشرك المعتصم في ثبج[3] لجيه المدعو بالسمك، لا زالت تخفق فوق رأسه ألوية الأشراك وتضمه في بطونها المصائد والأشباك.

٢ ـ خداع النفس:

أما بعد فإن الأيام قد اختلفت تاراتها وتنكرت حالاتها، وسمل فيها جلباب المعروف واستفحل خصيّ المنكر، وانسدت طرق العدل وتفتحت أبواب الجور، وضجّت إلى ربها الأمانات من تواتر

---

(١) نهس اللحم: أخذه بمقدم الأسنان. (لسان العرب).

(٢) الازدراد: الابتلاع. (م.ن).

(٣) ثبج: وسط. (م.ن).

الخيانات، وولولت الذمَم من خفرها، وتصارخت العهود من نقضها، لما شاع من الظلم والفساد والتنكب عن منهج الرشاد، فلا حرمة الجار مرعية ولا ذمّة الصاحب محفوظة، ولا قديم العهد بوثيق العقد، يُحنث بالغموس من اليمين على وذرةٍ من اللّحْم السمين، ويُباء بعظيم الوزر على أحقر من نواة أو بزر، لا ورع يحجز عن هتك المحارم، ولا تقوى صادقة تمنع عن تحمل الأوزار وارتكاب المآثم، يقْنص اللحم من قدوره، ويغتال الخبز من تنوره، تختلس الأدهان من شعر صاحبها وتحتسى الألبان ولو كانت في فم شاربها، والدرهم والدينار هما القطبان الثابتان والمركزان المستقران، تدور عليهما من هذا العالم أرحية أديانهم ومن هذا الخلق العظيم شرائع مللهم، والحلال منهما ما حل في راحاتهم، والحرام ما تباعد عن ساحاتهم، لا يُرقَب بهما في مؤمن إلّاً ولا ذمة، ولا يُرعَى لله فيهما حقاً ولا لنبيه حرمة، ألا فما الحياة مع هؤلاء الظالمين إلا برما، وما النأي عن دارهم والتباعد عن جوارهم إلا سعاده، فإنهم قد طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، ألا ومن أعجب ما أضحك سن الشامت بعد استعبار، وسكن خفقان قلب الحاسد بعد أن كان لا يهدأ له قرار.

حديث قرعنا له سن الندم وأثابنا طروقه غماً بغم، وتقطعت دون بلوغه أسباب المنى وخابت الآمال فيه إذ لم ندرك من ثمره إلاّ مُرَّ الجنى. ويا له من حديث به يستنير العقل للمتفكر وتجلى غواشي العمى به عن بصر المعتبر، فيرى مناهجه بعد العَشوة ويسمع نداء هواتف ألبابه بعد الوقرة:

حديث إذا ما فيه فكر عاقل ... تيقن أن الرشد غير الذي نهوى
وعاين مسعانا ضلالاً وإنها ... على جيدنا أفعى الدواهي غدت تلوى
وتنشر لذات الليالي لنا المنى ... بزبرجها حتى نهب لها تطوى
تُري الجاهل المغرور أبهج منظر ... وفي طيّه الحتف المعاجل والبلوى
أعشاق لذات الليالي ألا أقصروا ... لغيركم قد أصبحت جنة المأوى
أيطمع فيها من هواه بغيرها ... وفيه الهوى يهوي بما شاء أو يهوى
لبانة نالت منك أوفر حظها ... وحظ سعادي عندك الهجر والسلوى[1]
أتغرس أزكى النبت في سفح لعلع ... وتأمل أن تجنيه من عرصتي حزوى
سهامكم طاشت وخابت ظنونكم ... فليس لكم إلا الأماني والدعوى

وما أحسن في الحال ان ينشد ويقال:

تقول رجال الحي تطمع أن ترى ... بعينيك ليلى مت بداء المطامع
وكيف ترى ليلى بعين ترى بها ... سواها وما طهرتها بالمدامع
وتلتذ منها بالحديث وقد جرى ... حديث سواها في خروق المسامع[2]

ولنعد إلى ما نحن بصدده، وهو أن سيد مطاعم كل حاضر وباد، وحديث كل محفل وناد، الشطي البحري والمدعو من بين أصناف

---

(١) السلوى: النسيان. (لسان العرب).

(٢) هذه الأبيات لمجنون ليلى (؟ ـ ٨٦هـ/ ؟ ـ ٦٨٧م). (موسوعة الشعر العربي).
وقد نسبها ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان وأبناء الزمان إلى يزيد بن معاوية (٢٥ ـ ٦٤هـ/ ٦٤٥ ـ ٦٨٣م)، ج٤، ص٣٥٤، مع تعديل في البيت الأول فقد ورد:
تقول نساء الحي نطمع أن نرى ... محاسن ليلى مت بداء المطامع

الأسماك بالسمك البني، قد طار ذكره وعلا أمره ووري زنده ولمع وريه وشبت جمراته وهبت نسماته وفاحت نفحاته، وبث رسله في كل آهل وصحصح ومراح ومسرح، ولبس اليوم بالأمس وستر وجه الشمس بالخمس، وملك من الناس مقاطع أنفاسها ونغمات أجراسها، حتى لم يكن بغير حديثه الصياح والتناجي، ولا تقع على غيره سانحات الآمال ولا شاردات الأماني، إلى أن امتلأت بنشر فضائله الدواوين، ولم ترجح إلا به أكف الموازين، وكانت رسله المنبثة في الأبيض والأسود والطلق والأربد، النفس الأمّارة البهيمية، واللّوّامة السبعية، والحسية الحيوانية، والنامية النباتية، وتقفوهن في مواكبها الشهوات الفانية التي تدع شوامخ الديار على عروشها خاوية، وبين أيديهن تخفق ألوية اللذات والمسرّة على رائدهن الخيال وقائدهن الشره وعميدهن أبي مرة[1]، فنزلوا من القلوب في سويدائها، وخيموا من البطون في أحشائها، وكان وفودهن علينا في يوم ترقص له من الفرح والسرور الأحجار، فكيف الكاعبات الناهدات من الأبكار، ويطيش له بضروب المزاح لب الحليم، فكيف من يتخذ لهو الحديث من سمير أو نديم، وتتغنّى له طرباً بهديلهم الحمائم، فكيف ذوات الترهات من أمهات التمائم:

ذاك يـوم أضـاء لـلأنـس فـيـه ... شعلة أخمدت شعاع الشموس
وبـه لـلـسـرور بـدر تـجـلّـى ... شق للهم ظلمة الحنديس[2]

---

(١) أبو مرة: كنية إبليس.

(٢) الحنديس من الحندس: الليل الشديد الظلمة. (الصحاح).

وجبين الزمان طلق المحيا ... مشرق بالسرور بعد العبوس
وبه الطير في الغصون تغنّت ... والندامى تحث صافي الكؤوس
بينما الكاس كالجمان بياضاً ... إذ كلون العقيق بالخندريس[1]
طالعتنا كواكب السعد فيه ... ولإبليس فيه نجم النحوس
ليس للدهر عندنا من أياد ... غير يوم أزاح كرب النفوس
فهو في ظلمة الزمان صباح ... يتجلى وخير علق نفيس
كم قلوب سررتها ونفوس ... لا عَدِمْناكَ يا صباح الخميس

أيها اليوم أنعم صباحاً وازدهِ ارتياحاً، وطب غدوة ورواحاً، كم لك عندنا من يد لا تكفر، وذمة لا تخفر، ما أنت لنا في أيام الدهور إلا قطعة من سرور.

بطلعتك الغراء يا غاية المنى ... تجلت لنا الدنيا بطلق محياها
وشمس الهنا قد أشرقت من جبينها ... وفي ما رغبنا أثقلتنا عطاياها

بزغت يا هذا بأسعد طالع، فلم نرَ فيك للورى من ثغر إلا وبالفرح والسرور يفتر، لك الطائر الميمون ما أسعد طالعك في الأيام، وما أجلّ موقعك في قلوب الأنام، وحسبك ما نلته من عظيم الشرف، وما اتخذته دون الأيام من قلائد أو شنف[2]، إن بك جفَّت الأقلام عن رقم موبقات الأنام، ومن أيدي الكرام الكاتبين نزعت صحائف الأعمال والدواوين، ولبست المحافل من برود الخلاعة والظرف كل مارق منها

(١) الخندريس: الخمر. (لسان العرب).
(٢) شنف: القرط يلبس في الأذن. (لسان العرب).

وما لان وشف، وحمل فرط نضارة أنسك وريق غضارة سرورك عصائب أجناد السمك، على أن تزدحم في أبوابنا، على حين راحة الضنين[1] منًا تكاد أن تسخى بكل ما ادخر أو ملك، يقدمهم بشوارد أوهامه الخيال، وتقفوه الرعال من مواكبهن أثر الرعال، فما زال إلى أن ارتقى من الحرص مدارج أعواده، ومَلَك من الطمع ذروة منبره، وأغرى سبابتيه في أذنيه ونادى:

أيها القوم قرّت عيونكم بالسرور، وأنعم بيومكم من يوم، أعيروني سمعكم سويعة ثم انهلوا من سمركم ولهوكم كل شريعة، فاشرأب إليه من القوم النظر وقالوا له:

مه ماذا الخبر؟ فاندفع يتدفق بذلاقة لسانه، وينظم من نثار الدر وحصيد المرجان في سلك بيانه، وغدت عواصف بلاغته في أرجاء الأذهان تهب، وفي ثبج لجي فصاحته يطفو ويرسب، عاطفاً على بداهته من الشعر فضل عنانه، نافثاً في عقد سحر فصاحته وبليغ بيانه:

فما مجلس اللذات يوماً بعامر ... إذا لم تكن فيه الموائد تنصب
ولا سجعت فيه بلابل أنسه ... إذا لم يكن بالكاس يطفو ويرسب
ولا أزهرت فيه خمائل لهوه ... إذا لم تكن تأتي النقول وتذهب
ولا راق إن لم تغد شهب بقوله ... إذا غاب مِنها كوكب بانَ كوكب
ولا للندامى صفقت راحة الهوى ... إذا لم يكن فيها الأغر المحجب

---

(١) الضنين: البخيل. (لسان العرب).

أخو الغمرات الزاخرات عبابها أغر كريم الأمهات مهذب

ثم تصفح وجوه القوم فرأى أنه أنعش من أنسهم الرمم، وأبرم لما يؤمله منهم منحل الهمم.

فأنشأ وقال:

جبال النهى والفضل والعلم والحجى وأعلام نهج التائهين عن الهدى

ثم أذعر سوائم البلاغة عن سطح لسانه، إذ من ازدحامها عليه كاد أن يتقيد في مسلسلات بيانه، وجرى على ما هو به في سنن خطابه:

جاءتكم رسل الأغر فدونكم فاستنطقوها عن جليل فضائله
وأتتكم تهديكم لسبيله وتريكم نهج الهدى لفواضله
طمعت بكم لما رأتكم صادكم مرح الهوى في فخه وحبائله
وسقيتم كأس السرور ومال في هاماتكم طرباً غناء بلابله

٣ ـ النفس الأمّارة:

ومذ رأت الأمَّارة أنَّ القوم أعاروا الخيال السمع إصغاءً، والبصر شخوصاً، وأن أرض سرورهم قد اهتزّت لملث ودقه، وربت لدلاّح بلاغته ونطقه، وهشوا له وبشوا، وبماء المفاكهة مجالس إيناسهم رشوا، طمعت أن تملك من القوم الأعنة، وتخبط بهم كل سدفة ودجنة، فنهضت وملكت من مقعد الخطيب الذروة، بوحي أسرع لها من طرف الشره، وأمر صدر عن الشهوة، ونزلت من بليغ القول وفصيح الكلام بأعلى عرعرة وأرفع ذروة وأعز سنام. وقالت:

الحمد لله الذي أحلَّ لنا الطيبات، وحرّم علينا الخبائث، و﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾[1]، ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ﴾[2]، ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾[3]، ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[4]، ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[5].

وسكتت هنيئة ثم انحدرت في بديع تلاوتها: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾[6].

أما بعد أيها الملأ المجتمع والجسد المستمع، لغيركم الهبل ولعقول من سواكم الضلة والخبل، أما لدائكم من بلول ولكواكب جهلكم من أفول، ولنومتكم من يقظه، وقر سمعٌ لم يفقه الواعية.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤٢.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٤٣.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٤٤.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

ما بالكم لاهفت منكم حلومكم كواسراً تتحرى السِّلْيَ والجيفا
وسوماً أغفلتها عن مسارحها غفل الرعاة فعادت هزلاً عجفا

أرضيتم بالضيق من عيشكم دون السعة، وبالضنك والبؤس بدل الخفض والدعة، وهجرتم طيبات ما أحلّ الله لكم، وحرّمتم على أنفسكم لذات ما أسبغ من نعمه عليكم.

وتفيهق في مدح هذه الطريقة شاعركم، وحث على ارتكاب جادتها قائلكم، حيث بزعمه يصف الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة:

لفوا على كرم التقوى مآزرهم والنفس قد ألزموها العدل والنصفا
لما رأوا حلقات الرق تملكهم ما غض طرف لهم عن طاعة وغفا
عافوا النعيم وريف العيش واتخذوا من التقى في الدياجي روضة أنفا
صفر الحقائب إلا من عُلىً وهدى قد حالفوا البؤس لما جانبوا الترفا
هم الشموس التي تجلى أشعتها عن وجه صبح الهدى الظلماء والسدفا
وهم أدلة من قد حاد عن سنن النهج القويم ومن قد مال وانحرفا
من كان يهواهم يدلف بنهجهم ما أخطأ القصد من في نهجهم دلفا

لقد طاش سهم القائل وكبا زنده، وحفظ شيئاً وغابت عنه أشياء.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1].

ولنا في ما نسبه لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام الخطيب في جامعه غنية ورد على هذا الشعر ومذهب ساجعه:

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

أجد الثياب إذا اكتسيت فإنها زين الرجال بها تعز وتكرم
ودعَ التواضع في الثياب تخشعاً فاللَّه يعلم ما تجن وتكتم
فرثاث ثوبك لا يزيدك رفعة عند الإله وأنت عبد مجرم
وبهاء ثوبك لا يضرك بعد أن تخشى الإله وتتقي ما يحرم[1]

أما درى أن المتقي من وقى إيمانه من النقصان ودينه من الخسران، وجوارحه من الطغيان، وفاه عن فضول الكلام، وبطنه عن لذيذ الحرام، وعينه عن النظر إلى ريبه، ولسانه من الكذب والغيبه، ويديه أن يتناول بهما ما ليس له، ورجليه أن يسعى بهما إلى الفساد، وفرجه يحفظه عن المحرم من السفاد[2]، ويكون وصيّ نفسه قبل حلول رمسه، ويجعل يومه الذي هو فيه خير من أمسه.

وعن بعض أهل البيت عليهم السلام: «المتقي من عقل عن الله أمره ونهيه»[3] وقال آخر: «ليست التقوى قيام الليل وصيام النهار، والتخليط في ما بين ذلك، التقوى أداء ما فرض الله وترك ما حرم الله».

وقال الشاعر:

وليس بتقوى الله طول عبادة ولكنما التقوى مجانبة الشبه

---

(١) منسوب للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ومما أنشده علي بن جعفر الوراق لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب: الأبيات الأربعة مع تغيير في البيت الثالث. فبدل لا يزيد رفعة: لا يزيدك زلفة. (ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨ ص١١).

(٢) السفاد: الجماع. (الصحاح).

(٣) محمد الريشهري، العقل والجهل في الكتاب والسنّة، ص١٢٣.
جاء فيه: عنه صلى الله عليه وآله إنما العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه. كما ورد الحديث في حلية الأولياء، ج٩، ص٣٨٧، ولكن ليس فيه «ونهيه». ذكره ابن عساف في تاريخ دمشق، ج١٨ ص٤٧.

وأن يخلص الإنسان سر ضميره وأن يبرز الإبريز في معرض الشبه[1]

ولأن قلت أن للزهد مرتبة الصديقين، وسجية العارفين، وحلية المتقين، وزينة الناسكين، وشعار الصالحين، ودليل المريدين، وعلى صفة تتهافت عليها الأبرار، وتتسابق إليها الأخيار وتنطق بمدح صاحبها الأنثار والأشعار:

يصد عن الدنيا إذا عنّ سؤدد ولو برزت في زي عذراء ناهد[2]

إذا المرء لم يزهد وقد صبغت له بزبرجها الدنيا فليس بزاهد[3]

قلنا ما الزهد إلا الإعراض عما في أيدي المخلوقين، والإقبال على فيوضات مواهب رب العالمين، وقلع شجر الميل والحب من سويداء صميم القلب، وما التقلّب في الحلال من رياض النعيم مما حرمه علينا المنان الكريم، أيخلقه لنا ويحرمه علينا، هل هذا إلا السفه والعبث العظيم، كبر وتعالى عما يقولون، العزيز الحكيم، كيف وفي أذانكم مغرباً وطلوعاً، تهتف: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[4].

وهذا العام وإن تناهبته أيدي التخصيص وسياقه ظاهر في الترخيص، إلا إنّا أمنا من العثور على مخصص التحريم، حيث فصل لنا ما حرم علينا في محكم الآيات والذكر الحكيم.

---

(١) الإبريز: الذهب الصافي. (لسان العرب).

(٢) من أبيات للشاعر أبو تمام (١٨٨ ـ ٢٣١هـ/ ٨٠٣ ـ ٨٤٥م) من قصيدة في ٥٠ بيت. (ديوان أبي تمام).

(٣) وردت في ديوان أبي تمام: بعصفرها، وليس: بزبرجها.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

ثم أنشأت:

فما رافض اللذات يوماً بزاهد ... وفي قلبه وجد إليها مبرح
وما الزهد إلا آية في كتابه ... بها محكم التنزيل عنه يصرح
فلا تأس عما فات من كل لذة ... ولا إن أتى طبق المنى أنت تفرح[1]

ليس الزهد هجر الطيبات وتحريم اللذات، وخشونة الملبس، ورثاثة الهيئة وجشوبة المطعم، بل الزهد صفة من الأوصاف القلبية، وغريزة في الغرائز النفسانية، فمن ثبت الزهد في سويداء قلبه وركز في صميم لبه، فلا عليه أن يرتع من عيشه في رياض النعيم، ويقطف زهر المستأسد منه والجميم، وليس من حقيقة الزهد أن يشتهر بين الناس بارتكاب المطاعم الجشبة، والتقمص بأرثِّ اللباس، فإن كان المتلبس بذلك علانيته مطابقة لسريرته، فقد أحب أن يطلع الناس عليها، وهذا هو الرياء الخالص، وإن كانت مخالفة لها فهذا البلاء المدمر، والهلاك الذي لا نجاة بعده، فهو في كلا الحالين مثلوم الحدين:

تصوف كي يقال له أمين ... وما معنى التصوّف والأمانه
ولم يرد الإله به ولكن ... أراد به الطريق إلى الخيانه[2]

هذا رأس الزاهدين وعلم الناسكين وأس هذه الطريقة، ودليل هذه الغاية، وإمام هذا المذهب، سيد الموحدين مولانا أمير المؤمنين عليه السلام،

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (سورة الحديد: ٢٣).

(٢) ورد البيت الأول للشاعر محمود الوراق (ت. ٢٢٠هـ/ ٨٤٠م):
تصنع كي يقال له أمين ... وما معنى التصنع للأمانة
وعمد الكاتب إلى التغيير في البيت ليتناسب ومحل الشاهد. (موسوعة الشعر العربي).

«أنب عاصم بن زياد على تقشفه وتخشنه في مطعمه وملبسه وأمره بطرح العباء ولبس الملاء، ولم يرضَ له بهذا المسلك، ولا أحب له هذا المذهب، ولو كان من المذاهب المحمودة والطرائق المرضية، لما أوجعه بالكلام عتباً، وآلمه بالقول ملاماً، وأورد له من البراهين والحجج، ما كان لنا بها على غيرنا الغلبة والفلج، وذلك حين أتى إلى الربيع بن زياد عائداً له، فقال: يا أمير المؤمنين ألا أشكو إليك عاصم بن زياد، قال: وما له؟ قال: لبس العباء وترك الملاء، وغمّ أهله وأحزن ولده، فقال: عَلَيَّ عاصماً، فلمّا أتاه عبس في وجهه، فقال: ويحك يا عاصم، وفي رواية: يا (عدي نفسه) لقد استهام بك الخبيث، أترى الله أباح لك اللذات وهو يكره أخذك منها، لأنت أهون على الله من ذلك، أو ما سمعته يقول: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[1] ثم قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[3]، أما والله إن ابتذال نعم الله بالفعال أحب إليه من ابتذالها بالمقال، وقد سمعته عزّ وجلّ يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[4]، ويقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[5]، وإن الله عزّ وجلّ خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا

---

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ١٩ و٢٠.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٠.

(٣) سورة فاطر، الآية: ١٢.

(٤) سورة الضحى، الآية: ١١.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟﴾[1]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[2].

فقال عاصم: فعلام أنت يا أمير المؤمنين اقتصرت على لبس الخشن وأكل الخبيث، فقال: إن الله افترض على أئمة العدل أن يقدروا لأنفسهم بالقوام لئلا يتسع على الفقير فقره، قال فما برح حتى لبس الملاء ونبذ العباء»[3].

«وفي كتابه إلى أهل مصر مع محمد بن أبي بكر ما يشفي الغليل ويبين النهج ويوضح السبيل حيث قال: «اعلموا يا عباد الله إن المتقين حازوا عاجل الخير وآجله، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، أباح لهم الله في الدنيا ما كفاهم به وأغناهم.

فقال الله عزّ اسمه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ...﴾ إلى آخر الآية».

سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم فأكلوا معهم من طيبات ما يأكلون، وشربوا من طيبات ما يشربون، ولبسوا من أفضل ما يلبسون، وسكنوا من أفضل ما يسكنون، وتزوجوا من أفضل ما يتزوجون، وركبوا من أفضل ما يركبون.

أصابوا لذة الدنيا مع أهل الدنيا، وهم غدا جيران الله، يتمنون على

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٧.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.

(٣) الكليني، الكافي: ج١ ص٤١.

الله فيعطون ما يتمنون، لا ترد لهم دعوة ولا ينقص لهم نصيباً من لذه»[1].

(يتابع خطاب النفس الأمّاره..) ثم قالت: هذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام وهو خليل الرحمن، وكان وحده أمة لله قانتاً، ولقد كان عنده من النّعم والنِعَم ما لا يقدر على حصره العادون ولا على نعته الواصفون.

وهذا سليمان بن داوود وهو نبي الله الواحد قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[2]، فسخر له الأنس والجن والوحش والطير والريح، ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[3].

وأيوب عليه السلام حاله معروف، وغناه في الآثار موصوف.

هذا إمامنا أبو محمد الحسن عليه السلام البار الناصح الأمين، كان يلبس الثمين ويهب المئين[4] ويحذي الخيل بصفائح الذهب، ويمتطي منها الأغر والأشهب.

وفي طريقة أخيه السبط المنتجب[5]، ما يرغم معاطس الجاحد ويستأصل شأفة[6] المعاند.

---

(١) الشيخ المفيد، الأمالي، ص٢٦٣.
(٢) سورة ص، الآية: ٣٥.
(٣) سورة سبأ، الآية: ١٢.
(٤) المئين: المئات، يقصد: أدنى عطاياه، المئات من الدراهم. (لسان العرب).
(٥) يقصد الإمام الحسين عليه السلام.
(٦) شأفة: عداوه. (أساس البلاغة).

ولنا في مولانا أبي عبد الله الصادق أحسن الأسوة، وفي إمامنا أبي الحسن الرضا عليه السلام خير الاقتداء.

وفي جواب الصادق عليه السلام لبعض الجهلة، حيث اعترض عليه في زينته، فقال: إن أحق الناس بالدنيا أبرارها[1]... إلخ. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب.

وفي جواب الرضا عليه السلام للمتصوفة عندما عاتبوه على زينته ونعيمه، «فقال: إنما يراد من الإمام عدله وقسطه... إلى آخر الحديث»[2]. ردع وزجرٌ لمن ألقى السمع وهو شهيد، والأوامر الواردة في النزاهة والنظافة والتزيين والاستحمام، والتلذّذ بأصناف البقول والنقول والتنور، والتخضب والأدهان، ما يعجز حصره الأقلام، وتسود له وجوه الدفاتر.

وقد تمادحت العرب بحسن الهيئة، وطيب الرائحة، وبهاء الزي، وهي عندهم مأثرة حسنة، وصفة محمودة، لها يمتدحون، وبها يتنافسون وعليها يتهافتون.

قال النابغة[3]:

رقاقُ النعال طيبٌ حُجُزاتُهم يحيون بالريحان يوم السباسب

---

(١) ورد هذا الحديث في صيغ مختلفة في جواب للإمام الصادق عليه السلام لمن سأله عن لبسه. (علي الشهرودي، مستدرك سفينة البحار، ج٤ ص٣٩٤).

(٢) ورد الحديث في جواب الإمام الرضا عليه السلام للصوفية وهو: إنما يراد من الإمام قسطه وعدله، إذا قال صدق، وإذا حكم عدل، وإذا وعد أنجز والخير معروف ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، وإن يوسف الصديق لبس الديباج المنسوج من الذهب وجلس على متكئات فرعون. عزيز الله عطاردي، مسند الإمام الرضا، ج١ ص٣٠٣.

(٣) النابغة الذبياني، (ت. ١٨هـ/ ٦٠٥م). (ديوان النابغة الذبياني).

يحييهم بيض الولائد بينهم ... وأكسية الاضريج فوق المشاحب[1]
يصونون أجساداً قديماً نعيمها ... بخالصة الأردان خضر المناكب

وقال الفرزدق[2]:

بنو دارم قومي ترى حجزاتهم ... عتاقاً حواشيها رقاقاً نعالها
يجرّون هدّاب اليماني كأنهم ... سيوف جلا الأطباع عنها صقالها

وقال طرفة العبدي[3]:

أسدُ غيل فإذا ما شربوا ... وهبوا كل أمون وطِمَر
ثم راحوا عبق المسك بهم ... يلحفون الأرض هُدّاب الأزر

وقال آخر:

إذا التاجر الداري جاء بفارة ... من المسك راحت في مفارقهم تجري[4]

وقال كثير عزة[5]:

أشم من الغادين في كل حُلة ... يميسون في صبغ من العصب متقن

---

(١) الأضريج: أكسية باللون الأحمر، لا تكون إلا من الخزّ، والمشاجب: أعواد تعلّق عليها الثياب. (لسان العرب).

(٢) الفرزدق، الشاعر المعروف، همام بن غالب، (٣٨ ـ ١١٠هـ/ ٦٥٨ ـ ٧٢٨م). (ديوان الفرزدق).

(٣) طرفة بن العبد (٥٣٩ ـ ٥٦٤م). ورد في الديوان الشطر الأول: فإذا ما شربوا وانتشوا. (ديوان طرفه بن العبد).

(٤) ورد هذا البيت في بحار الأنوار للعلامة المجلسي، ج٣٠، ص٣٠٢، بعنوان: كتاب سليم بن قيس: عن أبان، قال: قال سليم: كتب أبو المختار بن أبي الصمق إلى عمر هذه الأبيات، وهذا البيت من ضمن هذه الأبيات.

(٥) كثير عزة، (٤٠ ـ ١٠٥هـ/ ٦٦٠ ـ ٧٢٣م). (موسوعة الشعر العربي).

لهم أزرٌ حمرُ الحواشي بطونها بأقدامهم في الحضرمي المُلَسَّن

وقال آخر:

من النفر الشم الذين إذا اعتزوا وهاب الرجال حلقة الباب قعقعوا
جلا الأذفر الأحوى من المسك فرقه وطيب الدهان رأسه فهو أترع
إذا النفر السود اليمانون حاولوا له حول برديه أرفوا وأوسعوا[1]

وقال آخر:

يشبهون ملوكاً في محلتهم وطول أنضية الأعناق واللمم
إذا غدا المسك يجري في مفارقهم راحوا كأنهم مرضى من الكرم[2]

وقال السيد أبو الحسن الشريف الرضي محمد بن الحسين الطاهر العلوي في قومه:

أنا ابن الفرع من أعلى نزار ومن يزن الأسافل بالأعالي
من القوم الأُلى ملكوا رقاب الأ واخر واختلوا قمم الأوالي

---

(١) وردت هذه الأبيات مع بعض الخلاف فبدل اعتزوا وردت انتدوا، وبدل وهاب الرجال: وهاب اللئام في البيت الأول.
وفي البيت الثاني ورد:
جلى الغسل والحمام والبيض كالدمى وطيّب الدهان رأسه فهو أترع
أما البيت الثالث فورد:
إذا النفر السود اليمانون نمنموا له حوك برديه أجادوا وأوسعوا
(البغدادي، خزانة الأدب، ج٦، ص٨٠). والأذفر من المسك: الذكي الجيد (العين).

(٢) ليلى الأخيليه (ت. ٨٠هـ/ ٧٠٠م). والبيتان وردا في موسوعة الشعر العربي خلاف الرسالة:
يشبهون ملوكاً في تجلّتهم وطول أنضية الأعناق واللمم
إذا المسك يجري في مفارقهم راحوا تخالهم مرضى من الكرم

إذا بسطوا الخطى سحبوا رقاق الـ ... بـرود عـلـى الـرقـاق مـن الـنـعـال
وإن قسمت بيوت المجد حازوا ... فناء البيت ذي العمد الطوال[1]

وقال مدحاً فيهم وتعريضاً بذم غيرهم:

عطرون ما لأنوفكم من طيبهم ... بين المجامع غير شم المرغم
يتساندون إلى عُلى عادية ... ومكارمٍ قُدم ومجدٍ قشعم[2]

وقال:

إن الجياد على المرا ... بط تشتكي طول الجمام
ومصرّة الآذان تر ... قب وثبة عند القيام
يحملن أسد الغاب قد ... عقدوا الدوابر باللمام
من كل هفاف القمي ... ص أشمَّ معروق العظام
ماض كأن ذراعه ... من قائم العضبِ الحسام[3]

فارجعوا أيها القوم إلى ما أترفتم فيه من طيباتكم، وحبيتم به من لذاتكم إن كنتم تعقلون. رحم الله امرأً سمع فأجاب، ووعى فأناب، واعلموا أن من أجلّ ما امتنَّ به الله عليكم، وأعظم ما أسداه من نعمة عليكم، الذي نعته إليكم في محكم كتابه، وأبان لكم عن خفايا ما ستر

---

(١) الشريف الرضي، (٣٥٩ ـ ٤٠٦هـ/ ٩٦٩ ـ ١٠١٥م). ديوان الشريف الرضي.

(٢) الشريف الرضي، م.ن، والمرغم: الأنف، والعاديه: القديمه، والقشعم: المسن من الرجال والنسور (والضخم).

(٣) م.ن، والجمام: الراحة، واللحام: الشعر الطويل، ومعروق: مجرد من اللحم، العضب: السيف.

وقد وردت في البيت الثاني في الديوان: بعد القيام، بدل من عند القيام.

علمه عنكم من أطائب قشره ولبابه، حيث يقول لاعدمنا نوافح عطاياه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[1]، وهـا نـحـن خاصته ووفده، وأتباعه وجنده، قد حملنا ودائع رسالاته إليكم، وأمرنا أن نتلو واضح بيانه عليكم، فإن استجبتم له فأنتم أسعد وأرشد، وإلا نصيبكم ضيعتم ورشدكم أخطأتم، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[2]، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[3].

٤ ـ الحسية الحيوانية:

ومذ وقفت على ما فصلت به الخطاب، طمعاً بأن يصدر القول لها من القوم بأنعم الجواب، رمقتها الحسية الحيوانية بطرفها، وأثنت عليها بما جاءت به من بديع نعتها ووصفها.

وقالت:

لقد أبلغت القول وأحسنت التأدية، ومنحت النصح وأرشدت إلى سبيل الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، فبرِّك بهؤلاء القوم جدير بأن يشكر، ولأنت بالرأفة بهم والحنوة عليهم أحق وأجدر، وقد بيَّنت النهج للسائر والغاية للقاصد، وندبتهم إلى التقلّب في نعم لولا وجودهم في الدنيا لما كانت سابغة، وآلاء لولا اجتناؤهم لطيباتها لما كانت عليهم متتابعة، وهذه الآيات بالحث على اجتنائهم لطيباتها تجلّت للأسماع

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٤.

(٢) سورة القصص، الآية ٥٦.

(٣) سورة العنكبوت، الآية ١٨.

دعاة هتفاً، والبينات بالدعاء على ارتكابها لم نجد لها عنه مصرفاً، الم يكفهم برهاناً ساطعاً ودليلاً قاطعاً: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[1]، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾[2]، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[3]. لقد خابت من المنحرف عن الحق الصفقة، أما بهذا بلاغ لقوم عابدين، ثم تلت (النفس الأمّاره): ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ * وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[4].

وفي الحديث: «إن الله يحب أن يرى أثر النعمة على عبده»[5]، وفي آخر «أن الله جميل يحب الجمال»[6].

وكان الصادق عليه السلام يتصدّق بالسكر واللوز، فقيل له في ذلك، فقال: لأني أحبهما والله عزّ وجلّ يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[7].

---

(١) سورة النحل، الآية: ١١٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٣.

(٣) سورة النحل، الآية: ١١٦.

(٤) سورة النحل، الآيتان: ٦٦ و٦٧.

(٥) الكليني: الكافي، ج٦، ص٤٣٨.

(٦) الكليني، م.ن.، ج٥ ص٤٣٨.

(٧) عن أبي عبد الله البرامغاني أنه كان علي بن الحسين عليه السلام يتصدّق بالسكر واللوز فسئل عن ذلك=

وفي النبوي: «إن في بطن المؤمن زاوية لا يسدّها إلا الحِلو»[1].

وعن المحاسن قال أبو عبد الله لشهاب بن عبد ربه: «إعمل طعاماً وتنوّق فيه وادع إليه أصحابك»[2]، وعن الكافي عن أبي عبد الله قال: «ما عذب الله عزّ وجلّ قوماً قط وهم يأكلون وإن الله عزّ وجلّ أكرم من أن يرزقهم شيئاً ثم يعذبهم عليه حتى يفرغوا منه»[3].

وعن المكارم روي عن العالم: «ثلاثة لا يحاسب عليها المؤمن، طعام يأكله وثوب يلبسه، وزوجة صالحة تعاونه ويحرز بها دينه»[4]، وعن الخصال مثله وعن المحاسن مثله[5].

«وعن أبي عبد الله عليه السلام: ليس في الطعام سرف»[6]، وعن المحاسن «عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله جلّ جلاله: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[7]، قال: إن الله أكرم من أن يسأل مؤمناً عن أكله وشربه»[8]. وعنه أيضاً روى أبو خالد الكلابي قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام

=فقرأ قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. وكان عليه السلام يحبه. والآية من سورة آل عمران رقم ٩٢. (المجلسي، بحار الأنوار: ج٤٦، ص٨٩).

(١) الطبرسي، مجمع البيان، ج٣ ص٤٠٦.

(٢) البرقي، المحاسن: ج٢ ص٤١. تنوق: أعتني به أو أحكم صناعته.

(٣) الكليني، م.ن.، ج٢ ص٢٧٤.

(٤) الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص١٤٦.

(٥) الخصال كتاب للشيخ الصدوق، والمحاسن كتاب للشيخ البرقي.

(٦) الكليني، الكافي: ج٦ ص٢٨.

(٧) سورة العصر، الآية: ٨.

(٨) البرقي، المحاسن: ج٢ ص٣٩٩.

فدعا فأكلت معه طعاماً ما أكلت طعاماً قط أنظف منه ولا أطيب منه، فلما فرغنا من الطعام قال: يا أبا خالد كيف رأيت طعامنا، قلت: جعلت فداك ما رأيت أنظف منه قط ولا أطيب، ولكني ذكرت الآية التي في كتاب الله: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1]، قال أبو جعفر عليه السلام: «إنما تسألون عما أنتم عليه من الحق»[2].

والأخبار في ذلك كثيرة صريحة ظاهرة، كبرت عن الإحصاء وجلّت عن الاستقصاء، فيا ليت شعري هؤلاء القوم من دلاّهم في هذا الغرور وأدلج بهم في هذا الديجور، وتركهم يخبطون في هذه الجهالات ويتيهون في هذه العمايات، من غير برهان ركنوا إليه ولا دليل اعتمدوا عليه.

أما علموا أن من رضي باليسير من القوت، والزهيد من العيش، لحري أن تقعد به عن اكتساب جلائل النعم هممه، وجدير أن تفتر عن اقتناص رغائب الأموال عزائمه، ويكل عن حياطة ماله حدّه، ويني عن تصريفها في وجوه الأرباح جدّه، فتنفر عنه عوائد النعم بعد إقبالها وتشرد عنه فوائد الرغائب بعد استسهالها ويأبى عليه ردها بعد نفورها وجمعها بعد تبديدها، وإصدارها بعد أن كانت واردة، وإحياء مبانيها بعد أن صارت بائدة. ويصبح وهو كالضَّبُعِ تبيت على اللدم في وجارها[3] وترضى بلباس شنارها وعارها، فينبو عنه من ذوي الحوائج

---

(١) سورة العصر، الآية: ٨.

(٢) الكليني، الكافي: ج٦ ص٢٨.

(٣) وجار الضبع: جحرها (أساس البلاغة).

الرجا وتنبتّ منه للقراء علائق الآمال وعرى المنى، وصار سؤقة بعد أن كان ملكاً وحضيضاً بعد أن كان فلكاً، وربما آل الأمر به أن صار يتكفف وجوه الناس بعد أن كانت عليه عالة، يفرج عنها شدائد الأمور ويمنحها جاهه وماله، لا يدفع ضيماً إن به نزل وكان يقيل العثرة إذا القدم زلّ، لا يتحمل عن الغارمين الأثقال والمؤن، وقد كانت وفود الأقاصي والأداني تدب له في كل نهج وسنن، لا يشرق بنواله يوماً وجه يتيم أغرّ، ولا يرد لون مسكين أصفر، ولا له إذا الليل عسعس ودجا وحندس.

هدّارة تحت الدجى فكأنها تدعو بحي على القرى أضيافها[1]

ولقد قال الشاعر في حمد صاحب هذه السجايا ورب هذه المآثر:

له بسواد الليل سوداء فحمة تَلقم أوصال الجزور العراعر
بقية قدر من قدور تُوُرّثت لآل الجلاح كابراً بعد كابر
تظل الاماء يبتدرن قديحها كما ابتدرت سعد مياه قراقر[2]

وقال الآخر:

كأنَّ قدور قومي كل يوم قباب الترك ملبسة الجلال
كأنَّ الموقدين بها جمال طلاها الزفت والقطران طال
بأيديهم مغارف من حديد أشبهها مقيرة الدوال[3]

---

(١) حيدر الحلي (١٢٤٦ ـ ١٣٠٤هـ/ ١٨٣١ ـ ١٨٦٨م)، ديوان السيد حيدر الحلي. وقد ورد بدل فكأنها: فكأنّما.

(٢) الأبيات للشاعر النابغة الذبياني. (ديوان النابغة الذبياني).

(٣) مسكين الدارمي، (ت. ٨٩هـ/ ٧٠٨م). (موسوعة الشعر العربي).

ولا يلفي له في الدجنة كلب نابح ليهتدي بصوته من طوحت به الخطوب الطوائح

ولا إذا اعتكرت الحنادس والتفت على المدلج القفار البسابس

لـه نـار تـشـب عـلـى يـفـاع إذا الـنـيـران ألـبـست الـقـنـاعـا[1]

ولا: إذا أشجر الناس الفخار بمجفل له ساغ بين الناس أن يتمثلا

ومستنبح تهوى مساقط رأسه إلى كل شيء فهو للسمع أصور
يصفّقه أنف من الريح بارد ونكباء ليل من جمادى وصرصر
حضأت له ناري فأبصر ضوءها وما كاد لولا حضأة النار يبصر
دعته بغير إسم هلم إلى القرى فأسرى يبوع الأرض والنار تزهر
فلما أضاءت شخصه قلت مرحبا هلم وللصالين بالنار أبشروا
فجاء ومحمود القرى يستفزه إليها وداعي الليل بالصبح يصفر
وقمت بنصل السيف والبرك هاجد بهازره والموت في السيف ينظر
فأعضضتها الطولى سناماً وخيرها بلاء وخير الخير ما يتخير
فباتت رحاباً جونةً من لجامها وفوها بما في جوفها يتغرغر[2]

وجبه بالتكذيب والرد، وقضى عليه بالتنكيل والحد، إن هو تمثّل وأنشد:

---

(١) هذا البيت لأبي زياد الأعرابي الكلابي، ديوان الحماسة، باب الأضياف (البغدادي، خزانة الأدب، ج٦، ص٤٢١).

(٢) للشاعر محمد ابن يزيد، وقد أوردها المرتضى في الأمالي، ج٤ ص٣٠. (وقد ورد بدل كل شيء: كل شخص. وبدل والنار تزهر: شقراء تزهر).

ومستنبح بعد الهدوّ دعوته ... بشقراء مثل الفجر ذاك وقودها
نصبنا له جوفاء ذات ضبابة ... من الدهم مبطاناً طويلاً ركودها
فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً ... بموقد نار مُحْمَدٌ من يرودها
فإن شئت أثويناك في الحي مكرماً ... وإن شئت بلغناك أرضاً تريدها[1]

وراح ملتحفاً بشملة الذليل، واقفاً بين المعتلف والنثيل، إذا غدا المغير يشرق وجهه ويطفح مقوله في الجري في هذا المنهج والسلوك في هذا فج السبيل، بقوله:

رأيت اليتامى لا تسد فقورهم ... هدايا لهم في كل قعب مشعب
فقلت لعبدينا أريحا عليهم ... سأجعل بيتي مثل آخر مغرب[2]
بني أحقوا أن ينالوا خصاصة ... وأن يشربوا رنقاً لدى كل مشرب

وقوله:

وإني لقوال لعافي مرحباً ... وللطالب المعروف إنك واجده

---

(١) وردت هذه الأبيات مع بعض الاختلاف في مجلة من ذخائر التراث للسيد ابن طاووس، ص٢٣٥. ورد البيت الأول:
ومستنبح والليل هاد دعوته ... بشقراء مثل الفجر ذاك وقودها
البيت الثاني لم يرد ـ أما الثالث فورد:
فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا ... بوارد نار مكرم من يرودها
أما الرابع فقد ورد:
فإن شئت آويناك في الحي مكرما ... وإن شئت بلغناك أرضا تريدها

(٢) السموأل، (ت. ٦٤ ق.م./ ٥٦٠م)، ورد في البيت الاول يسد بدل تسد. (موسوعة الشعر العربي).

وإني لممن يبسط الكف بالندى إذا شنجت كف البخيل وساعده[1]

وقوله:

وأرملة تنوء على يديها من الضراء أو قصص الهزال
خلطت بغثها سِمني فأضحت شريكة من يعدُّ مِنَ العيال

هيهات بعد أن اتخذ الفقر جلباباً، ورأى فضاضة الوفر صواباً، أن يسمو طرفه إلى هذه المكارم، أو يفك عانياً ويطلق غارماً، بل هو إلى أن يتقمص بموته حلس بيته وذبالة زيته، لا إن مال للدين ركن أقامه، ولا إن انثل للحق عرش ألزمه دعامه، ولا إن ظهر الباطل أخمد مصباحه وغيب صباحه، ولا إن فشا منكر اجتث أصله وفرعه، ولا إن مات معروف أحيا بماء جاهه نبته وزرعه، ولا إن بدا زور ثلم سنانه وحطم نبعه، أو علا فجور فل صارمه وهتك درعه.

على أن رثاثة الهيئة وخلاقة اللباس، يبعثان على الذلّة والمهانة بين الناس.

إذا قلّ مال المرء لانت قناته وهان على الأدنى فكيف الأباعد[2]

---

(١) وردت هذه الأبيات عن إياس بن الأرث:

وإني لقوال لعافي: مرحبا وللطالب المعروف: إنك واجده
وإني لما أبسط الكف بالندى إذا شنجت كف البخيل وساعده

(موسوعة الشعر العربي).

(٢) ورد هذا البيت كشاهد في مغني اللبيب في مسألة لغوية تحت عنوان: مسألة: زعم قوم أن «كيف» تأتي عاطفه، وممن زعم ذلك عيسى بن موهب، وأنشد البيت المذكور (ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، ج١، ص٢٠٧).

مع أن الخشونة في المطعم والتقشف في العيش يبعثان على ترك المروءة وملازمة الحمق والطيش، ويورثان لصاحبهما كثافة الطبع فيكون بليداً، وكلالة الفهم فيكون غبياً.

وذلك أكبر داع للكسل عن مراقي المجد، وأمتن سبب للتواني والعجز عن إدراك سوابق الجد، فأصاب المثل به موقعه وعرف موضعه.

خامري حضاجر أتاك ما تحاذري[1]، إذ العجز مركب وطى والكسل مرتع وبي

فإن التواني أنكح العجز بنته ... وساق إليها حين زوجها مهرا
فراشاً وطيئاً ثم قال لها اتكي ... فإنكما لا بد أن تلدا فقرا

وإن قلة ذات اليد ونضاضة الوفر، والتجلبب بجلباب أهل المسكنة والفقر، ليثيران من الناس الصد والإعراض، ويجلبان لصاحبهما المقت والانقباض، تمج حديثه الطباع وتشمئز منه الأسماع.

يمشي الفقير وكل شيء ضده ... والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه مبغوضاً وليس بمذنب ... ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروة ... خضعت إليه وحركت أذنابها

---

(١) هو مثل لمن يرتاع جبناً لأدنى حدث، وحضاجر من أسماء الضبع، وكان من حقه أن يقول «ما تحاذرين».

وإذا رأت يوماً فقيراً عابراً نبحت عليه وكشرت أنيابها[1]

فهو بين الأحياء ميت لا يقبر، وحديث رمي بالهجر، إذ لا خير فيه فيرجى ولا شر منه فيتقى.

وقد قيل:

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما يرجى الفتى كيما يضر وينفع[2]

وخير الرجل من كانت له يدان، يد بالنوال فائضة، وأخرى لأعدائها غايظه.

إذا المرء لم يرج ويخش على المدى فأيامه بالذل يبني خرابها
دع العيش ذلاً فالمعالي وإن نأت لكل أبي في الرجال إيابها

وقال الآخر:

وليس فتى الفتيان من جل همه صبوح وإن أمسى ففضل غبوق
ولكن فتى الفتيان من راح واغتدى لضر عدو أو لنفع صديق[3]

---

(١) الأبيات للأحنف العكبري مع بعض اختلاف: فبدل يمشي الفقير: يغدو الفقير، وبدل والناس: والأرض، وبدل إذا رأت ذا ثروة: إذا رأت ذا برة، وبدل خضعت إليه: أصغت إليه، وبدل نبحت عليه: هرت. (ابن النجار البغدادي، ذيل تاريخ بغداد، ج٢، ص٢٥).

(٢) هذا البيت مفرد ورد في الموسوعة الشعرية لقيس بن الخطيم، (ت. ٢ق.هـ/ ٦٢٠م). وقد ورد:
إذا أنت لم تنفع فضر فإنما يرجى الفتى كيما يضر وينفعا
كما ورد البيت ذاته في ديوان النابغة الجعدي (٥٤ ق.هـ ـ ٥٠هـ/ ٥٧٠ ـ ٦٧٠م).

(٣) الحسين بن مطير الأسدي (ت: ١٦٩هـ/ ٧٨٥م). مع اختلاف عن الكاتب، وردا كالآتي:
وليس فتى الفتيان من راح واغتدى لشرب صبوح أو لشرب غبوق
ولكن فتى الفتيان من راح واغتدى لضر عدو أو لنفع صديق
وقد وردت الأبيات نفسها للشاعر أحمد بن طنبور (٢٠٤ ـ ٢٨٠هـ/ ٨١٩ ـ ٨٩٣م). (موسوعة الشعر العربي). وورد البيت الثاني كما رواه صاحب الرسالة.

وقال الآخر:

لـه يـوم بـؤس فـيـه لـلـنـاس أبـؤس ... ويـوم نـعـيـم فـيـه لـلـنـاس أنـعـم
فيمطر يوم الجود من كفه الندى ... ويمطر يوم البؤس من كفه الدم
فلو أن يوم البؤس خلى عقابه ... على الناس لم يصبح على الأرض مجرم
ولو أن يوم الجود خلى يمينه ... على الناس لم يصبح على الأرض معدم[1]

وقد جاء في الخبر عن صفوة البشر: «أنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»[2]، وقد قال ﷺ: «إن من الشعر لحكمة وأن من البيان لسحرا»[3].

وقال الشاعر:

لـولا أمـيـمـة لـم أجـزع مـن الـعـدم ... ولـم أقاس الدجى في حندس الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي ... ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أحاذر الفقر يوماً أن يلم بها ... فيهتك الستر عن لحم على وضم
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً ... والموت أكرم نزال على الحُرم
أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ ... وكنت أتقى عليها من أذى الكلم
وإنها بعد موتي لا تفيد أبا ... أخرى الليالي إذا غيبت في الرجم[4]

---

(١) وردت هذه الأبيات الأربعة بالترتيب ذاته للحسين بن مطير الأسدي أيضاً ولكن مع الاختلاف في مواضع منها: في البيت الثاني بدل يوم البؤس: يوم البأس البيت الثالث، بدل فلو أن: ولو أن. أما في البيت الرابع بدل خلى يمينه: خلى نواله وبدل على الناس: على الأرض، وهي تؤدي نفس المعنى. (موسوعة الشعر العربي).

(٢) الطوسي، المبسوط: ج٤ ص٣.

(٣) الطوسي، م.ن.: ج٨ ص٢٢٨.

(٤) الأبيوردي (٤٥٧ ـ ٥٠٦هـ/ ١٠٦٤م ـ ١١١٣م). ورد في موسوعة الشعر العربي ثلاثة أبيات فقط=

وقال أيضاً ﷺ: «لا خير فيمن لا يحب المال ليصل به رحمه، ويؤدى به أمانته، ويستغني به عن خلق ربه»[1].

فقال الشاعر:

سأُعمِلُ نصّ العيْس حتى يُكفِّيني ... غنى المال يوماً أو غنى الحدثان

فللموت خير من حياة يرى لها ... على الحر بالإقلال وسم هوان

متى يتكلم يلغ حر كلامه ... وإن لم يقل قالوا عديم بيان

كأن الغنى عن أهله بورك الغنى ... بغير لسان ناطق بلسان[2]

وقال الآخر[3]:

فإن الفتى ذا الحزم رام بنفسه ... جواشن هذا الليل كي يتمولا

=هي: ١ و٣ و٤. وقد ذكرت الأبيات ١ و٢ و٤ و٥ في الوافي بالوفيات للصفدي، ج٨، ص٢٦٨. ووردت ايضاً في: فوات الوفيات ـ الكتبي، ج١، ص١٩٧، كالتالي: قال المبرد في ابنة أخت كان رباها وذكر الأبيات: (١) و(٢) و(٤) و(٥) مع زيادة بيت على ما ورد في كتاب المؤلف هو:

إذا تذكرت بنتي حين تندبني ... فاضت لعبرة بنتي عبرتي بدم

(١) البيهقي، شعب الإيمان، ج٢، ص٩٢.

(٢) محمد بن حزم الباهلي (ت. ٢١٥هـ/ ٨٣٠م) وردت الأبيات الأربعة في موسوعة الشعر العربي، مع تغيير في البيت الثالث بدل حر كلامه ورد حسن بيانه.

(٣) وردت هذه الأبيات في أماكن كثيرة ومتفرقة. فمثلاً البيت الثاني الوارد في الرسالة ذكر مع تغيير:

ومن يفتقر في قومه يحمد الغنى ... وإن كان فيهم ماجد المم مخولا

ـ لعمر بن مالك بن ضبيعة، من قيس بن ثعلبة: شاعر جاهلي قديم روى له ابن الأعرابي أبياتاً منها (البيت). (الزركلي، الإعلام: ج٥ ص٨٥).

ـ أما البيتان الرابع والخامس، فقد ذكرهما أبو تمام الطائي في كتاب الحماسة لجابر بن ثعلب الطائي. (القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة: ج٢ ص٤٣٦).

ـ أما البيت الثالث فقد ورد في كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ٥٩، ص٢٢٥ كشاهد لغوي (على انقلاب الواو ياء).

ومن يفتقر في قومه يحمد الغنى ... وإن كان يوماً واسط العم مخولا
ويزرى بعقل المرء قلة ماله ... وإن كان أسرى من رجال وأحولا
كأن الفتى لم يعر يوماً إذا اكتسى ... ولم يك صعلوكاً إذا ما تمولا
ولم يك في بؤس إذا بات ليلة ... يناغي غزالاً فاتر الطرف أكحلا
إذا جانب أعياك فاعمد لجانب ... فإنك لاق في بلاد معولا[1]

وقال الآخر:

إذا المرء لم يسرح سواماً ولم يرح ... سواماً ولم تعطف عليه أقاربه
فللموت خير للفتى من قعوده ... عديماً ومن مولى تدب عقاربه
ولم أر مثل الفقر ضاجعه الفتى ... ولا كسواد الليل أخفق طالبه
فمت معدماً أو مت كريماً فإنني ... أرى الموت لا ينجو من الموت هاربه[2]

وقال بعض الحكماء: «من حفظ دنياه، حفظ الأكرمين دينه وعرضه»[3].

---

(١) ورد هذا البيت في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج٣، ص٢٦١ دون ذكر صاحبه. (وقد ورد الشطر الثاني: فإنك لاقٍ في البلاد معولا).

(٢) ابن أبي الحديد، م.ن.، ج٣، ص٢٦١، مع بعض الاختلاف في البيت الثالث بدل مثل الفقير وردت مثل الهم.
أما البيت الرابع فورد: فعش معدما أو مت كريماً.
وقد وردت الأبيات تحت عنوان: وقال أبو النشناس النهشلي (مجهول تاريخ الولادة والوفاة) مع بعض الاختلاف. البيت الأول الشطر الثاني: سواما ولم يبسط له الوجه صاحبه.
في البيت الثاني بدل من قعوده: من حياته.
وفي البيت الرابع: فعش معذراً: بدل: فمت معدماً كما وردت في الكتاب. (موسوعة الشعر العربي).

(٣) الأبشيهي، المستطرف، ج٢، ص٩٥.

وقال الشاعر:

احفظ عرى مالك تحظَ به ... ولا تفرط فيه تبق ذليل
واحفظ علا نفسك من زلة ... يرى عزيز القوم فيها ذليل

وقال آخر:

الناس أتباع من دامت له نعم ... والويل للمرء إن زلت به القدم[1]

وقال آخر:

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها ... فكلما انقلبت يوماً به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فإن وثبت ... يوماً إليه بما لا يشتهي وثبوا[2]

ثم إن الحيوانية التفتت إلى القوم وقالت: تعساً لمن عَنَد عن سبيل الحق، وصَدَفَ عن آياته، بعدما بهر العيون شعاعه، واستنار في الألباب ضياؤه، ومن تنكب الرشد ارتبك في ظلماته وارتكس في هلكاته، ثم وصلت لآلئ نثرها في سلك درر شعرها، مثنية خطاب المدح للأمارة، مزرية على من لم يعرها طرفاً ولم يتبعها إشارة.

بزغت بأفق الرشد شمساً منيرة ... وبينت نهج القصد للمدلج الساري
فمن كان ذا عشق إلى كل لذة ... وزند الهوى منه بمطعمه وار
أجاب نداها غير مثن عنانه ... وهب بعزم الصلّ[3] والأسد الضاري

---

(١) ورد هذا البيت لمنصور بن إسماعيل الفقيه (ت. ٣٠٦هـ/ ٩١٨م) كما ورد البيت ذاته للوزير المهلبي (٢٩١ ـ ٣٥٢هـ/ ٩٠٣م ـ ٩٦٣م). (موسوعة الشعر العربي).

(٢) للشاعر أبو العتاهية (١٣٠ ـ ٢١١هـ/ ٧٤٧م ـ ٨٢٦م). (ديوان أبي العتاهية).

(٣) الصل: من الحيات يشبه الرجل به إذا كان داهية. (لسان العرب).

ومن جانب المطعوم بخلاً وخسة وحرصاً على إيثار فلس ودينار
ثنى عطفه عنها وقال لك الردى فلا صبر لي يوماً على ألم النار

٥ ـ الشَّـره:

فبينما الحيوانية في منطقها على تغلغل واسترسال، والعيّ لم يسلمها ما في بلاغه لسانها إلى لكنة أو عقال، إلا وعصفت الحمية في خيشوم الشره، فثار من رقدته وكاد أن يطير بالقوم بمهب عواصف حميته، وجبينه من الغضب يرشح عرقاً كالجمان، ووجهه كأنما فقئ فيه الرمان، وهو يتلو: الحمد لله الذي كرم بني آدم وحملهم في البر والبحر، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً، وأحلَّ لهم الطيبات وما نفعه أكثر من إثمه، وحرَّم عليهم الخبائث، وما نفعه لا ينهض بإثمه، وجعل لهم أطائب اللحوم وما تنبت الأرض مأكلاً ومطعماً، وأنزل من السماء ماء فسلكه في الأرض ينابيع، وجعل لهم عذبه وزلاله رياً ومشرباً، وهداهم لضروب الملابس الأنيقة وأنواع الحلل الفاخرة من شفّاف الحرير وزاهي الديباج، وليّن الخز وناعم الكرباس، وأذن لهم باستعمالها وحثهم على ارتكابها، وحرضهم على التمتع بها.

فقال جلّ جلاله:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ * وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ ٱلْجِبَالِ

أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[1].

وقد أمر الأرض جلّ جلاله أن تخرج لهم من الثمرات بصنوان وغير صنوان دانية وغير دانية، وأن تمنحهم أزاهيرها النضرة وبقولها الخضرة وروائحها العطرة، ثم أمرهم بارتكابها وحثهم على اجتنائها، فقال عزّ من قائل:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾[2].

وقال جلّت آلاؤه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾[3] . . . ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾[4].

أما بعد: لقد ترك الخداع من كشف القناع، ليس الأمين بخائن، والرائد لا يكذب أهله، إن هذه النفس لمن أعز الأنفس عليكم وأحبها إليكم، أترشدكم لغير الهدى؟ أو تسلك بكم مناهج العطب والردى؟ كلا! هي أبر وأتقى، وأطهر وأنقى، هبوا لدعوتها مسرعين، وأهرعوا إليها سابقين، قبل أن يؤخذ بالكظم ويشتد الوثاق، وتلفُّ الساق بالساق، ويعاجلكم هادم لذاتكم، ومنغص طيباتكم، فبادروا الأمنيه قبل حلول المنيه، وإلا صفقتم كف الندم، وعضضتم من الغيظ الأنامل، بادهوا

---

(١) سورة النحل، الآية: ٨٠.

(٢) سورة طه، الآيتان: ٥٣ و٥٤.

(٣) سورة عبس، الآيات: ٢٤ إلى ٣٢.

(٤) سورة عبس، الآية: ٣٢.

الأمور عند فرصها، وخذوا بعزائم اللذات ورخصها، وكافحوا الأيام عن طيباتها ولو تجرعتم مضض غصصها، ثم طغى به ثبج بلاغته فنبذه في يم الشعر، فانحدر قائلاً، وعلى بديهته جرى سائلاً:

بني الفضل والمجد المؤثل والهدى ... هديتم وحييتم بأسعد طائر
فأنتم منار الرشد في كل ظلمة ... إلى كل مرتاد الطريق وجائر
فما بالكم في ظلمة الغي تهتم ... فمن وارد جهلاً وآخر صادر
ثنيتم عن اللذات زهداً أعنة ... ولا نحوها سرتم بخف وحافر
رضيتم بأدنى العيش طعماً وملبساً ... ومنه جفوتم كل زاهٍ وناظر
فهبوا إليها واشربوا من حياضها ... نهالاً وعلاً صاغراً بعد كابر
وحثوا كؤوس الراح في مجلس الهوى ... على لحن غريدٍ وتغريد شاعر
كؤوس كأحداق المهاة زواهر ... بآفاقه مثل النجوم الزواهر
دعوا عنكم ما لفّق الناسك الذي ... تجلبب للطاعات ثوب الدياجر
جفا أطيب اللذات واتخذ الطوى ... غذاء وريأً في وطيس الهواجر
قريب من التقوى بعيد عن الهوى ... كريم السجايا الغر عفّ المآزر
وما ذاك في اللذات زهداً ورغبة ... بطاعات مولى للخطيئات غافر
ولكن أكف عن تناولها انثنت ... قصار البنان داميات الأظافر

٦ ـ الشهوة:

ومذ نظر عميدهم أبو مرة، الكرة منهم بعد الكرة، والصولة أثر الجولة، وأن القوم كزبر الحديد لا تؤثر في صفاتهم خدشات هذه الأنياب، ولا قرع مناقر هذه الديكة.

كَبُر في عينه أمر القوم وقال: واسوء صباحاه منذ اليوم، وكاد أن يذهب به اليأس والقنوط عن انقياد الجمع إلى سمك الشوط، فضرب اليمنى باليسرى، وما درى من أين أتته سهام الخيبة تترى، فالتفت وإذا بمصابيح العقل مزهرة، وكواكبه مستنيرة، وأشعته مستطيرة، فقال: من هنا أوتينا، وبذاك دهينا، قد علمت ما الفتق، وأكرم بي من راقع، ثم ازدلف نحوه بمواكب الشهوة، وقال: املكي على الشره الكلام قبل أن يأتي منه على التمام، واسدلي غواشي ظلمتك على هذا المصباح قبل أن ينفجر منه للقوم الصباح. فنهضت الشهوة بغياهب وساوسها ومكائد دسائسها وقالت:

قد أخطأتم جميعاً المقاصد، وما أصبتم سبل المراشد، وأسدلت غياهب وساوسها على مصابيح العقل وقالت: دونكموهم فاقضوا ما شئتم منهم من فرض أو نفل، وأخذت من كل واحد منا بحلقومه وتغلغلت في مجاري حيزومه، تنفث في الصدور خفياً، وتنفذ في الأذان نجيا، بتزيين حب الشهوات والحث على ارتكاب الطيبات، معتصمة بظواهر آيات، هي على ما تندب إليه جليّه، وتتلو كرائم بينات هي في بادي النظر في إثبات مدعاها حريَّة.

تنادي بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾[1].

وتهتف بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٨.

تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[1]، ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾[2].

ثم قالت: أيتها الفئة المرتكسة في غيّها، والمتنكبّة عن رشدها، غربت العقول، وضلت الأحلام، قد يهلك المرء من حيث يظن السلامة، ويأتيه البلاء من حيث يقدر النجاة، ويحكم لقد عصيتم الله المنعم من حيث أنكم بزعمكم أطعتموه، وخالفتموه من حيث قدرتم أنكم وافقتموه من ذهابكم مذاهب أهل الخرق من المتصوفة وذوي البدع والترهات والعقائد المنحرفة.

يا شقوتي قد تولت أمة سلفت ... حتى تخلفت في خُلف من الخلف
ينمقون تزاوير الغرور لنا ... بالزور والبهت والبهتان والسرف
ليس التصوف عكازاً ومسبحة ... كلا ولا الفقر رؤيا ذلك الترف
وأن تروح وتغدو في مرقعة ... وتحتها موبقات الكبر والصَّلف
وتظهر الزهد في الدنيا وأنت على ... عكوفها كعكوف الكلب في الجيف[3]

فيا عجباً من قوم ركنوا إلى هذه الطريقة، وانحازوا إلى هذا المذهب من غير دليل قائد، ولا نهج قاصد، ولا آية أعلنت بمدحها، ولا بينة سطعت بحمدها.

بل الآيات بذمها جليّة ظواهرها، منكشفة سرائرها، وعلى ارتكاب

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٨.

(٣) هذه الأبيات للشهيد الأول محمد بن مكي الجزيني (٧٣٤ ـ ٧٨٦هـ/ ١٣١٥ ـ ١٣٦٦م) من مقدمة شرح اللمعة، للشهيد الثاني، ج١ ص١٢٦.

خلافها نافذة بصائرها، مستنيرة حججها طاغية لججها، ولو لم يكن لنا في كتاب ربنا غير آية، لكان لنا بها في ما ندعي مبلغاً ونهاية، فكيف والله جلّ جلاله يقول: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ * قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ * قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1].

ثم انفجر ينبوع الشعر في أقصى لهواتها، فانحدرت على بداهتها ترمي بمسلسلات أبياتها:

خوضوا عُباب فلاة البيد واتخذوا ... نجائب البر في تياره سفنا
واستظهروا غارب الظلماء وادرعوا ... سوادها ودجى ديجورها جننا
إلى نعيم يروق العين إن نظرت ... ما بان منه وما في طيه بطنا
غلب الأشاوس كم دبت بمنهجه ... وكم له قاست الشدات والمحنا
طابت لآكلها لذاته وصفت ... أقداحه وحلى للمجتنين جنا
فيه الفواكه تزهو في كمائمها ... والأذن تحسد فيه العين والبدنا
وطيبات من الألوان مونقة ... تهدى لمن لم ينلها الوجد والشجنا
تخالفت منظراً في العين واتفقت ... أن لا يكون بها ذو صفقة غبنا
فما رآها فتىً في السوق بارزة ... إلا ومال إليها سائماً ودنا

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ٣١ إلى ٣٣.

ولا تـراءت إلـى كـهـل وذي هـرم إلا وألـوى عـنـانـاً نـحـوهـا وثـنـا
وأمّـهـا ولـعـاب الـريـق يـسـبـقـه وبـدرة الـمـال ألـقـاهـا لـهـا ثـمـنـا
تـداركـوهـا وفـي أعـمـاركـم مـهـل غـض الجنا واجتنوها اغصناً لدنا
فـالـلّـه أصـفـاكـم دون الأنـام بـهـا بـآيـة صـرحَـت فـيـهـا لـكـم عـلـنـا

فما أتت الشهوة من شعرها على تمامه، حتى أطرق القوم ودعم كل منهم جبينه بمقعد إبهامه، وضرب في مذاهب فكره، وتاه في بيداء أوهامه، وما منهم إلا وهو يقرع مغالق أبواب الروية، ويتردد في منهج التدبر والأناة، وكادت أن تعجلهم الشهوة عن الاستضاءة بمقباسها والسلوك في منهجه بمهب عواصف العجلة وضرب شوامخ الإسداد، وكانت النفس المطمئنة يومئذٍ بدارة الحس المشترك مستكنة، وقد امتلأ سمعها من الغلط واللغط والبعد عن منهج الرشاد والشطط، وعندها لميمة من حفدتها قد انتظموا معها في حاشية حضرتها، فرنت بيمينها إلى العفة، وبشمالها إلى القنوع، وشخصت ببصرها إلى الزهد، وأشارت بيدها إلى الرضا والتسليم، وقالت: قد دهم القوم ما لا قبل لهم به، والعقل قد حيل بينهم وبين مصابيحه، وأراهم قد استهدفوا لنبال هذه الشرذمة الغاوية والفئة الباغية، وغير بعيد أن تسلمهم إلى عقال شديد المراس صعب الخلاص، وهذه الغاوية الأمارة قد استفزتهم بصوتها، وأجلبت عليهم بخيلها ورجلها، فذهبت بأسماعهم وأبصارهم، وأخذت عن أيمانهم وشمائلهم، والقوم قد تاهوا في سدف الحيرة، وغمَّ عليهم هلال الرأي، ولئن لم ينفجر لهم صبح الهدى، ما

أراهم إلا ارتكسوا في مهاوي الغي والهوى، ثم أمرت العفّة أن تكون لها طليعه، واتبعتها بالقنوع، وآزرتهما بالروية والأناة، ونهضت بعدهم باتباع العقل وجنوده، تخفق عليها أعلام راياته وعذبات بنوده، رافلة في حلل الهيبة راكبة منهج التؤدة، محفوفة بالوقار، متوجة بالجلال، مؤتزرة بالسكينة، مرتدية بالخشوع، وعن يمينها العلم والحلم، وعن شمالها العدل والإنصاف، ومن ورائها السعادة الأبدية، إلى غير ذلك من الجند والأعوان والأتباع والحفدة، فما زالت إلى أن نزلت من القوم في صماخ آذان قلوبهم، وخيمت في صميم أفئدتهم، ومذ نظر إليها أبو مرة قد أقبلت بعدّتها وعديدها، ورثّها وجديدها، نصرة للقوم وأخذاً بأعضادهم، تزهر وجوههم بمصابيح الكمال، وتتلألأ بسبحات أنوار ذي العزّة والجلال، تنزاح من بين أيديهم الظلم، وتنكشف عنهم البهم، قد وسمت جباههم بمياسم آثار السجود، وكحلت أبصارهم بأثمد جفاء النوم والهجود، وجفّت من طول المناجاة أسلات ألسنتهم، وخفقت جوانح الخوف من مليكهم في أوكار أفئدتهم، يتتابعون زمرة بعد زمرة، وموكباً بعد موكب... علم أن لا طاقة له اليوم بالمطمئنة وجنودها، وأن كواكب نحوسه قد أخمدتها شموس سعودها، فأدمى أنامله وإبهامه عضاً، وأغْرى أنيابه في شفته حنقاً وغيظاً، إذ كان بزعمه أنه أحكم الأمر وأبرم الحيلة، من إلقاء ظلم الوساوس المستثيرة على أشعة مصابيح العقل المستنيرة، وما علم أن دارة الحس المشترك نزل به أعدل أمير ورقاب أهلها ملك.

٧ ـ أبو مرة:

وكانت الأنفس الأربع عندما تراءت لها طلائع المطمئنة، نكصت على أعقابها مسرعة، فأخذت الأمارة المجلس عن يمينه، واللوامة عن شماله، والحسية الحيوانية بين يديه قائمة، والنامية النباتية من خلفه واقفة، يشكون إليه ما نزل بهم، ويعظمون له الأمر الذي دهمهم، وأنهم إن لم يعتصموا بجنود يمدهم بها، وإلا خفقت بالخيبة راياتهم، وتنكَّست بالحرمان ألويتهم.

فأقبل عليهن بطلاقة وجهه، وهو يخاطب نفسه متشجعاً ويتمثل في شعره منشداً:

خاطر بنفسك لا تقعد بمعجزة ... فليس حر على عجز بمعذور
إن لم تنل في مقام ما تطالبه ... قابلت عذراً بإدلاج وتهجير
لم يبلغ المرء بالأحجام همّته ... حتى يباشرها منه بتغرير
حتى يواصل في إنجاز مطلبها ... سهلاً بحزن وإنجاداً بتغوير[1]

ثم أطرق إطراق الأفعوان في أصول الشجر، وطلب وجه الحيلة في بيداء التأمل تحت كل حجر ومدر.

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٦، ص٤١. ورد بيتان فقط الأول والثاني ونسبهما إلى أبو ربيعة النحوي الأصبهاني. وجاء في البيت الثاني (ما تحاوله بدلاً من: ما تطلبه). كما ينسب البيتان للإمام عليّ عليه السلام (وجاء في البيت الأول بدل بمعذور: بمغدور).

ورفع رأسه وهو يقول:

قـلـدتـم أمـركـم لله دركـم ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده ... ولا إذا عض مكروه به خشعا
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره ... يكون متّبِعاً طوراً ومتَّبَعاً
حتى استمرّ على شزر مريرته ... مستحكم الرأي لا فخماً ولا ضرعا[1]

لا عليكم انا أبو مرة! وهيهات أن تفلت من حبائلي بعوضة أو ذرة... لمثل هذا طلبت من الله التأخير والنظرة.

غشيت في الدهر أطواراً على طرق ... شتى فصادفت منه اللين والفظعا
كلاً بلوت فلا النعماء تبطرني ... ولا تخشيت من لأوائه جزعا
لا يملأ الأمر صدري قبل موقعه ... ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعا[2]

أين ذو الكبرياء والحمية؟ أين ذو الخيلاء والعصبية؟ أين قائد

---

(١) لقيط بن يعمر (ت. ٢٤٩ق.هـ/ ٣٨٠م) مع بعض الاختلاف: البيت الأول: بدل قلدتم في الرسالة: فقلدوا. البيت التالي بدل لا مترفاً في الرسالة: لا مشرفاً في الديوان. والبيت الثالث: بدل ما زال في الرسالة ما انفك. أما في البيت الرابع جاء:
حتى استمرت على شزر مريرته ... مستحكم السن لا قمحاً ولا ضرعا
(موسوعة الشعر العربي).

(٢) هذه الأبيات لمعاوية بن أبي سفيان، (٢٠ق.هـ ـ ٦٠هـ/ ٦٠٣ ـ ٦٨٠م)، وقد وردت الأبيات على الشكل التالي:
قد عشت في الدهر ألوانا على خلق ... شتى وقاسيت فيه اللين والطَّبعا
كلا لبست فلا النعماء تُبطرني ... ولا تعودت من مكروهها جشعا
لا يملل الأمر صدري قبل مصدره ... ولا أضيق به ذرعا إذا وقعا
(م.ن).

الجنود؟ أين الرافع الأعلام والبنود؟ أين المضرم نار الفتن وقد أخمدها العقل؟ أين المثير عجاجها على حين كادت أن تنتزع الأسنة ويغمد النصل؟ أين السادّ فروج فجاجها بالعراك، واللاف الحزن منها بالسهل؟ أين الساعد والعضد، والناصر إذ لا نصير؟ أين أخي وناصري الجهل؟.

فما كان بأسرع من وحي الطرف، إلا وقد انتظم معه في الصف، فأقبل عليه وقال: خلاك ذم وعداك لوم، قد بلغ السيل الزّبى، واعترضت الغصص بين الحناجر واللهى، وانتفخ السحر، وتحشرج الحيزوم من هذه المطمئنة، الماحية بسنا هديها كل سدفة ودجنة، لقد جعلتني وأصحابي في أضيق من حلق سابغات الأدراع، خامد الأنفاس، قصير الشبر وضيق الباع، وأنك لتعلم أن كيدي لضعيف، وحدي مع هؤلاء القوم غير رهيف، وقد أحيط بنا وجاءتني الأنفس الأربع بخفي حنين، وشغل ذات النحيين يسحق بعضها بعضاً، فامددنا بجندك، وارفع لنا من نارك ثاقب زندك، وأثر في بيداء الخصام نقعها والقتاما، واترك من حنادس الشر والفتن في فلاها الظلام يتلو الظلاما.

جنود العقل

١ ـ النفس المطمئنة:

هي في مشكاة الهدى قريره، ومنار الإذعان والإقرار منصوبة بمساجد التسبيح والأذكار، ودليلها وهو الفراسة يتوقد نوراً، وبوابها وهو المراقبة قد ملك على الوساوس العبورا، وحاجبها وهو التقوى، قائم على أبوابها وسائر الأمراء والأجناد عاكفة على أعتابها، وقفل باب المدينة وهو الصبر قد أحكم ردمه واستبهم على من يروم الدخول فتحه، والحذر قد أسدل عليه الستور، وترك مواكب الجهل من وراء المدينة تحوم حول «سور باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَلِهِ العذاب»(*).

ونادى الصريخ في أجناد المطمئنة، فهرعت إلى أعتابها حتى سدت أقطار المدينة، وهم يرفلون في أبراد الخشوع ويجرون ملابس الوقار والسكينة، وقد ركبوا من نجائب النجاح صهواتها، واعتلوا من قب الفلاح جياد سرواتها، أصواتهم خامدة، وأنفاسهم راكدة، تعظيماً لجلالة السيدة، وهيبةً من سطوتها، يترقبون صدور الأمر، وخروج

(*) جزء من الآية رقم ١٢، سورة الحديد.

راية الظفر والنصر، فما كان بأسرع أن دعت مصباحها الحكمة، وعقدت له راية الصواب، وقالت له: كن في مقابل الهوى من الجانب الأيمن، وادخل عليهم من كل باب، وضمت إليه عشرة من الجند، وأقامت الضد بإزاء الضد، وهي محبة الخلق، والتواضع، والعفو، والخشوع، والتيقظ، والنصيحة، والثبات، والتحبّب إلى الخلق، والوفاء والذكر.

ثم عقدت لحاجبها وهو التقوى راية السداد، وقالت له: كن على الجانب الآخر بمقابلة النفس الأمارة، ولا تدعن وَرْي زندها يستطير بشراره، وضمت إليه عشرة من الجند وهي: التوكل، والعفاف، والحياء، والرحمة، والاستقامة، والبذل، والسخاء، واليأس، وذكر الموت، والنشاط في العمل.

ثم دعت بنديمها الزهد وعقدت له راية العزة وقالت:

كن أمام المدينة بإزاء حب الدنيا، واجتهد أن تكون كلمته السفلى وكلمتك هي العليا، وضمّت إليه من الجند عشرة وهي: الإخلاص، والاحتقار، والشكر، والقوام، والخوف من عذاب الله، والجد، والقناعة، والصدق، والسلامة، والنظر في العواقب.

ثم دعت القنوع وعقدت له راية، وضمت إليه جماعة، وقالت: كن بإزاء باب المدينة، ثم عقدت لوزيرها العلم راية النصر، وقلّدته بسيف الظفر وقالت له: كن أنت في مقابل الجهل في الركن الرابع، وخذ منهم الأبصار والمسامع، وشد الوثاق وضيق الخناق، وأيّدته من

جندها بعشرة وهي: العدل، والأمانة، والآيات، والديانة، والإحسان، والحلم، والتواضع، والاستئثار، وترك الإصرار، والتهجّد بالأسحار، ثم قامت بإزاء سائر جند الجهل ما يكافحه ويضاده، فأقامت للشر الخير، وللقنوت الرجاء، ولليأس الطمع، وللحمق الكياسة، وللخرق الرفق، وللجرأة الرهبة، وللتسرع التؤدّة، وللهذر الصمت، وللاستكبار الاستسلام، وللشك اليقين، وللجزع الصبر، وللانتقام الصفح، وللفقر الغنى، وللسهو التفكّر، وللنسيان الحفظ، وللقطيعة التعطّف، وللتطاول الخضوع، وللبلاء السلامة، وللباطل الحق، وللبلادة المكاشفة، وللإنكار المعرفة، وللإفشاء الكتمان، وللحمية الإنصاف، وللبغي المهنة، وللتعب الراحة، وللصعوبة السهولة، وللشقاء السعادة، إلى غير ذلك مما يطول ذكره.

ثم أمرتهم بالانصراف إلى مراكزهم والمحافظة على ثغورهم، فازدلف مصباح الحكمة إلى مركزه، ووقف بإزاء ظلمة الهوى وهو يقول:

يا خابطاً في الهوى يهوي الضلال به ... في السبب القفر أو في النفنف الوعر
في حندس الجهل في ليل الهوى بدجى ... دنيا الغرور بسكر اللهو والغرر
يجري به جامح في مزلق زلق ... منعل بالمرايا أو صفا الحجر
لِخُلَّب البرق يهفو حيث لاح له ... والريح كيف سرت يسري على الأثر
لا تتبعن أثر الأوهام إن سنحت ... فما لصادق هذا الوهم من أثر
وأثن عنان المطايا عن مسالكها ... السير في حاجر والقصد في هجر

ثم ازدلف حاجبها وهو التقوى إلى مركزه، ووقف بإزاء النفس

الأمارة، وبعد أن استقر به مركزه أقبل على الأمارة فدعاها إلى السلم والطاعة.

وأنشد:

فحالفي يا نفس أرباب التقى ... وخالفي نهج الضلال والعمى
والمرء لا يجزى بغير سعيه ... إذ ليس للإنسان إلا ما سعى[1]

ثم ازدلف الزهد بموكبه، ومضى إلى مركزه، ووقف بإزاء حب الدنيا وهو ينشد:

لا تغبطن أخا الدنيا بزخرفها ... ولا للذة وقت عجلت فرحا
فالدهر أسرع شيء في تقلبه ... وفعله بين للخلق قد وضحا
كم شارب عسلاً فيه منيّته ... وكم تقلّد سيفاً من به ذبحا
لا تركنن إلى الدنيا وبهجتها ... ولا يغرنك منها بارق لمحا[2]

ثم مضى القنوع إلى مركزه، ووقف بإزاء باب المدينة وهو ينشد:

تاللّه لو عاش الفتى من عمره ... ألفاً من الأعوام مالك أمره
متمتعاً فيها بكل لذاذة ... ومبلغاً فيها نهاية فخره
لا يعرف الأسقام فيها مرة ... كلا ولا تجري الهموم بفكره
ما كان ذلك كله مما يفي ... بمبيت أول ليلة في قبره[3]

---

(١) للسيد محمد بن محمد بن حسن بن قاسم الحسيني العاملي العيناثي الجزيني (ت. ١٠٨٥هـ/ ...)؛ الحر العاملي، أمل الآمل، ج١، ص١٧٧.

(٢) الخطيب البغدادي (٣٩٢ ـ ٤٦٣هـ)؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٧، ص١٣١.

(٣) هذه الأبيات منسوبة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ـ وردت في الفصول المهمة في معرفة=

ثم ازدلف العلم بموكبه، ووقف بإزاء الجهل في مركزه وهو يقول:

تخيّر خليطا من فعالك إنما ... قرين الفتى في القبر ما كان يفعل
ولا بد بعد الموت من أن تعده ... ليوم ينادى المرء فيه فيقبل
فإن كنت مشغولاً بشيء فلا تكن ... بغير الذي يرضى به الله تشغل
فلن يصحب الإنسان من بعد موته ... ومن قبله إلا الذي كان يعمل
ألا إنّما الإنسان ضيف لأهله ... يقيم قليلاً بينهم ثم يرحل[1]

٢ ـ المواجهة بين جنود الجهل وجنود العقل:

أ ـ أبو مرّة يهاجم:

وأما أبو مرة فإنه لما رأى أن الخصام استحكمت مرائره، ودارت دوائره، والفتنة قد اشتدت شوكتها، واتسعت حلبتها، وكل من الفريقين واقف على شفا جرفها، ومهاوي تلفها، ولم يبق إلا قرع الحديد بالحديد، واصطكاك الأسنة بالأسنة، وزحف الصف للصف، وجه رسوله وهو الشر إلى مركز الجهل، أن لف الكتائب بالكتائب، واملأ الفجاج بالعجاج، وأطفئ المصباح، وعاجل الصباح، فعندها قدم

=الأئمة ـ ابن الصباغ، ج١، ص٥٦٥ ـ مع بعض الاختلاف. وردت كالآتي:

والله لو عاش الفتى من دهره ... ألفاً من الأعوام مالك أمره
متلذذاً فيها بكل هنيئة ... ومبلغاً كل المنى من دهره
لا يعرف الآلام فيها مرة ... كلا ولا جرت الهموم بفكره
ما كان ذاك يفيده من عظم ما ... يلقى بأول ليلة في قبره

(١) هذه الأبيات للشاعر قيس بن عاصم المنقري، وردت في كتاب علي الشهرودي، مستدرك سفينة البحار، ج٥ ص٤٤٦.

الجهل راية البغي والعدوان، واستلَّ صوارم الجور والطغيان، وأشرع أسنّة الشقاق، وأطلق أعنة النفاق، وأوصى أمراءه بتعديل الرايات، وتتابع الحملات، وهجم على سور المدينة وقال: فلينطح كل قرين قرينه، وشن الغارة على أجناد المطمئنة، وحنادس ظلامه تواصل الدجنة بالدجنة، حتى سدت حومة الجولة ظلمات متراكمات، بعضها فوق بعض، إذا أخرج أحدهم فيها يده لم يكد يراها.

فما صادف من أجناد المطمئنة إلا الجبل الأشم، والصل الأرقم، والصخر الأصم، وذئباً قد أحاطت به غنم.

ثم شمرت الحرب بهم عن ساق، واشتدَّ الكرب وضاق الخناق، وهوت الأفئدة كاظمة، وخشعت الأصوات مهينمة، وحمي من الهيجا وهجها وعلا رهجها، وضاق الفج والصعيد ارتج، وانطمس المنهج، وعَمِه المدخل والمخرج، ومرائر الكفاح اشتدت، والصفاح تثلمث، والأرماح تقصفت، والعاديات عن الكر والفر كلت، والمصباح خمد ضياؤه، والصباح أبطأ سناؤه. كل هذا والمطمئنة بحيث تسمع ذلك، وترى ما هم فيه من الشدائد والمهالك.

ب ـ استعداد المطمئنة:

فعندها غابت عن عالمي الحس والشهادة، وترقت على عالم الأمر والعناية، فانغمست في بحار أنوار القدرة، حتى وقفت على حجاب الكرم، وأبواب الوسيلة، تستمد الظفر من الملك الجبار، وتطلب النصر من الواحد القهار.

وأنشدت:

قد بلغ الأمر منتهاه ... وحل بي مثل ما تراه
من لم يكن لي سواه ... فكيف أشكو إلى سواه

ثم صرفت كلامها إلى التضرّع والمناجاة، وفزعت بالابتهال إلى نور الأرض والسماوات، ومن وراء سترات الحجب، وسرادقات المجد، هجمت بها حقيقة العبودية على مخاطبة المتفرد بالربوبية، بطلب كشف الحجب ورفع الستور، عن جمال ذاك الجلال، وشعشعاني ذلك النور، لتنكشف به عن القوم ظلم الحيرة، وتتجلى حنادس الشك، وتنزاح دياجي عمى الجهل، ودياجر ضلال الأمارة، وقامت في مركز التوسل، وهو من حجاب الشفاعة غير بعيد، والسعادة الأبدية ناشرة على رأسها أعلام الإذعان والإقرار بالتوحيد، ومن عواطف الرحمة صدرت لها العناية بالتأييد والتسديد.

فأنشأت:

في نور وجهك لا بالشمس والقمر ... رشد البرية من بدو ومن حضر
وجه تلألأ بالإشراق فانحسرت ... عن السمو إليه أعين البشر
لو شعبة تتجلى من أشعته ... لما عرفن لداجي الجهل من أثر
ماذا عليك إذا أرشدتنا كرماً ... إلى سناه فها إنا على سفر
إن كان ما بيننا ستر حجبت به ... فارفعه عنا ومتّعنا من النظر
وإن تكن حجبه أمست أشعته ... يعشى بها إن رماها نافذ البصر
فارفع غواشي عيون بالهوى عميت ... ففي يديك كمال النفع والضرر

واسلك بنا نهجك الهادي فليس لنا ... هـاد وإلا فـهـا إنـا عـلـى خـطـر
أثبت في مهجتي غرس الهدى فغدا ... قلبي كجنة عدن في لظى سقر
ففي هواك نعيمي والعذاب غدا ... شوقي إليك ولا صبر لمصطبر
إن القلوب أبت عن أن يحل بها ... سواك سانح وهم لاح في فكر
وقد تعاليت شأناً أن تحل بها ... مكيفاً في مراياها مع الصور
كم بت أطلب برقاً من أشعتكم ... ليلاً إلى أن تغنّى طائر السحر
مقلباً في الجهات الست لي مقلاً ... فيها أرى ما بقاع البحر من درر
فيرجع الطرف مني خاسئاً حسرا ... وكلما مرّ فيها آب بالخسر
والشوق يطغى بأحشائي فيرسله ... كنافذ السهم إما زل عن وتر
رام المريدون كشف الحجب فارتفعت ... عنك الستور وآبوا عنك بالظفر
نالوا الروي منك في ورد وفي صدر ... ورحت حيران بين الورد والصدر
مذبذباً لا إلى الحرمان منقطع ... كلا ولا منك أقضي بالمنى وطر
إن كان عمري على ما كان يتبعه ... في ما يجيء فما أشقاه من عمر

فما كان إلا كلوث إزار، أو تردّد نَفَس، حتى أيّدها الجليل بأنوار روح القدس، ومضت وهي تسمع من جميع جهاتها جواب أبياتها:

إنا إذا ما استغاث الصارخون بنا ... من حادث ظلَّ فيه العقل حيرانا
ونازل فادح ضاق الخناق به ... يظلّ من وقعه اليقظان سكرانا
وكربة بالشجى التفت شدائدها ... يروح من هولها الريان ظمآنا
نجيب لبيك يا من يستغيث بنا ... بالنصر فامض قرير العين جذلانا
كم كربة قد كشفنا دجن حندسها ... عمن لها في ظلام الليل ناجانا

إني لأرأف فيكم من نفوسكم ... لذاك دون الورى سميت رحمانا
نولي الجميل ونعطي الخير طالبه ... لا نبتغي بدل الإحسان إحسانا
ويرجع الآبق العاصي فنقبله ... منكم ونمنحه عفواً وغفرانا
لسنا نعامل من بالسوء عاملنا ... بل نمنح النصر من بالنصر والانا
ما زلّت النعل فيمن طاب باطنه ... ولا رأى العثر من بالصدق وافانا
ولا هوى في لظى الشدات ناصرنا ... آناً ولا خف يوم الحشر ميزانا
ما خاب من كان فينا ساهراً أرقاً ... تجري مدامعه سحاً وتهتانا
وإن لذيذ الكرى أودى بمقلته ... وراح من شدة التهويم وسنانا
وغالب النوم منه مَشْعَراً يقظاً ... بتنا نناجيه إسراراً وإعلانا
يا مدّعي الحب قم إن كنت تهوانا ... وانهض إلينا فإن الوقت قد آنا
كم ذا الرقاد ألم تعلم بأن لنا ... في آخر الليل قبل الفجر إحسانا
ما خاب قاصدنا سعياً ولا رجعت ... كف المؤمل صفراً من عطايانا
إن المريدين راموا الوصل فاجتهدوا ... وقطعوا الليل تسبيحاً وقرآنا
لو يعمل العبد بالإخلاص مجتهداً ... ما كان أقربنا منه وأدنانا
أو راح يطلب بالتقوى إغاثتنا ... في كل وقت إذا ما شاء يلقانا
فما تباعدت عمن راح يطلبني ... ولا اتخذت حجاباً دونه آنا
أنا الذي أتجلى للحبيب إذا ... ما لازم العشق أحياناً فأحيانا
لم يحوني العرش والكرسي وإن عظما ... بل ضمني قلب من بالعشق قد دانا
يا طالب الكشف عن أنوار حضرتنا ... أخلص برقك إقراراً وإذعانا
واطلب حقيقة توحيدي فإن لنا ... في طي باطنها سراً وبرهانا

ثم رجعت المطمئنة وروح القدس ينفث في روعها.

خفي لإفراط الظهور تعرضت لإدراكه أبصار قوم أخافش
وحظ العيون الزرق من نور وجهه لشدته حظ العيون العوامش[1]

وهبطت من عالم الأمر إلى عالم الحس والتكوين، ومما غشيها من أنوار حضرة الجلالة لا تكاد تبين، وروح القدس لها قرين، ولما تريده ناصر ومعين، فعجل روح القدس إلى مصابيح الحكمة، فأوقدها من زيتونة لا شرقية ولا غربية، فانجلت الظلمة وانكشفت الغمّة، فأبصر القرن قرنه، والفارّ صفّهُ والكارّ نشرهُ ولفه، فتراجعوا إلى مراكزهم، وثبتوا في مواقفهم، وتقابلوا في مصافهم، وأمرت المطمئنة أن ينصب لها بين الصفين منبر العدل، وأعواد الحق، ومشت إليه بخطى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهي تقول:

أتى الجهل في جيش كثيف عرمرم وجاول من أجنادنا كل أرقم
وتتبعه أمارة السوء والردى بحالك ديجور من الشر مظلم
فلما تواقفنا أتاها نداؤنا ألا فاسلمي يا أيها النفس تسلمي
فما رجعت عن غيّها وضلالها وخفت بها للشر صولات ضيغم
فدارت عليها الدائرات من التقى كفاحا فخرت لليدين وللفم
ومن يعم يهو في مهالك جمة ومن يتأمل بالعواقب يسلم
ومن يطرق الآساد في أجماتها يكن لضواري الأسد أكبر مغنم

(١) البيتان وردا في جامع السعادات، لمحمد مهدي النراقي، ج٣، ص١٤٠ كشاهد على وجود الله دون أن ينسبهما لأحد.

ومن صافح البيض الصفاح بنحره ... تركن له الأوداج تشخب بالدم
ومن يركب الأخطار يهلك ومن يكن ... حريصاً على فعل من الشر يندم
ومن يجز بالإحسان يجز بمثله ... ومن يرم سهماً راح يرمى بأسهم
ومن يجعل العدوان أكبر همّه ... يكن لحدود البيض أول مطعم
ومن يحمل الأثقال يبهظن متنه ... ومن يتعزز بالمذلة يرغم
ومن لا يجاز الناس بالسوء والأذى ... يعظم ومن لا يترك الشتم يشتم
ومن ينصر الملهوف ينصر ومن يغث ... صريخاً يغث أو يظلم الناس يظلم
ومن جاد لم يذمم ومن يعف لم يلم ... ومن يصنع المعروف في الناس يكرم
ومن غالب الأيام يغلب ومن بنى ... بناءً على التأسيس لم يتهدّم
ومن يرم عرض الغير يرم بمثله ... ومن ساد في الأقوام يصفح ويحلم
ومن يحتفر بئراً تردّى بقعرها ... ومن ينصب الأشراك فيهن يرتم

ج ـ درجات المطمئنة ونصائحها:

ثم رقّت الدرجة الأولى وهي تقول: إن الآمال قطعت أعناق الرجال، وما هي إلا كالسراب، غرّ من رآه وأخلف من رجاه.

وأنشأت:

فكم شقت ودقت واسترقت ... فضول العيش أعناق الرجال
وكم غرت أخا نظر سقيم ... فهب لنا نشيطاً من عقال
وكابد في تطلبها الدواهي ... ولم ينظر سوى لمعان آل
وما خير الورى من راح يلفى ... إلى الشهوات مشدود الرحال
ولكن خيرهم من راح يسعى ... إلى الطاعات في ظلم الليالي

ثم رقت الدرجة الثانية وهي تقول: غلب داء الجهل فأعمى وأصم، فتوالت العثرات وتتابعت زلات القدم.

وأنشدت:

تصيدت الدنيا رجالاً بفخها ... فلم يدركوا خيراً بل احتقبوا شرًّا
وأعماهم داجي الهوى وأصمَّهم ... فلم يدركوا إلا الخساسة والوزرا[1]
وقام منادي الله عنها يصدهم ... فما جانبوا نهياً ولا امتثلوا أمرا
ولو علموا علم اليقين بدائها ... لما اتخذوا دنياهم بدل الأخرى

ثم رقت الدرجة الثالثة، وهي تقول: من جانب طاعتنا وقع في الدواهي، ومن لم يستضئ بنورنا ارتكس في المهاوي، ومن اقتفى أثر الشهوات ارتبك في المعاصي، نحن موازين العدل، وأعلام الحق، وصراط النجاة.

وأنشدت:

إذا ولي الحكومة خير قوم ... أصابوا الحق والتمسوا السدادا
وما خير الأنام إذا تعدوا ... خلاف الحق واجتنبوا الرشادا
وليس فتى بهذي الدار يمشي ... على منهاجنا إلا وسادا
وكل فتى به يسعى هواه ... إلى الدنيا عن المنهاج حادا

ثم رقت الدرجة الرابعة، وهي تقول: الحرص على الشهوات مجلبة

---

(١) ورد البيتان في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج٢٠، ص٢٢٥. البيت الثاني ورد:
وأعماهم حب الغنى وأصمهم ... فلم يدركوا إلا الخسارة والوزرا

الهم، ومثابة الغم، وظلمه يعمى بها القلب، وحجاب يمنع عن الاستضاءة بأنوار الرب، والاستعلاء ضعة، والعكوف على اللذات خساسة، ومن كانت همته بطنه فقيمته ما يخرج منها.

وأنشدت:

عليك بقمع النفس عن كل شهوة ... تعوض بنور في فؤادك بارق
إذا لم تجد نوراً لُمِ النفس وأعلمن ... بأنك في دعواك لست بصادق
وما دمت بين الناس تطلب رفعة ... فلا تطمعن في رفعة عند خالق

ثم رقت الدرجة الخامسة وهي تقول: طاعة الخالق عزّ، وطاعة المخلوق ذل، وعصيان الخالق مهلكة وعصيان المخلوق عزّه، مولى القوم منهم، وعليهم أجره وعليهم ضمان جرائره، وما ظنك بمن مولاه مبدأ كلّ علّة ومنتهى كل غاية، وعنده خزائن الرحمة وبيده مفاتيح الكرامة.

وأنشدت:

لله قوم إذا ما الليل جنهم ... قاموا من الفرش للرحمن عبادا
ويركبون مطايا لا تملهم ... حتى إذا بمنادي الصبح قد نادى
تلقاهم إن بياض الصبح لاح لهم ... قالوا من الوجد ليت الليل قد عادا
هم المطيعون في الدنيا لسيدهم ... وفي القيامة سادوا كل من سادا
الأرض تبكي عليهم حين تفقدهم ... لأنهم جعلوا للأرض أوتادا[1]

---

(١) القمي، سفينة البحار: ج٥ ص٤٥.
مع اختلاف في البيت الثالث فورد على الشكل التالي:
همُ إذا ما بياض الصبح لاح لهم ... قالوا من الشوق ليت الليل قد عادا

ثم رقت الدرجة السادسة وهي تقول: اغتر ابن آدم، وما علم أنه من المدحضين لو ساهم وطلب ما لا يدركه، ويجمع ما لا يأكله، يمسي ويصبح وهو نائم غافل، ويعلم أن الموت به لا شك نازل.

وأنشدت:

يا طويل الرقاد والغفلات ... كثرة النوم تورث الحسرات
إن في القبر إن نزلت إليه ... لرقاداً يطول بعد الممات
ومهاداً ممهداً لك فيه ... بذنوب عملت أو حسنات
أأمنت البيات من ملك الموت ... وكم نال آمنا ببيات

ثم رقت الدرجة السابعة وهي تقول: أين الأمم الماضية والقرون الخالية؟ أين المتمردة والقياصرة؟ أين الفراعنة والأكاسرة؟ أين العتاة والجبابرة؟ أين أصحاب الأبهة والطغيان؟ أين الذين كانت تعقد على مفارقهم التيجان؟ أين الذين قادوا الجيوش وعسكروا العساكر؟ أين الذين شيّدوا القصور وزخرفوا الدور وبنوا الدساكر؟ أين الذين تألهوا في الأرض كبراً وعتياً وتمتعوا بأطايب اللذات بكرة وعشياً؟ أين الذين حصّنوا الحصون، وشقوا الأنهار، واستنبطوا العيون؟ أين الذين ملأوا ما بين الخافقين فخراً وعزاً؟ أين الذين كانت ترجف منهم القلوب هيبة وعزّاً؟ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً؟

وأنشدت:

وإن امرؤ يسعى لدنياه جاهداً ... ويذهل عن أخراه لا شك خاسر
وفي دون ما عانيت من فجعاتها ... إلى رفضها داع وبالزهد آمر

وفي ذكر هول الموت والقبر والبلى ... عن اللهو واللذات للمرء زاجر
فكم في بطون الأرض أرباب عزّة ... محاسنهم فيها بوال دواثر
خلت دورهم منهم وأقوت عراصهم ... وساقتهم نحو المنايا المقادر
وخلوا عن الدنيا وما جمعوا لها ... وضمتهم تحت التراب الحفائر
وأضحوا رميماً في التراب وأقفرت ... مجالس منهم عطلت ومقاصر
فما دفعت عنهم حصون مشيدة ... تحف بها أنهارها والدساكر
ولا قارعت عنهم جنود تحوطهم ... ولا جالدت عنهم رقاق بواتر[1]

ثم رقت الدرجة الثامنة وهي تقول: ها هم والله رهائن القبور، ومضامين اللحود، قضوا ولم يمهدوا في سلامة الأبدان، ولم يعتبروا في أنف الأوان، وأصبحت أصواتهم خامدة، وأرياحهم راكدة، ونيرانهم هامدة، وديارهم خالية، وعروشهم خاوية، وأجسامهم بالية، وآثارهم عافية، ولو استنطقت عنهم الأجداث والمقابر لأجابك الجديد منها والداثر...

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فلم تنفعهم القلل
واستنزلوا من أعالي عز معقلهم ... فاسكنوا حفرة يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعدما دفنوا ... أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت محجبة ... من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل

---

(١) عباس القمي، الأنوار البهية، ص١١٩، منسوبة للإمام علي عليه السلام.
كما وردت هذه الأبيات في الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين، ص٥٠٠، وهي من ضمن أبيات عديدة تحت عنوان: «المناجاة» المعروفة بالندبة.

يا طالما أكلوا دهراً وما شربوا فأصبحوا بعد ذاك الأكل قد أكلوا[1]

ثم رقت الدرجة التاسعة وهي تقول: ألا أيها السامع ويحك فاعتبر، وعلى البلغة من دنياك والنزر فاقتصر، ألا وما بعد القبر أدهى وأمّر، ألا من كان أمامه سقر، فكيف يفرح بما نال من دنياه أو يسر، ألا ومن لا يأمن فورات السعير، فكيف يرفل في الديباج ويتبختر بالحرير، ألا ومن كان لا يأمن من ملهبات لظى فكيف يسمو طرفه من دنياه إلى كل برق أضا، ألا ومن كان يعلم أن مسيره على صراط الهاوية، فكيف يقتفي أثر هذه الأمارة الغاوية، ألا ومن ليس عنده براءة من الجحيم، فكيف يأوى إلى ريف العيش ويتقلب في ظلال النعيم، ألا ومن علم أن في الدار التي يرتحل إليها جهنم، كيف تهدأ جوارحه عن الطاعة ويخلو قلبه آناً من الحزن والغم، ألا ومن كان على منكبيه من يكتب من نَفَسٍ أو كلمة، فكيف يأمل النجاة ويأمن أن لا يواقع الحطمه، ألا ومن كان لا يجوز على الصراط إلا ببراءة من عمله، فكيف يرجو العبور المفرط ويأمن من مهاوي زلله.

وأنشدت:

---

(١) أنشد هذه الأبيات الإمام علي بن محمد الجواد عليه السلام، في مجلس المتوكل العباسي، بعدما اقتيد إليه الإمام من بيته ليلاً على يد جند المتوكل، وقد أصر عليه أن ينشد شيئاً، فقرأ الإمام عليه السلام هذه الأبيات فبكى المتوكل وبكى الحاضرون. (ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١ ص١٩).
كما ورد في المستطرف للأبشيهي، ج٢ ص٥٩٧، ما يلي:
قال وهب بن منبه: أصبت على قصر غمدان، وهو قصر سيف بن ذي يزن بأرض صنعاء اليمن، وكان من الملوك الأجلة، مكتوب بالقلم المسندي، فترجم بالعربية فإذا هي أبيات جليلة وموعظة عظيمة، وهي هذه الأبيات الواردة أعلاه.

ألا ذاكر للنار ينشق قلبه مخافتها أن ليس منها بآمن
ألا ذائبٌ من خشية الله تائب إلى ربه من بعض تلك الدفائن
ألا مستعد للرحيل وقد دنا ولا بد من زاد معد لظاعن
ألا مستح من فعله متندم على ما أتى في الداجيات المداجن
ألا عالم أن القيامة موعد لكل البرايا من أمين وخائن

ثم تجلّت في أفق الدرجة العاشرة، تجلي المصباح، وتلألأت تلألؤ الشمس الظاهرة، فلم تدع أنوارها طرفاً لأجناد الجهل إلا أعشته، ولا طرفاً لأجناد العقل إلا نورته.

وأنشدت:

وإذا خفيت عن العيون فعاذر أن لا تراني مقلة عمياء
أنا صخرة الوادي إذا ما زوحمت وإذا نطقت فإنني الجوزاء[1]

٣ ـ الإيمان منبر المطمئنة:

ووقفت من منبر الإيمان في أعلى ذروة التسديد ورأس قنة[*] التأييد.

وأنشدت:

وموقف مثل حد السيف قمت به أهدي الأنام وترميني به الحدق
فما زلقت وما ألفيت كاذبة إذا الرجال على أمثاله زلقوا

---

(١) المتنبي (٣٠٣هـ ـ ٣٥٤هـ/ ٩١٥ ـ ٩٦٥م). وردت: على الغبي، بدل عن العيون. (ديوان المتنبي).

(*) القنة: قنة كل شيء: أعلاه. (لسان العرب).

واتكأت على سيف العدل وصارم الحق وهي تقول:

إنا إذا مالت دواعي الهوى وأنصت السامع للقائل
لا نجعل الباطل حقاً ولا نلط دون الحق بالباطل
نخاف أن تَسْفَه أحلامنا فيخمل الدهر مع الخامل[1]

ثم ابتدأت بكلامها القوم الذين دعتهم الأمَّارة إلى ارتكاب الطيبات، والتمتع باللذات، كاشفة عنهم سجف الحيرة، حالَّة من ألسنتهم عقدة الوجمة، تشحذ ما صدئ من عزائمهم، وتبرم ما انحلّ من هممهم، ما لكم أصبحتم في عشواء الحيرة خابطين، وفي غمرات الشك خائفين، جائرين عن القصد وتائهين عن الرشد، والأعلام واضحة، والبينات لائحة، وأنتم أولو أبصار نافذة، وأسماع مستيقظة، وعندكم من أجناد العقل أعوان وأنصار، لا تنام على وتر ولا يدرَك منها ثأر. كيف تميل بكم الأمَّارة عن حق، أو تركسكم الشهوات في مدرج باطل، وأنتم أملك لها منها، وأقدر منها عليها، تقلّدوا المغرم واعتقلوا الحزم، ولا تطلبوا شيئاً حتى تعلموا أن الصواب في طلبه، ولا تسلكوا فجاً حتى تعلموا سهولة نفنفه وسبسبه، وإياكم والسلوك على غرّة فإنه يورث الندامة ويعقب الحسرة.

---

(١) الربيع بن ابي الحقيق (مجهول تاريخ الولادة والوفاة) وهي من ستة أبيات. مع بعض الاختلاف. كما وردت لسعية بن غريض (مجهول التاريخ) من ضمن عشرة أبيات مع الاختلاف ذاته... والاختلاف في أبيات الربيع:

لسنا إذا جارت دواعي الهوى وأسمع المنصت للقائل

وبدل فيخمل: وردت فنخمل. وبدل نلط. وردت نلظ. (ونلط: نستر ونخفي، أما نلظ فلم نعثر لها على معنى). (موسوعة الشعر العربي).

وأنشدت:

فازرع صواباً وخذ بالحزم حيطته ... فلن يذم لأهل الحزم تدبير
فإن ظفرت مصيباً أو هلكت به ... فأنت عند ذوي الألباب معذور
وإن ظفرت على جهل ففزت به ... قالوا جهول أعانته المقادير

ثم التفتت إلى الجهل تُقرِّعه، وبسوط حكمتها الباهرة تقرعه:

ركوبك الأمر ما لم تلق فرصته ... جهل رمى بك والإقحام تغرير
أهون بدنيا يصيب المخطئون بها ... حظ المصيبين والمغرور مغرور

ورمقت الأمَّارة، وأصحاب رايات الجهل بطرفها وقالت: تباً لها من وجوه طالما عصت الرحمن بنشرها ولفها، ورفضت شكر المنعم باتباع طنبورها ودفها، واتبعت خطوات الشيطان بحفها ورفها. وأنشدت:

أقول وقد لاحت لإبليس راية ... وأوقد للغاوين نار الحباحب
أبا لليث تغترون يحمي عرينه ... وتلقون جهلاً أسده بالثعالب
فلا رفعت سجف الظلام أشعتي ... إذا أنا لم أرجمكم بالثواقب[1]

ثم اندفعت تهدر شقاشقها بالحق المبين، وتصول بعزائم الدين وصوارم اليقين، وهي تقول:

---

(١) الأبيات لإبراهيم بن هرمة (٨٠ ـ ١٧٦هـ/ ٦٩٩ ـ ٧٩٢م). مع اختلاف، وقد وردت كالآتي:
دعوني وقد شالت لإبليس راية ... وأوقد للغاويين نار الحباحب
أبا لليث تغترون يحمي عرينه ... وتلقون جهلاً أسده بالثعالب
فلا نفعتني السن إن لم يوزّكم ... ولا أحكمتني صادقات التجارب
(موسوعة الشعر العربي).

تناول سرحان فريسة ضيغم فقضقضه[1] بالكف منه وحطما

وأنشدت:

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد[2]

ومضت في الخطاب على ترسلها، وروح القدس يلقي في روعها ويفيض على مقولها وقالت:

إيه يا وفد الخيبة وطلائع الريبة، لقد أكثرتم المقال، وأوسعتم المجال، وسترتم الحق بظلم الأباطيل، وغياهب الأضاليل، وذهبتم في غوايتكم كل مذهب، وقد تمّ منها كل جحفل ومقنب، بزخرف من القول وزبرج من الكلام، ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[3]، بغير دليل واضح، ولا برهان لائح، وغرستم في قلوب هذا الخلق العظيم الغرور، وسقيتموه بدلاح الأماني، وملث الكذب والزور، وزينتم لهم ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[4]. وبذرتم في أفئدتهم حب الفتن، وحثثتم عليها في السر والعلن، وحششتم[5] نار التفاخر، بجزل المباهاة والمهاراة والتكاثر، وحملتموهم على النهب والغارات، وطلب

(١) قضقضه: القضقضه: صوت تكسير العظام. (الصحاح).

(٢) ابن الرومي، (٢٢١ ـ ٢٨٣هـ/ ٨٣٦ ـ ٨٩٦م). (ديوان ابن الرومي)

(٣) سورة النور، الآية: ٣٩.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

(٥) حششتم النار: أوقدتم (تحف العقول: ابن شعبة الحرني، هامش صفحة ٢٤٠).

الأوتار والثارات، والتكالب على هذا الحطام، وإثقال العيب بموبقات الأوزار والآثام، من حسد يأكل إيمانهم وأحقاد توبق أديانهم، وغل يتغلغل في قلوبهم، وكبر تهب عواصفه في عرانينهم، وخيلاء تذهب بحلومهم، وعجب يطفئ مصابيح عقولهم، حتى غدت أخلاقهم نمرودية، ونفوسهم فرعونية، ومواكبهم قارونية، وموائدهم كسروية، وملابسهم جبروتية، وقضاتهم طاغوتية، ولا صفة عندهم من الأوصاف المحمدية.

فلا رفق ولا لين، ولا تواضع ولا خشوع، ولا تحاب ولا تآلف، ولا مواساة ولا إيثار، ولا تفكّر ولا اعتبار، ولا صيام في الهواجر ولا بكاء في الدياجر، ولا حنين في الأسحار، ولا ذكر في الأصائل ولا تسبيح في الأبكار، وما ورد من شرائف الآيات وكرائم البينات، في الحث عليها والانهماك بها، نبذوه وراءهم ظهرياً، وجعلوه نسياً منسياً، كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه يندب إليها، ويدعو إلى ارتكابها بمدح رجال درجوا في سننها، ودبوا في نهجها، وعكفوا بكلهم عليها، فقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1]. وإن أسدل الليل عليهم سجف الأسحار، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[2]، ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ

(١) سورة النور، الآية: ٣٧.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٦.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1] ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[2].

وقال جلّ جلاله: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]، ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[4] ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[5]، وقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[6]. ويحهم فإن لم يثن من أعنتهم الترغيب في جليل هذه الصفات، والحث على اجتناء هذه المكرمات، فليكفكف منها الزجر والوعيد، وليلو بطامحها التقريع والتهديد، أما قرعت أسماعهم التي ضلت عندها الأماني وانقطعت الآمال:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[7]، أو ما هتفت في آذان عقولهم: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.
(٦) سورة الحشر، الآية: ٩.
(٧) سورة القصص، الآية: ٨٣.

ٱلدُّنۡيَا ۝ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾[1].

أما زجرهم عن اتباع غي هذه الأمَّارة، وردعهم عن ضلال هذه الخداعة الغرارة: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾[2].

ويلك يا أمارة! كم أركَسْت هذا الخلق الشريف في كل داهية موبقة، وبلية مهلكة، وتهت بهم في أودية الغفلات، ونبذتهم في نار حرها شديد، وقعرها بعيد، بطيء خمودها ذاكٍ وقودها، فلا رحمت الشاب لشبابه، ولا الشيخ لهرمه، من تزيينك لهم حب الشهوات، وإغرائك إياهم بالانهماك في الطيبات، والحث على اجتناء أطائب هذه اللذات، حتى غدت مجالسهم بأنواع الفسوق معمورة، وبضروب الملاهي والمعازف مغمورة، فأنساهم ذلك ذكر الله فهم عنه غافلون، وحبب إليهم زخارف الدنيا، فهم باكتساب ما اشتهت أنفسهم فرحون، والله في صفة حالهم يعلن ويقول: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾[3].

ويحك يا أمارة! أما علمت أن أهل المطاعم الأنيقة والمشارب الرحيقة، والملابس الرقيقة، والمراكب الفارهة، والقصور الشاهقة، والمتقلبين من النعم في نضارة أريافها، والمنتهبين غضارة الترفه

---

(١) سورة النازعات: الآيات: ٣٧ إلى ٤١.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

والترف من أجزاعها وأخيافها، قد صار ذلك وسيلة إلى أن ضرب الكبر عليهم سرادقه، وأرخى التجبّر على أبوابهم سواتره، وطارت بهم عن الانقياد إلى الحق قوادم الحمية، وأعمتهم عن النظر في ما به صلاحهم لواقح العصبيه، فحملهم قبيح هذه الصفات، وذميم تلك الأخلاق، على أن رفضوا شكر المنعم، وتجاهروا بالشقاق، وتمادوا بالنفاق، محادة لله وتكذيباً لرسله، فأوردهم النار وبئس الورد المورود، ولقد أرشدنا على ذلك في جملة من الآيات، وكثير من البينات، فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾[1]، وللمكذبين من أولي النعمة، أعلن بصواعق الوعيد، وقوارع التهديد، فقال: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ * وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾[2].

وأخبر عن القرون الماضية، وذوي الترفه من الأمم الخالية، بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[3].

وأنذرنا جلّ جلاله، بأن ربك لم يكن مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون، ولكن: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[4]، وقال مخبراً عن بعض الأمم بتكذيبهم لنبيهم،

---

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٤١ إلى ٤٥.

(٢) سورة المزمل، الآيات: ١١ إلى ١٣.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٣٤.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[1]، ولكم نرى المرء في أيام بؤسه وقلّته، قد انقطع إلى ربه بعبادته في مسجده أو صومعته، يحن في دجى ديجوره حنين العاديات، ويئن أنين الولِه الثاكلات، حتى إذا رفرفت عليه من الله النعم، وتهدلت أغصان المواهب والجوائز أعرض ونأى بجانبه، فوبخه الجليل بقوله: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[2].

وأخبر أيضاً بأنها فتنة لابن آدم واختبار له بقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3]. ولقد كشف لنا جلّ جلاله عن حقيقة الإنسان، بأنه مع ازدياد النعم أسرع شيء إلى الطغيان، بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[4]، ولقد نظرنا في أحوال الأمم الخوالي، ممن أفنتهم الأيام وأبلاهم تعاقب الليالي، وسبرنا أحوالهم سلفاً عن سلف، وخلفاً من بعد خلف، فلم نجد أعواناً للحق، وأعلاماً لمناهج الصدق، وأسرع اتباعاً للأنبياء، وأشد نصرة للأولياء إلا من كان جشب المطعم خشن الملبس، قد أخذ الفقر بكلكله، وقاده البؤس بزمامه، ليس للدنيا عنده قيمة ولا خطر، ولا إن نال منها شيئاً استخفه أشر ولا

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٣٣.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥١.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٩.

(٤) سورة العلق، الآيتان: ٦ و٧.

بطر، حتى أنَّب بذلك نوحاً الملأ من قومه، فقالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[1] وقالوا له: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[2].

كلا، بل هم أهل العزة والشرف، والإباء والأنف، وهم الملوك البارزة بزي المساكين، والمتحلية بحلية الناسكين، والرافضة لزخارف الدنيا ونعيمها، على حين اتخذها الملوك بدلاً عن الدين.

بالشوق والذوق نالوا عزّة الشرف ... لا بالدفوف ولا بالعجب والصلف
ومذهب القوم أخلاق مطهرة ... بها تخلقت الأجساد في النطف
صبر وشكر وإيثار ومخمصة ... وأنفس تقطع الأنفاس باللهف
والزهد في كل فان لا بقاء له ... كما مضت سنة الأخيار والسلف
قوم لتصفية الأرواح قد عمِلوا ... وأسلموا عرض الأشباح للتلف
ما ضرّهم ربّ أطمار ولا خلق ... كالدر ماضره مخلولق الصدف
لا بالتخلق بالمعروف تعرفهم ... ولا التكلف في شيء من الكلف
الفقر سر وعنك النفس تحجبه ... فارفع حجابك تجلو ظلمة التلف
وفارق الجنس واقر النفس في نفس ... وغِب عن الحس واجلب دمعة الأسف
واتل المثاني ووحد إن عزمت على ... ذكر الحبيب وصف ما شئت واتصف
واخضع له وتذلل إذ دعيت له ... واعرف محلك من إياك واعترف

---

(١) سورة هود، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١١١.

وقف على عرفات الذل منكسراً ... وحول كعبة عرفان الصفا فطف
وادخل إلى حبوة الأفكار مبتكرا ... واعمد إلى حانة الأذكار بالصحف
فإن سقاك مدير الراح من يده ... كأس التجلي فخذ بالكأس واغترف
واشرب واسق ولا تبخل على ضمإٍ ... وإن رجعت بلا ري فوا أسفي؟![1]

ثم أخذت في ذمّ الدنيا وطيباتها، تتبع الآيات بالآيات، وتواصل البينات بالبينات ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2]، ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[3]، ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[4] ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾[5]، ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ * كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾[6].

---

(١) الأبيات للشهيد الأول الشيخ محمد بن مكي الجزيني (الشهيد الأول، الدروس، ج١ ص٤٥).

(٢) سورة هود، الآيتان: ١٥ و١٦.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

(٤) سورة الروم، الآية: ٧.

(٥) سورة الروم، الآية: ٩.

(٦) سورة الدخان، الآيات: ٢٥ إلى ٢٩.

وأنشدت علم المحجة:

علم المحجة واضح لمريده ... وأرى القلوب عن المحجة في عمى
ولقد عجبت لهالك ونجاته ... موجودة ولقد عجبت لمن نجى[1]

ثم ثنت أعنة المقال إلى صاحب العزّة والجلال، بأن الناس في سيرها إليه شتى المساعي، متفرقة الأهواء، قِدد الطرائق، متشعبة المناهج، مختلفة الموالج.

فأنشأت:

يا من زمام قلوب الخلق في يده ... ومالك الناس أشياخاً وشبانا
كم عابد لك راح الدهر ديدنه ... يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا
وواصل فيك أولاجاً بِتَغْلِسَةٍ ... وآخذ حلك الديجور رهوانا
يلف في سيره برد الفلا عنقاً ... ويمخر البر كثباناً فكثبانا
وآخر يخبط العشواء معتسفاً ... قد راح في سدف الظلماء حيرانا
تهوي مطايا الهوى فيه وتورده ... حوض المهالك بالآفات ملآنا
وكلهم فيك في نهج الهوى شرع ... والشوق والوجد منهم عبَّ طغيانا
هذا من الوصل روى منك مهجته ... إن آب آب قرير العين ريانا
وذاك في خيبة الحرمان مشتمل ... قد آب غرثان صادي القلب ظمآنا
لما رأيت إليك السير مختلفا ... ناديت سبحان هادي الخلق سبحانا
ومذ سرينا على نهج الهوى وثنى ... عنك الأعنة منا ضل مسرانا
ما واضح النهج فيه ضلَّ سالكه ... إن المضلين ساروا فيه عميانا

---

(١) هذان البيتان كان الإمام الصادق عليه السلام يرددهما كثيراً. (الصدوق، الأمالي، ص٥٧٨).

نصبت فيه لأرباب الهوى علماً ... وقلت هذا لمن قد راح يهوانا
فالعاشقون اهتدوا فيه وضل به ... سار بدين سواكم في الهوى دانا

٤ ـ السعادة الأبدية:

وكانت السعادة الأبدية ناشرة أعلام التوحيد على رأس المطمئنة، فاستأذنتها في الكلام، وهي في تلاوة أبياتها مُرْجَحِنَّة، ووقفت على فجوة من خروق مسامع القلب، وكل من الفريقين قد شخص لها ببصره، وأصغى إليها بسمعه فقالت:

الحمد لله الذي عدل بين خلقه، وساوى بين عباده، فجعل الدنيا جنة نضرة لمن كفر به، وخميلة عطره لمن عنَدَ عن طاعته، وبهجة مونقه لمن أشرك بربوبيته، يتقلبون في نعيمها، ويتيهون في زخارفها، ويعجبون بمناظرها، ويزدهون في زبرجها، مشغوفة أنفسهم بلذاتها، ومقصورة أبصارهم على طيباتها، يأكلون ويتمتعون، ويلهيهم الأمل الكاذب، والغرور الحائل، كالنعَم المهملة والإبل الساهمة، ولو شاء الله لزادهم فيها بسطة، فجعل: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ[1].

وأما الآخرة، فجعلها لهم شر دار، فغلّ الأيدي إلى الأعناق، وقرن النواصي بالأقدام، وألبسهم سرابيل القطران، ومقطعات النيران، في

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٣٣ إلى ٣٥.

عذاب قد اشتد حرّه، وباب أطبق على أهله، في نارها كلب ولجب، ولهيب ساطع، وقصيف هائل، لا يضمن مقيمها، ولا يفادى أسيرها ولا تفصم كبولها، لا مدة للدار فتفنى، ولا أجل للقوم فيقضى، فمنهم من هو بين أنياب أفاعيها تمضغه، ومنهم بين مخاليب سباعها تعبث به وتفترسه، ومنهم من هو تحت سياط زبانيتها، وأعمدتها ومرازبتها، ومنهم من هو في بحار جحيمها يغرق ويسحب فيها، ومنهم من هو في غسلينها وغساقها، تزجره زبانيتها، لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً، نار تغلّظ بها الجبّار على من عصاه، وتوعد بها من صدف عن رضاه، نار نورها ظلمة، وهينها أليم، وبعيدها قريب، نار يأكل بعضها بعضاً، ويصول بعضها على بعض، نار تذر العظام رميماً وتسقي أهلها حميماً، نار لا تبقي على من تضرع إليها، ولا ترحم من استعطفها.

ثم أن السعادة الأبدية أنّت أنّة، وزفرت زفرة، كادت أن تخرج شظايا قلبها معها، فأجهش القوم بالبكاء لها.

وقالت:

واغوثاه من نار سجَّرها جبارها لغضبه، واغوثاه من نار إذا غضب عليها مالك حطم بعضها بعضاً لغضبه، واغوثاه من نار إذا زجرها توثبت بين أبوابها جزعاً من زجرته، واغوثاه من نار تلتحم منها الأطواق بعظام الأعناق، واغوثاه من نار تنشب منها الجوامع حتى تأكل لحوم السواعد، واغوثاه من نار نزّاعة للشَّوى، واغوثاه من نار

تنضج الأكباد والكلى، فمهلاً مهلاً... رويداً رويداً... ينجلي لكم القسطل ويظهر الحق ويزهق الباطل، وتبين الحقائق، وتنكشف السواتر عن يوم تفحص فيه الأعمال، وتشيب منه الأطفال، ويكثر فيه الزلزال. ذاك يـــوم: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾(١).

ذاك يوم يجعل الوالدان شيباً، السماء منفطر به، ذاك: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾(٢)، ذاك: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾(٣). ذاك: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾(٤)، ذاك يـــوم: ﴿ٱلْقَارِعَةِ * مَا ٱلْقَارِعَةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾(٥)، ذاك يـــوم: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾(٦)، ذاك يوم الغاشية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾(٧)، ذاك يوم الساهرة، ذاك يوم المصاخبة، ذاك يوم الطامة، ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَمَن

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢.
(٢) سورة المزمل، الآية: ١٤.
(٣) سورة النازعات، الآيات: ٦ إلى ٩.
(٤) سورة عبس، الآيات: ٣٤ إلى ٣٧.
(٥) سورة القارعة، الآيات: ١ إلى ٥.
(٦) سورة العلق، الآية: ٥. ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾.
(٧) سورة الغاشية، الآيات: ٢ إلى ٤.

فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ * كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ * تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾[1]، ذاك: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2]، ذاك يوم وقعت فيه الواقعة، ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ * إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ مَآ * مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾[3].

---

(١) سورة المعارج، الآيات: ١١ إلى ١٨.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨ و٨٩.

(٣) سورة الحاقة، الآيات: ١٦ إلى ٣٢.

الدار الآخرة والحساب

١ ـ مصير أهل العصيان:

أ ـ عذاب القبر وعذاب النار:

ثم قالت النفس المطمئنة: هذه نبذة من مجمل العذاب الذي نطق به الكتاب المجيد، وإشارة إلى نذر أهوال ذلك اليوم الذي ليس عنه محيد، إذ المقام لا يسع إيراد تفصيله، ولا يتحمل بيان مجمله، ولكني أذكر لكم في شرح ذلك شطراً من خبر وطرفاً من أثر، ليتذكر من يتذكر، وينيب من ينيب، ولعله إذا سمعه السامع أقلع عن غيّه وهواه، وأعرض عن زهرة دنياه، وأقبل على خدمة سيده وطاعة مولاه، إذ لو تلي على الصخر الأصم لتفجر ينبوعا، أو على الجبال الشم والأطواد البذخ لتدكدكت من الخوف والوجل سريعاً.

ذكر المجلسي في بحار الأنوار في كتاب صفة الجنة والنار. قال: أخبر أحمد بن محمد بن عيسى عن سعيد بن جناح عن عوف بن عبد الله الأزدي عن جابر الجعفي عن مولانا أبي جعفر الباقر عليه السلام، من خبر طويل قال:

«فإذا كانت صيحة القيامة، اشتعل قبر كل من هو من الأشقياء ناراً، فيقول: لي الويل اشتعل قبري ناراً، فينادي منادٍ: ألا الويل قد دنا منك والهوان، قم من نيران القبر إلى نيران لا تطفأ، فيخرج من قبره مسوداً وجهه مزرقة عيناه، قد طال خرطومه وكسف باله، منكساً رأسه، يسارق النظر، فيأتيه عمله الخبيث فيقول: والله ما علمتك إلا كنت عن طاعة الله مبطئاً، وإلى معصيته مسرعاً، قد كنت تركبني في الدنيا فأنا أريد أن أركبك اليوم. قال: ثم يستوي على منكبيه فيركل قفاه حتى ينتهي إلى عجزة جهنم، فإذا نظر إلى الملائكة قد استعدوا له بالسلاسل والأغلال، قد عضوا على شفاههم من الغيظ والغضب، فيقول: يا ويلتى ليتني لم أوت كتابيه، وينادي الجليل: جيئوا به إلى النار، فصارت الأرض تحته ناراً، والشمس فوقه نار، وجاءت نار فأحدقت بعنقه، فأبكى وبكى طويلاً ونادى: واطول عتباه، قال: فتكلمه النار فتقول: أبعد الله عقبيك مما أعقبت في طاعة الله قال: ثم تجيء صحيفة تطير من خلف ظهره فتقع في شماله، ثم يأتيه ملك فيقلب صدره إلى ظهره.

ثم يقال له: اقرأ كتابك قال: فيقول: أيها الملك كيف أقرأ وجهنم أمامي؟ قال: فيقول الله: دقّ عنقه واكسر صلبه وشد ناصيته إلى قدميه، ثم يقول: خذوه فغلوه، قال: فيبتدره لتعظيم قول الله سبعون ألف ملك غلاظ شداد، فمنهم من ينتف لحيته، ومنهم من يعض لحمه، ومنهم من يحطم عظامه، قال: فيقول: أما ترحموني؟ قال: فيقولون: يا شقي

كيف نرحمك ولا يرحمك أرحم الراحمين، أفيؤذيك هذا؟ قال: فيقول: نعم أشد الأذى، فيقولون: يا شقي وكيف لو قد طرحناك في النار؟ قال: فيدفعه الملك في صدره دفعة فيهوي سبعين ألف عام، قال: فيقول: يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول، قال: فيقرن معه حجر عن يمينه وشيطان عن يساره، وحجر كبريت من نار، يشتعل في وجهه، ويخلق الله له سبعين جلداً كل جلد غلظة أربعون ذراعاً بذارع الملك الذي يعذبه، وبين الجلد إلى الجلد أربعون ذراعاً، وبين الجلد إلى الجلد حيّات وعقارب من نار وديدان من نار، رأسه مثل الجبل العظيم، وفخذاه مثل جبل ورقان، وهو جبل بالمدينة، مشفره أطول من مشفر الفيل، فيسحبه سحباً، وأذناه عضوضان، بينهما سرادق من نار مشتعل، قد أطلعت النار من دبره على فؤاده، فلا يبلغ دركاً من دركاتها حتى يبذل له سبعون سلسلة للسلسلة سبعون ذراعاً ما بين الذراع حلق عدد القطر والمطر، لو وضعت حلقة منها على جبال الأرض لأذابتها، وعليه سبعون سربالاً من قطران من نار، وتغشى وجوههم النار، وعليه قلنسوة من نار، ليس في جسده موضع إلا وفيه حلية من نار، وفي رجليه قيود من نار، على رأسه تاج ستون ذراعاً من نار، قد نقب رأسه ثلاثمائة وستون نقباً ويخرج من تلك النقب الدخان من كل جانب، وقد غلى منها دماغه حتى يجري على كتفيه يسيل منها ثلاثمائة وستون نهراً من صديد، يضيق عليه منزله كما يضيق الرمح في الزج، فمن ضيق منازلهم عليهم ومن ريحها وشدة سوادها وزفيرها وشهيقها وتغيّظها ونتنها اسودّت وجوههم، وعظمت ديدانهم فينبت لها أظفار السنور

والعقبان تأكل لحمه وتقرض عظامه وتشرب دمه، ليس لهن مأكل ولا مشرب غيره، ثم يدفع في صدره دفعة فيهوي على رأسه سبعين ألف عام حتى يواقع الحطمة، فإذا واقعها دَقَّتْ عليه شيطانه وجاذبه الشيطان بالسلسلة كلما رفع رأسه نظر إلى قبح وجهه، كلح في وجهه، قال: فيقول: يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين فبئس القرين، ويحك بما أغويتني أحمل عني من عذاب الله، فيقول: يا شقي كيف أحمل عنك من عذاب الله من شيء وأنا وأنت اليوم في العذاب مشتركان. ثم يضرب على رأسه ضربة فيهوي سبعين ألف عام حتى ينتهي إلى عين يقال لها آنية، يقول: عين ينتهي حرّها وطبخها وأوقد عليها مذ خلق الله جهنم، كل أودية النار تنام وتلك العين لا تنام من حرّها، وتقول الملائكة: يا معشر الأشقياء ادنوا فاشربوا منها؛ فإذا أعرضوا عنها ضربتهم الملائكة بالمقامع، وقيل لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1]. قال: ثم يؤتون بكأس من حديد فيه شربة من عين آنية، فإذا أدني منهم تقلصت شفاههم، وانتثرت لحوم وجوههم، فإذا شربوا منها وصار في أجوافهم يصهر به ما في بطونهم والجلود. ثم يضرب على رأسه ضربة فيهوي سبعين ألف عام حتى يواقع السعير، فإذا واقعها سعرت في وجوههم، فعند ذلك غشيت أبصارهم من نفخها. ثم يضرب على رأسه ضربة فيهوي سبعين ألف عام حتى ينتهي إلى شجرة الزقوم، ﴿شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٨١ و١٨٢.

أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[1]، عليها سبعون ألف غصن من نار، في كل غصن سبعون ألف ثمرة من نار، كل ثمرة كأنها رأس الشيطان قبحاً ونتناً، تنشب على صخرة مملسة سوخاء كأنها مرآة زلقة، ما بين أصل الصخرة إلى الشجرة سبعون ألف عام، أغصانها تشرب من نار، وثمارها نار، وفروعها نار، فيقال له: يا شقي اصعد، فكلما صعد زلق، وكلما زلق صعد، فلا يزال كذلك سبعين ألف عام في العذاب، وإذا أكل منها ثمرة يجدها أمر من الصبر، وأنتن من الجيف، وأشد من الحديد، فإذا واقعت بطنه غلت في بطنه كغلي الحميم، فيذكرون ما كانوا يأكلون في دار الدنيا من طيب الطعام، فبينا هم كذلك إذ تجذبهم الملائكة فيهوون دهراً في ظلم متراكبة، فإذا استقروا في النار سمع لهم صوت كصيح السمك على المقلى، أو كقضيب القصب، ثم يرمي بنفسه من الشجرة في أودية مذابة في صفر من نار وأشد حراً من النار، تغلي بهم الأودية، وترمي بهم في سواحلها، ولها سواحل كسواحل بحركم هذا، فأبعدهم منها باعا، والثاني ذراعا، والثالث فِتْراً، فتحمل عليهم هوام النار الحيات والعقارب كأمثال البغال الدلم، لكل عقرب ستون فقاراً، في كل فقار قلةٌ من سم، وحيات سود زرق، كأمثال البخاتي[*] فيتعلق بالرجل سبعون ألف حية وسبعون ألف عقرب، ثم كُبَّ في النار سبعين ألف عام، لا تحرقه وقد اكتفى بسمها، ثم تعلق على كل غصن

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ٦٤ و٦٥.

(*) البخاتي: الإبل البرية بسنامين. (لسان العرب).

من الزقوم سبعون ألف رجل، ما ينحني ولا ينكسر، فتدخل النار أدبارهم فتطلع على الأفئدة، فتقلص الشفاه وتطير الجنان وتنضج الجلود وتذوب الشحوم، ويغضب الحي القيوم فيقول: يا مالك قل لهم ذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً، يا مالك سَعّر سَعّر قد اشتد غضبي على من شتمني على عرشي، واستخف بحقي، وأنا الملك الجبار، فينادي مالك: يا أهل الضلال والاستكبار والنعمة في دار الدنيا كيف تجدون مس سقر؟ قال: فيقولون: قد أنضجت قلوبنا، وأكلت لحومنا، وحطمت عظامنا، فليس لنا مغيث، ولا لنا معين، قال: فيقول مالك: وعزّة ربي لا أزيدكم إلا عذاباً، فيقولون: إن عذبنا ربنا لم يظلمنا، قال: فيقول مالك: فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب النار، يعني بعداً لأصحاب السعير. ثم يغضب الجبار فيقول: يا مالك سَعّر سَعّر، فيغضب مالك فيبعث عليهم سحابة سوداء مظلمة تظلّ أهل النار كلهم، ثم يناديهم فيسمعها أولهم وآخرهم وأقصاهم وأدناهم، فيقول: ماذا تريدون أن أمطركم؟ فيقولون: الماء البارد واعطشاه! واطول هواناه! فيمطرهم حجارة وكلاليب، وخطاطيف، وغسلين، وديداناً من نار، فتنضج وجوههم وجباههم، وتعمى أبصارهم، وتحطم عظامهم، فعند ذلك ينادون: واثبوراه! فإذا بقيت العظام عواري من اللحوم اشتدّ غضب الله فيقول: يا مالك اسجرها عليهم كالحطب في النار، ثم تضرب أمواجها أرواحهم سبعين خريفاً في النار، ثم يطبق عليهم أبوابها، من الباب إلى الباب مسيرة خمسمائة عام، ثم يجعل كل رجل منهم في ثلاثة توابيت من حديد من نار بعضها في بعض، فلا يسمع

لهم كلاماً أبداً إلا أن لهم فيها شهيقاً كشهيق البغال، وزفيراً مثل نهيق الحمير، وعواء كعواء الكلاب، صم بكم عمي، ليس لهم فيها كلام إلا أنين، فيطبق عليهم أبوابها، ويمدد عليهم عمدها، فلا يدخل عليهم روح أبداً، و لا يخرج منهم الغم أبداً، فهي عليهم مؤصدة ليس لهم من الملائكة شافعون ولا من أهل الجنة صديق حميم، وينساهم الرب ويمحو ذكرهم من قلوب العباد فلا يُذكرون أبداً»[1].

ب ـ أبواب النار:

وحيث انجرّ الكلام إلى ذكر النار، وما فيها من الأهوال والعذاب والشدائد، فلا بأس للتعرض للزيادة فنقول: إن النار لها أبواب سبعة وعتبات سبع، أما أبوابها فقد روي أنها سبعة بعضها أسفل من بعض، وكل باب أشد حرّاً من الباب الذي فوقه سبعين ضعفاً، فأول أبوابها جهنم، وثانيها لظى، وثالثها الحطمة، ورابعها السعير، وخامسها سقر، وسادسها الجحيم، وسابعها الهاوية.

أما جهنم فقد روى أنس عن رسول الله ﷺ قال: «جهنم سوداء مظلمة[2]، وأهلها سود، وشرابها، وما أعد الله فيها لأهلها من العذاب أسود، والذي نفس محمد بيده لو أن رجلاً أطلع وجهه من جهنم لاسودت له الأرض ومن عليها من شدة سواد وجهه».

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج٨ ص٣١٩ ـ ٣٢٣؛ وقد ورد في الحديث في الاختصاص للشيخ المفيد، ص٣٦١.

(٢) الهيثمي، مجمع الزوائد، ج١٠ ص٢٨٨.

وقال ميمون بن نهران: «لما خلق الله جهنم، أمرها فزفرت زفرة، فلم يبق في السماوات السبع ملك إلا خرّ لوجهه، فقال الجبار: ارفعوا رؤوسكم أما علمتم أنكم خلقتكم لطاعتي وعبادتي، وخلقت جهنم لأهل معصيتي من خلقي، فقالوا: ربنا لا نأمنها حتى نرى أهلها يدخلونها»[1].

«وذكر أبو جعفر القمي في كتاب زهد النبي ﷺ بحذف الإسناد: أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي محمد ﷺ عند الزوال ولم يأته فجأة فيه وهو متغير اللون، وكان النبي ﷺ يسمع حسه وجرسه فلم يسمعه يومئذٍ، فقال له النبي ﷺ: يا جبرائيل ما لك جئتني في ساعة لم تكن تجيئني بها، وأرى لونك متغيراً وكنت أسمع حِسَّك وجَرْسك ولم أسمعه، فقال: اني جئت حين أمر الله تعالى بمنافخ النار، والذي بعثك بالحق نبياً ما سررت منذ خلق النار.

فقال النبي ﷺ: فأخبرني عن النار يا أخي جبرائيل حين خلقها الله تعالى، فقال: إنه سبحانه أوقد عليها ألف عام فاحمرّت، ثم أوقد عليها ألف عام فابيضّت، ثم أوقد عليها ألف عام فاسودت، فهي سوداء مظلمة، لا يضيء جمرها، ولا يطفأ لهبها، والذي بعثك بالحق نبياً، لو أن مثل خرق إبرة خرج منها على أهل الأرض لاحترقوا عن آخرهم، ولو أن رجلاً دخل جهنم ثم أخرج منها لهلك أهل الأرض جميعاً حين ينظرون إليه لما يرون به، ولو أن ذراعاً من السلسلة التي

---

(١) العيني، عمدة القارئ، ج١٥ ص١٦٥.

ذكرها الله تعالى في كتابه وضعت على جميع جبال الدنيا لذابت عن آخرها، ولو أن بعض خزان جهنم التسعة عشر نظر إليه أهل الأرض لماتوا حين ينظرون إليه من تشوّه خلقه، ولو أن ثوباً من ثياب أهل جهنم علق بين السماء والأرض لمات أهل الأرض من نتن ريحه، فأكبّ النبي ﷺ وأطرق يبكي، وكذلك جبرائيل، فقال: يا جبرائيل لماذا تبكي وأنت من الله بالمكان الذي أنت به، قال وما يمنعني من البكاء وأنا أحق بالبكاء أخاف أن أكون على الحال التي أصبحت عليها، فلم يزالا يبكيان حتى ناداهما ملك من السماء يا جبرائيل ويا محمد إن الله قد أمنكما من أن تعصيا فيعذبكما»[1].

وأما الباب الثاني وهو لظى، فإنها نزاعة للشوى، يقول قلاعة للأعضاء، لليدين والرجلين وغير ذلك، وقيل حراقة للجلود والعظام، مع عِظمها وغلظها.

وروي عن رسول الله ﷺ: «مجلس الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام وليالٍ للراكب المجد، وإن غلظ جلده أربعون ذراعاً، وأضراسه أعظم من أُحد، وأن شفته السفلى ساقطة على صدره، والعليا مقلصة قد غطت وجهه، وإنه لعِظم النار حتى يأخذ منها ما بين الكوفة إلى المدينة. وإن فخذاه لتأخذ من النار مسيرة ثلاثة أيام، وإن رأسه كأعظم جبل على الأرض، وإن لونه لأشد سواداً من القبر في الليل المظلم، يلبسون من مقطعات النيران جبباً وسراويل صنعت من قطران، يدخل لهب النار من تحت سرباله فيرفعه اللهب حتى يقول قد خرجت

---

(١) البحراني، حلية الأبرار، ج١ ص٢٦٦.

واسترحت، فيضربه عند ذلك مالك ضربة بمطرقة من حديد فيهوي من ضربته في النار أربعين خريفاً، فيقع لا حياً ولا ميتاً ثمَّ تأخذه النار أيضاً كلما بلغوا ملكاً فعلوا به مثل ذلك في كل سبع مرات».

وأما الباب الثالث وهو الحطمة، فإنها تحطم عظام أهل النار وترضها رضا، تأكل لحومهم وتشرب دماءهم، فالويل لهم.

«أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أن يا عيسى كم من نفس صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح»[1].

وأما الباب الرابع وهو السعير، فإنها تسعر عليهم فلا تطفأ طرفة عين، قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾[2]. وفيها ثلاثمائة قصر من نار، في كل قصر ثلاثمائة دار من نار، في كل دار ثلاثمائة بيت من نار، في كل بيت ثلاثمائة لون من العذاب وفيها الويل، وهو واد من أوديتها، أشدها حرّاً وأبعدها قعراً، وأكثرها سلاسل وحيات وعقارب، ينادي: يا رب قد اشتدّ حرّي، وضاق مكاني، وبعد قعري، فأتني بما وعدتني، فيقول الله عزّ وجلّ: وعزّتي وجلالي لأنتقمنّ بك ممن عصاني.

قال الشاعر:

أيا شاباً برب العرش عاصي ... أتدري ما جزاء ذوي المعاصي
سعير للشباب بها ثبور ... وويل يوم يؤخذ بالنواصي
فإن تصبر على النيران فاعص ... وإلا كن من العصيان قاصي

---

(١) الفيض الكاشاني، المحجّة البيضاء، ج٨ ص٣٦٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٧.

وفيها قد كسبت من الخطايا وهنت النفس فاجهد في الخلاص

وأما الباب الخامس وهو سقر، فإنها لا تبقي على العظام لحماً إلا أكلته، ولا تذر في اللحوم دماً إلا شربته، وروى مجاهد عن ابن عباس: يبكي أهلها الدموع حتى تنقطع، ثم يبكون الدماء حتى تنقطع، ثم يبكون القيح حتى ينقطع، ثم يصير في وجوههم أخدود مثل الأنهار العظام مما يجري من أعينهم من الدموع والدم، حتى لو أن السفن المشحونة ألقيت فيها لجرت، وقد تقدم في الحديث الأول إشارة إلى عذابها ومناداة مالك لهم، وبها توعد الله سبحانه وتعالى الوليد كما أخبر به في قوله: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾[1].

وأما الباب السادس وهو الجحيم، فإنه جاحم الجمرة، أي عظيم الجمرة، الواحدة منها أعظم من الدنيا وما فيها، وفيها شجرة الزقوم، قال الله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾[2] نزلاً للكافرين، ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[3]. وقد تقدّم وصفها في الحديث الأول.

وأما الباب السابع فهو الهاوية، فإن أهل النار يهوون فيها مقدار خمسمائة عام، لا يبلغون قعرها، وفيها بئر يقال له الهبهاب، يخرج منه

---

(١) سورة المدثر، الآيات: ١٨ إلى ٢٥.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٦٢.

(٣) سورة الصافات، الآيتان: ٦٤ و٦٥.

نار تستعيذ منه نيران جهنم بالله من شرها، وفيها الصعود الذي قال الله: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾[1]، وهي صخرة ملساء من نار، يسحب أعداء الله على وجوههم على تلك الصخرة، وتضربهم الزبانية مقبلين ومدبرين، وقد توعّد الله جلّ جلاله الوليد أيضاً حيث قال خطاباً لنبيه الأطيب: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾[2].

ج ـ جسور جهنم وقناطرها:

وأما جسور جهنم، روي عن بعض العلماء أنه قال: إن جهنم أعاذنا الله منها عليها سبعة جسور وهي القناطير، والصراط أحدّ من السيف، فيقول الله سبحانه وتعالى حين يبلغون القنطرة الأولى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾[3] فيُحبسون ويحاسبون عن الصلاة فمن وجدت صلواته تامة نجا من ملك القنطرة، ومن لم توجد صلواته تامة هوى في النار، فينجو من نجا ويهلك من هلك.

ثم يحبسون على القنطرة الثانية فيحاسبون على الأمانة، وهي أمانة الخالق سبحانه وتعالى، وأمانة الخلق، وإذا أراد الله بعبد خيراً جعل الغنى في قلبه، وجعله أميناً لله، وأعانه على أداء الأمانات الذي افترض الله عليه، من الوضوء، والاغتسال، والصلاة، والصيام،

---

(١) سورة المدثر، الآية: ١٧.

(٢) سورة المدثر، الآيات: ١١ إلى ١٧.

(٣) سورة الصافات، الآيتان: ٢٤ و٢٥.

والزكاة، والإعطاء لكل ذي حق حقه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والحفظ لحدود الله، فذلك العبد الذي ألهمه الله رشده وبصّره بعيوب نفسه وجعل غناه في قلبه، وإذا لم يرد الله لعبده خيراً، جعل فقره بين عينيه وفي قلبه، وكسّله عن أداء الأمانات من المفترض الذي عليه وعلى جميع عباده، وغيب عنه رشد نفسه، وسلط عليه الشيطان فزين له سوء عمله وحبّب عيوبه، فإذا كان العبد كذلك فلا يبالي في ما قال ولا في ما قيل له، ولا يكون همه إلا في دنياه وإصلاحها، ولا يبالي بإتلاف دينه، فذلك العبد الذي قد سخط الله عليه وأبعده من أبواب الخير كلها وأقربه من أبواب الشر كلها، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[1].

ذكر في بعض الأخبار أنه يؤتى بمضيع الأمانة، فيقال له: أدّ ما ضيعت من الأمانة، فيقول: يا رب ذهبت عني الدنيا فمن اين أداؤها، فيخلق له مثالها في قعر جهنم أعاذنا الله منها، فيقال له: انزل إليها وأخرجها إلى صاحبها، فينزل العبد المسكين إليها، فيرفعها إلى كتفه وهي أثقل عليه من جبال الدنيا كلها، فإذا صار الشقي إلى أعلى جهنم وقعت منه، فلا يزال هذا عذابه إلى ما شاء الله تعالى من ذلك، هذا كله عند جواز الصراط، والظاهر والله أعلم أن هذا العذاب للذي يضيع أمانات الناس.

ثم يحبسون على القنطرة الثالثة، فيحاسبون على صلة الرحم، كيف

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٧.

وصلوها؟ ولم قطعوها؟ والرحم يومئذ تنادي: اللهم من وصلني فصله، ومن قطعني فاقطعه، فينجو من نجا ويهلك من هلك.

ثم يمر بالقنطرة الرابعة، فيحاسبون على بر الوالدين، فينجو من نجا ويهلك من هلك، وهو السؤال العظيم، لأن الله قد قرن شكره بشكر الوالدين، فقال جلّ اسمه وعزّ وجهه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[1]، والله تعالى يقول في بعض كتبه المنزلة: إرض والديك فإن رضاي في رضاء الوالدين وسخطي في سخط الوالدين، فلو أن عبداً جاء يوم القيامة بعمل مائة ألف صديق وكان عاقاً لوالديه ما نظر تبارك وتعالى في شيء من عمله، وكان مصيره إلى النار، وما من عبد مسلم أو أمة مسلمة ضحك في وجه والديه أو أحدهما إلا غفر الله ما كان منه من الذنوب والخطايا، وكان مصيره إلى الجنة.

ثم يحبسون على القنطرة الخامسة، فيحاسبون على حفظ اللسان من الغيبة والنميمة وشهادة الزور، فينجو من حفظ لسانه، ويهلك من شرح لسانه بما لا يعنيه، لأنه ليس من جوارح العبد بأشد ذنباً من اللسان، فربّ كلمة يتكلم بها العبد والأمة تكون سبباً لدخول النار، فكان بعض الخائفين إذا أصبح أخذ لوحاً ودواة وجعلها بجواره، فإذا تكلم بكلمة كتبها في اللوح بين يديه، ويقول في نفسه: هكذا أثبتها عليك الملك بأمر الملك، فما أغربت الشمس وصلّى صلاة المغرب وضع اللوح بين يديه وجعل يبكي ويقول في بكائه وتوبيخه وتقريره على نفسه: يا نفس

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٤.

كأني بك وقد سئلت عن هذا كله عند جواز الصراط، يا نفس تراك بأي كلمة من هذه تدخلين النار. فلا يزال يبكي حتى لا يجد بكاء وتفرغ الدموع فيغشى عليه، فإذا أفاق مما هو فيه أخرج اللوح ونقل ما فيه إلى قرطاس، وهو يقول متضرعاً: يا الله عفواً ورفقاً ولطفاً بعبدك، فلم يزل هذا دأبه حتى مات، فرآه بعض الصالحين بالمنام في حالة حسنة، فسأله عما لقي من الله تعالى فقال: ما ألقى من الكريم إلا الكرم، وجعل محاسبتي لنفسي في الدنيا بدلاً من الحساب في الآخرة، وجعل دموعي التي بكيت بها في الدنيا أنهاراً ترويني يوم العطش الأكبر، وتفضّل عليّ الكريم سبحانه بدخول الجنة، وبجواز الصراط، ومنَّ عليّ بالفضيلة العظيمة، والزيادة الكبيرة.

ثم يحبسون على السادسة، فيحاسبون على حفظ الجار، فينجو من حفظ جاره وأكرم ضيفه، ويهلك من خان جاره ولم يكرم ضيفه، روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[1]. وكرامة ضيفه أن يكرمه لوجه الله، وتكون ضيافته من حلال، وأما من أنفق على ضيفه من حرام فإنه لا ثواب له، فمن أنفق على ضيفه في الخمر وما لا يرضى الله به، قال ذلك الضيف يأتي يوم القيامة يتعلق هذا بهذا ثم يأتيان على الصراط وكل واحد منهما يلوم صاحبه ويقول: لعنك الله أنت الذي ساعدتني على الإنفاق في غير الله، ثم يقال لهما: جوزا الصراط، فأول قدم يضعانه على الصراط يهويان في

---

(١) الكليني، الكافي، ج٢ ص٦٦٧؛ ورواه البخاري في صحيحه، ج٧ ص٧٩.

النار، وقال رسول الله ﷺ: «الضيف إذا دخل بيت المؤمن، دخلت معه ألف بركة وألف رحمة، ويكتب الله تعالى لصاحب المنزل بكل لقمة يأكلها الضيف حجّة وعُمرة»[1]. وفي حديث آخر: «إن الضيف وربّ المنزل إن كانوا جماعة يأتون الصراط، فيأخذ كل منهم يد صاحبه فيجوزون الصراط أسرع من البرق اللامع، وإن لم يكن فيهم من له عمل يجوز به الصراط يأمر الله الملك الموكل بنفقة الضيف أن يأخذ بيدهم ويجوز بهم الصراط ولو كانوا مئة ألف»[2].

وأما حفظ الجار، فإن العبد والأمة يسألان عن حفظ الجار، فمن حفظ جاره جاز الصراط ونجا من العذاب الأليم، وصار إلى جنة الخلد والنعيم، وعن رسول الله ﷺ: «ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعان وجاره جوعان، أو بات ريان وجاره عطشان. ومن كرامة حفظ الجار أن يوقظه من الغفلات، ويهديه إلى الطاعة، ويأمره بإقامة الصلوات، وفي بعض الأخبار أن الجار يتعلق بجاره يوم القيامة فيقول: يا رب جاري هذا خانني في الدنيا، فيقول الله تبارك وتعالى: خنت جارك؟ فيقول له جاره: وعزّتك وجلالك ما خنته في مال ولا أهل، وأنت أعلم بذلك، فيقول له جاره: ما فعلت ذلك ولكن رأيتني على المعاصي فلم تزجرني، فيؤمر به وبصاحبه إلى النار أو يغفر لهما، وما من عبد مسلم أو أمة مسلمة حفظ جاره، وأمره بالمعروف ونهاه

---

(١) ابن الجوزي، بستان الواعظين، ص٦٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٦١.

عن المنكر، إلا جوزه الله تبارك وتعالى على الصراط قبل العباد بخمسمائة عام»[1].

ثم يحبسون على القنطرة السابعة، يسألون عن الصدق، فمن حفظ لسانه من الكذب نجا من الصراط ونجا من النار، وصار إلى الجنة مع الأبرار، ومن كذب، فقد خالف الكتاب والسنة، وحرم نعيم الجنة. روي عن النبي ﷺ قال: «إذا كذب المؤمن كذبة من غير عذر تباعد منه الملكان مسيرة سنة من نتن ما جاء به، وكتب الله تبارك وتعالى عليه بكذبه ثمانين خطيئة أقلها مثل جبل أُحُد. الكذب نفاق، والكذب من الكبائر، وإذا استحلّ العبد الكذب فقد استحلّ المحارم كلها، وإذا لم يستحل العبد الكذب، لم يقدر أن يباشر شيئاً من محارم الله، وإن الصادق إذا جاء إلى الصراط سبقه نور وجهه بمئة عام، ومن صدق عمل بكتاب الله واتّبع سنّة رسول الله ﷺ، والصادق أسرع جوازاً على الصراط، وأسرع الناس دخولاً إلى الجنة، والكاذب في أول قدم يضعها على الصراط يهوي في النار، فلا ينجو من الجسر السابع وهو أصعبها إلا من صدق ويهلك من كذب. جعلنا الله وإياكم برحمته ممن صدق فنجا»[2].

وفي بعض الأخبار أن الصادق يجوز على الصراط وهو لا يشعر به ولا بهوله.

---

(١) ابن الجوزي، بستان الواعظين، ص٦٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٦٣.

٢ ـ مصير أهل الطاعات:

أ ـ خير زاد:

ثم أن السعادة الأبدية قالت: أيها القوم إن ما سمعتموه صفة أهل العصيان والشقاق، وأحوال ذوي العقوق والنفاق، وكسبة الآثام، وحملة الأوزار، ومن اتخذ إلهه هواه وتنكب عن طاعة مولاه.

وأما أهل الطاعة والانقياد، والتقى والسداد، والهدى والرشاد، عباد الله المخلصون، وأولياؤه المقربون وذوو طاعته المنتجبون، الذين أظمأوا بالصيام هواجر الأيام، وتحنكوا البرانس في ظلم الحنادس، وجانبوا أطائب الطعام، وهجروا لذّة المنام، وهم الذين يحبهم ويحبونه، أذلّة على المؤمنين، أعزّة على الكافرين، لا يخافون في الله لومة لائم، فقد جعل لهم الدنيا دار غربة، ومنزل كربة، وسجن هم، ومحل وحشة، وقلعة بلاء، يترددون بها أذلاء خاشعين، يخافون أن تتخطفهم الناس من فوقهم ومن أسفل منهم، لا يدفعون ضيماً، ولا ينالون من عدو نيلاً، قنعوا من جلائل نعمها باليسير ورضوا من أخس ملاذها بالحقير، ورأوا أن الله تعالى حقرها فرفضوها، وأبغضها فنبذوها، ومذ عرف منهم خالقهم صدق النية وثبات العزم، صنع بهم على ما أوضحه سيد الحكماء: «بأن ناجاهم في فكرهم، وكلّمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأسماع والأبصار والأفئدة... حتى كانوا يرون ما لا يرى الناس، ويسمعون ما لا يسمعون، فلو

مثلتهم لعقلك في مقاومهم المحمودة ومجالسهم المشهودة، وقد نشروا دواوين أعمالهم وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كل صغيرة وكبيرة أمروا بها، فقصروا عنها أو نهوا عنها، ففرطوا فيها فحملوا ثقل أوزارهم على ظهورهم، وضعفوا عن الاستقلال بها، فنشجوا نشيجاً وتجاوبوا نحيبا. يعجون إلى ربهم من مقاوم ندم واعتراف، لرأيت أعلام هدى ومصابيح دجى، قد حفّت بهم الملائكة، وتنزّلت عليهم السكينة، وفتحت لهم أبواب السماء، يتنسمون بدعائه روح التجاوز... قد جرح طول الأسى قلوبهم، وطول البكاء عيونهم. وأما الآخرة فأثابهم بدل ضنكهم وبؤسهم، وأعطاهم عوض زهدهم ونسكهم داراً اصطفاها لنفسه، ظللها عرشه، ونورها بهجته، وزوارها ملائكته، ورفقاؤها رسله»[1].

ب ـ خير دار:

«فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها، لعَزَفَت نفسك من بدائع ما أخرج إلى الدنيا من شهواتها ولذاتها وزخارف مناظرها، ولذهلت بالفكر في اصطفاق أشجار غيبت عروقها في كثبان المسك على سواحل أنهارها، وفي تعليق كبائس اللؤلؤ الرطب في عساليجها وأفنانها، وطلوع تلك الثمار مختلفة في غلف أكمامها، تجنى من غير تكلف فتأتي على منية مجتنيها، ويطاف على نزالها في أفنية قصورها بالأعسال المصفقة والخمور المروقة، قوم لم تزل الكرامة تتمادى بهم

(١) نهج البلاغة، ص٤٨٥، ٣٩٤.

حتى حلّوا دار القرار، وأمنوا نقلة الأسفار، في قباب شاهقة، وقصور شامخة، من الياقوت الأحمر والأخضر، والأبيض والأصفر، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبقري الأحمر، وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان منها من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض، وما كان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالرياش الأصفر، مبثوثة مطرزة بالزمرد الأخضر، والفضة البيضاء، والذهب الأحمر، قواعدها وأركانها من الجوهر، على باب كل قصر من تلك القصور جنتان مدهامتان، فيهما عينان نضاختان، وفيهما من كل فاكهة زوجان، ونجائب مجبولة من الياقوت، مزمومة بسلاسل من ذهب كأن وجوهها المصابيح نضارة، ذلل من غير مهله نجباء من غير رياضة، عليها رحال ألوانها من الدر والياقوت، المفضضة باللؤلؤ والمرجان، صفائحها من الذهب الأحمر ملبسة بالعبقري والأرجوان، يمتطون كواهلها ويركبون ظهورها، صفاً واحداً معتدلاً على الجبار يفدون وإليه يهرعون، فإذا وقفت بهم النجائب في باب رحمته ومنازل كرامته قالوا: ربنا أنت السلام ولك يحق الجلال والإكرام، فيقول جلّ جلاله: مرحباً بعبادي الذين حفظوا وصيتي ورعوا حقي وكانوا مني على كل حال مشفقين، قالوا: أما وعزتك وجلالك ما قدرناك حق قدرك، وما أدينا إلينا كل حقك، فأذن لنا بالسجود، قال لهم ربهم: إني وضعت عنكم مؤنة العبادة، وأرحت عليكم أبدانكم، وطالما نصبتم لي الأبدان، وعنيتم

لي الوجوه، فالآن أفضيتم إلى روحي ورحمتي فاسألوني ما شئتم وتمنّوا عليّ أعطكم أمانيكم، فإني لن أجزيكم اليوم بأعمالكم، ولكن برحمتي وكرامتي، وطولي وارتفاعي في مكاني، وعظم شأني، فعندها تنبعث منهم الأماني، وتفيض عليها من جانب الفياض المواهب، وتطفح العطايا الجزيلة، والجوائز السنية، فلا يزال ترفع أقدارهم في العطايا والمواهب، حتى أن المقصر منهم ليتمنى في أمنيته مثل جميع الدنيا منذ خلقها الله تعالى إلى يوم أفناها، فيقول لهم ربهم قد قصرتم في أمانيكم ورضيتم بدون ما يحق لكم فيرجعون وقد استقبلتهم الملائكة ومعهم النوق والبراذين[1] والحلي والحلل، فيقولون للرجل منهم: اركب ما شئت والبس ما شئت وسل ما شئت، فيركب على ناقة أو برذون من نور، وثيابه من نور وحليته من نور، يسير في دار النور معه ملائكة من نور، وغلمان من نور، ووصائف من نور، حتى تهابه الملائكة مما يرون من النور، فيقول بعضهم لبعض: تنحوا فقد جاء وفد الحليم الغفور، فينظر إلى أول قصر له مشرقاً بالدر والياقوت، فتشرف عليه أزواجه فيقلن: مرحباً مرحباً أنزل بنا، فَيهمّ أن ينزل بقصره، فتقول الملائكة: سر يا ولي الله فإن هذا لك وغيره، حتى ينتهي إلى قصر من ذهب مكلّل بالدر والياقوت، فتشرف عليه أزواجه فيقلن: مرحباً مرحباً يا ولي الله أنزل بنا، فَيهمّ أن ينزل فتقول الملائكة: سر يا ولي الله فإن

---

(١) البرذون: نوع من الدواب السريع الخفيف. (العباب الزاخر واللباب الفاخر).

هذا لك وغيره، ثم يأتي قصراً من ياقوت أحمر مكللاً بالدر والياقوت، فَيهمُّ بالنزول بقصره فتقول الملائكة: سر يا ولي الله فإن هذا لك وغيره، فيسير حتى يأتي تمام ألف قصر، كل ذلك ينفذ فيها بصره، ويسير في ملكه أسرع من طرف العين، ثم يأتي قصراً يرى ظاهره من باطنه، وباطنه من ظاهره، لبنة من فضة، ولبنة من ذهب، ولبنة ياقوت، ولبنة در، بلاطه المسك، قد شرف بشرف من نور يتلألأ، ثم أنه لتشرف عليه الحوراء من سجفها، وقد ملأت قصوره ومنازله ضوءاً ونوراً، فيظن أن ربه أشرف عليه أو ملك من ملائكته، فيرفع رأسه فإذا هو بزوجه، قد كاد يذهب نورها نور عينيه، فتناديه: قد آن أن تكون لنا منك دوله؟ فيقول لها: ومن أنتِ؟ فتقول أنا ممن ذكر الله في القرآن: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[1]. ثم تشرف عليه أخرى أحسن وجهاً، وأطيب ريحاً فتناديه: قد آن أن تكون لنا منك دولة؟ فيقول: من أنتِ؟ فتقول: أنا ممن ذكر الله في القرآن: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2]»[3].

ج ـ تفاخر السعادة الأبدية بأهل الطاعات:

ثم أن السعادة الأبدية استخفها الطرب، ومالت بها النشوة، ونالت منها الصبوة، وقام وقعد بها الارتياح، وأتهم وأنجد في صدرها

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٥.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٧.

(٣) راجع: المفيد، الاختصاص، ص٣٤٨، ابن طاووس، سعد السعود، ص١١٠.

الانشراح، وسمت لها باسقات المسرة، وخفت بها قوادم الأفراح، وبزغت في سماء جذلها دراري الأنس، وتبلج فلق الأصباح، حين ذكرت الجنة ولذاتها، وزخارفها وبهجاتها، ونعيمها وطيباتها، ومنازلها وقصورها، وولدانها وحورها، وأعسالها وخمورها، وأشجارها وطيورها، فحملها ذلك على التغلغل في منطقها، وترك جداوله على تدفقها، وأوسعت في وصف الجنان مجال الإيضاح، واستمطرت من الازدياد في نعتها كل عارض دلاح، وأبعدت للمستمع غاية البيان، وحلّت لطلبها معتقلات اللسان، وأطلقت لها العنان، ولظتها[1] على إسراع العدو، واشتداد الجري في حلبات الميدان، ووقفت مطلة على الجمع، مشرفة منهم على فجوات خروق السمع، مسمعة بندائها أقصاهم وأدناهم، ومستنفرة بصوتها أولهم وآخرهم، تدعو منهم أهل الأعمال الصالحة، والألباب الراجحة، الذين أنحلوا الجسوم، وأذابوا الشحوم، وأعرقوا العظام، ودهدهوا اللحوم في خدمة الملك الحي القيوم، تناديهم بالأوصاف التي وصفهم الله بها في كتابه، ونبّه الله على جلالتها وعظم شأنها في محكمات آياته وواضح بيناته.

فقالت: أين أهل الدراية والحجى؟ أين ذوو الألباب والنهى؟ أين مخالفو النفس والهوى؟ أين مجانبو الضلالة والغوى؟ أين السالكون سبل الرشاد والهدى؟ أين المدرعون حنادس الليل والدجى؟ أين أهل

---

(١) لظتها: ألحّت عليها للإسراع في المشي. (تاج العروس).

الإنفاق والإيثار؟ أين أهل التفكّر والاعتبار، والأدعية والأذكار؟ أين الذين كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وفي الأسحار هم يستغفرون، و﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾[1]؟ أين ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[2]؟ أين ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾[3]؟ أين ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾[4]؟ أين المخبتون ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾[5]؟ أين ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾[6] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾[7]؟ أين ﴿ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾[8] ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾[9]؟ أين الذين ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾[10]؟ أين ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي

---

(١) سورة المعارج، الآيتان: ٢٤ و٢٥.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٧٢.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٧٣.
(٥) سورة الحج، الآية: ٣٥.
(٦) سورة المؤمنون، الآية: ٥.
(٧) سورة المؤمنون، الآيتان: ٨ و٩.
(٨) سورة المؤمنون، الآية ٥٧.
(٩) سورة المؤمنون، الآية ٦٠.
(١٠) سورة السجدة، الآية: ١٦.

بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1]؟ وأين الذين ﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[2]؟ أين ﴿مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾[3]؟ أين القانتون والقانتات؟ أين الصادقون والصادقات؟ أين الصابرون والصابرات؟ أين الخاشعون والخاشعات؟ أين المتصدقون والمتصدقات؟ أين الصائمون والصائمات؟ أين الحافظون فروجهم والحافظات؟ أين الذاكرون الله كثيراً والذاكرات؟ أين التائبون العابدون؟ أين الحامدون السائحون؟ أين الراكعون الساجدون؟ أين الآمرون بالمعروف والنّاهون عن المنكر والحافظون لحدود الله؟ أين الخائفون الراجون؟ أين الراغبون الشاكرون؟ أين المطيعون؟ أين المريدون؟ أين المحبون؟ أين المتوسلون؟ أين المفتقرون؟ أين العارفون؟ أين الذاكرون؟ أين المعتصمون؟ أين الزاهدون؟.

فما زالت تندب أهل هذه الأخلاق الكريمة، والمآثر العظيمة، والصفات الجليلة، والنعوت الجميلة، حتى لولا ضيق المجال، ومراعاة مقتضى الحال، لكادت أن تستغرق أكثرها، وتأتي على جلها، لكنها ثنت إلى الإيجاز أعناق الكلام، والاختصار ملك على سوابق المنطق كل مقود زمام، وقالت:

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

(٣) سورة النازعات، الآية: ٤٠.

هلموا أتلُ عليكم ما أعده في الآخرة ربكم لكم، وتفضّل به الهكم عليكم، وجعله جزاء لأعمالكم، وثواباً لطاعاتكم، وأجراً لعباداتكم، وبدلاً عن تقشفكم، وعوضاً عن زهدكم، فوالله الذي لا رب غيره ولا منعم سواه، لأروين لكم في ذلك عن نبيكم خبراً هو خير لكم مما طلعت عليه الشمس، ولأتحفنكم بحديث هو أغلى من المهج وأنفس من النفس، ولو رعيتموه حق رعايته وحفظتموه حق حفظه، وأديتم شكره لخرجتم من الأهل والأولاد والذخائر والأموال، وهجرتم له الطيبات، وجفوتم لابتغاء نيله أشرف اللذات، وآثرتم في خدمة مولاكم الجد والاجتهاد، ولبستم لامة التأهب والاستعداد، وادرعتم الحنادس، وتحنكتم البرانس، وقصرتم عليه المجالس، وعفتم كل أخضر ويابس، وصرتم من العبادة كالقوس المحنية، والسهام المبرية، وتبتّلتم إلى الله طمعاً به تبتّل الرهبان في صوامعها والعبّاد في جوامعها، وجأرتم[1] شوقاً إليه جأر الوله الثاكلات، وعججتم إلى ربكم للوصول إليه عجيج البزل[*] الدابرات، وضججتم للهجوم عليه ضجيج ذي المياسم المحماة، وحننتم للتقلب في نعيمه حنين الفصيل لأمه، ثم قالت: أيها الجمع واللفيف ومن كثر منهم الحفيف والرفيف، إني أرشدكم لحكمة هي أس الخيرات، ومنبع الكمالات وعليها تدور أرحية العمل، وبمراعاتها يكثر من الكمال العل[2] والنهل، وهي أنه: إذا تليت عليكم الحكم فانصتوا، وإذا أنصتم فاستمعوا، وإذا استمعتم فعوا، وإذا وعيتم

---

(١) جأر الداعي إلى الله: ضج ورفع صوته. (أساس البلاغة).

(*) البزل: جمع بازل وهو البعير إذا انشق نابه وذلك إنما يكون في السنة التاسعة. (تاج العروس).

(٢) العل والعلل، الشربة الثانية. يقال عللٌ بعد نهلٍ. (لسان العرب).

فاحفظوا، وإذا حفظتم فتفكروا، وإذا تفكرتم فاعتبروا، وإذا اعتبرتم فاعملوا، وإذا عملتم فأخلصوا، ألا وإن الإخلاص هو الإكسير الأعظم والكبريت الأحمر، فاطلبوه ولو بين سوق الأشجار وألحيتها، أو باعتراض صدور الأرماح وأسنتها، وابذلوا له المهج وخوضوا دونه اللجج، أو ما سمعتم قول الله جلّ جلاله: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[1]، وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[3] ولقد ضرب الله للناس ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[4] فمن الأمثال التي ضربها الله لهذه الحال، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5]، فإذا أدمنتم على هذا المنهاج واستضأتم بشعاع هذا السراج، فقد صقلتم الزجاج، وأقمتم الإعوجاج، ولأمتم الصدع، ولحمتم الانفراج، وخلصتم من الدنس، وطبتم من الرجس، وأصبحتم أهلاً للتقلب في هذا النعيم، والفوز بهذا الأمر العظيم، لأن الله جلّ جلاله «خلق النار لمن عصاه ولو كان سيداً قرشياً والجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً»[6].

---

(١) سورة الزمر، الآيتان: ٢ و٣.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨ و٨٩.

(٣) سورة البينة، الآية: ٥.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٢٧.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٢٩.

(٦) الحديث ورد في كلام الإمام زين العابدين عليه السلام. (الصحيفة السجادية، ص١٧٧).

وأما الحديث الذي أشرنا إليه ووعدنا بإيراده فهو: «قال رسول الله ﷺ قال لي جبرائيل عليه السلام: قد أمرت الجنة والنار أن تعرضا عليك، قال: فرأيت الجنة وما فيها من النعيم، ورأيت النار وما فيها من العذاب، والجنة فيها ثمانية أبواب، على كل باب منها أربع كلمات، كل كلمة خير من الدنيا وما فيها، لمن يعلم ويعمل بها. وللنار سبعة أبواب على كل باب منها ثلاث كلمات، كل كلمة منها خير من الدنيا وما فيها، لمن يعلم ويعمل بها. فقال له جبرائيل عليه السلام: اقرأ يا محمد ما على الأبواب، فقرأت ذلك».

د ـ الجنة، أبوابها وصفاتها:

«أما أبواب الجنة:

ـ فعلى أول باب منها مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي وليّ الله، لكل شيء حيلة، وحيلة العيش أربع خصال: القناعة، وبذل الحق، وترك الحقد، ومجالسة أهل الخير.

ـ وعلى الباب الثاني مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله عليّ وليّ الله، لكل شيء حيلة، وحيلة السرور في الآخرة أربع خصال: مسح رؤوس اليتامى، والتعطف على الأرامل، والسعي في حوائج المؤمنين، والتفقّد للفقراء والمساكين.

ـ وعلى الباب الثالث مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي وليّ الله، لكل شيء حيلة، وحيلة الصحة في الدنيا أربع خصال: قلّة الكلام، وقلّة المنام، وقلّة المشي، وقلّة الطعام.

ـ وعلى الباب الرابع مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله عليّ وليّ الله، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم والديه، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو يسكت.

ـ وعلى الباب الخامس مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله وعلي وليّ الله، من أراد أن لا يُظلم فلا يَظلم، ومن أراد أن لا يُشتم فلا يشتم، ومن أراد أن لا يُذل فلا يَذل، من أراد أن يتمسك بالعروة الوثقى في الدنيا والآخرة فليقل: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي وليّ الله.

ـ وعلى الباب السادس مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي وليّ الله، من أراد أن يكون قبره واسعاً فسيحاً فليبن المساجد، ومن أراد أن لا تأكله الديدان تحت الأرض، فليسكن المساجد، ومن أراد أن يكون طرياً مطراً لا يبلى فليسكن المساجد، ومن أراد أن يرى موضعه في الجنة، فليسكن المساجد بالبسط.

ـ وعلى الباب السابع مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي وليّ الله، بياض القلب في أربع خصال: عيادة المريض، واتباع الجنائز، وشراء الاكفان، ورد القرض.

ـ وعلى الباب الثامن مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي وليّ الله، من أراد الدخول من هذه الأبواب فليتمسك بأربع خصال: السخاء، وحسن الخلق، والصدقة، والكف عن أذى عباد الله.

ورأيت على أبواب النار مكتوباً:

ـ على الباب الأول ثلاث كلمات: من رجا الله سعد، ومن خاف الله أمن، والهالك المغرور من رجا غير الله وخاف سواه.

ـ وعلى الباب الثاني مكتوب: من أراد أن لا يكون يوم القيامة جائعاً، فليطعم البطون الجائعة في الدنيا، ومن أراد أن لا يكون عريان يوم القيامة، فليكس الجلود العارية في الدنيا، ومن أراد أن لا يكون عطشان يوم القيامة، فليسق العطاشى في الدنيا.

ـ وعلى الباب الثالث مكتوب: لعن الله الكاذبين، لعن الله الباخلين، لعن الله الظالمين.

ـ وعلى الباب الرابع مكتوب ثلاث كلمات: أذل الله من أهان الإسلام، أذل الله من أهان أهل البيت، أذل الله من أعان الظالمين على ظلمهم للمخلوقين.

ـ وعلى الباب الخامس مكتوب ثلاث كلمات: لا تتبع الهوى فالهوى يخالف الإيمان، ولا تكثر منطقك في ما لا يعنيك فتسقط من رحمة الله، ولا تكن عوناً للظالمين.

ـ وعلى الباب السادس مكتوب: أنا حرام على المجتهدين، أنا حرام على المتصدقين، أنا حرام على الصائمين.

وعلى الباب السابع مكتوب ثلاث كلمات: حاسبوا أنفسكم قبل أن

تحاسبوا، ووبخوا نفوسكم قبل أن توبخوا، وادعوا الله عزّ وجلّ قبل أن تردوا عليه، ولا تقدروا على ذلك»[1].

وعن الكافي: «عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله سئل عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾[2]، قال: يا عليّ إن الوفد لا يكونون إلا ركباناً، أولئك رجال اتقوا الله فأحبهم الله عزّ ذكره، واختصهم ورضي أعمالهم فسماهم المتقين، ثم قال له: يا عليّ أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إنهم ليخرجون من قبورهم، وإنَّ الملائكة لتستقبلهم بنوق من نوق الغر عليها رحائل الذهب، مكللة بالدر والياقوت، وجلائلها الإستبرق والسندس، وخطمها جدل الأرجوان، تطير بهم إلى المحشر، مع كل رجل منهم ألف ملك من قدامه وعن يمينه وعن شماله، يزفونهم زفاً حتى ينتهوا بهم إلى باب الجنة الأعظم، وعلى باب الجنة شجرة، إن الورقة منها تظلل ألف رجل من الناس، وعن يمين الشجرة عين مطهرة مزكية فيسقون منها شربة، فيطهر الله بها قلوبهم من الحسد، ويسقط عن أبشارهم الشعر، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[3]. من تلك العين المطهرة. قال: ثم ينصرفون إلى عين أخرى عن يسار الشجرة، فيغتسلون فيها، وهي عين الحياة فلا يموتون أبداً، قال: ثم يوقف بهم قدام العرش، وقد سلموا من الآفات والأسقام، والحر والبرد أبداً،

---

(١) شاذان بن جبرائيل القمي، الفضائل، ص١٥٢.

(٢) سورة مريم، الآية: ٨٥.

(٣) سورة الإنسان، الآية: ٢١.

قال: فيقول الجبار جلّ ذكره للملائكة الذين معهم: احشروا أوليائي إلى الجنة، ولا توقفوهم مع الخلائق فقد سبق رضاي عنهم ووجبت رحمتي لهم، وكيف أريد أن أوقفهم مع أصحاب الحسنات والسيئات. قال: فتسوقهم الملائكة إلى الجنة، فإذا انتهوا بهم إلى باب الجنة الأعظم، ضرب الملائكة الحلقة ضربة تصر صريراً، يبلغ صوت صريرها كل حوراء أعدها الله عزّ وجلّ لأوليائه في الجنان، فيتباشرون بهم إذا سمعوا صرير الحلقة، فيقول بعضهن لبعض: قد جاءنا أولياء الله، فيفتح لهم الباب، فيدخلون الجنة، وتشرف عليهم أزواجهم من الحور العين والآدميين فيقلن: مرحبا بكم، فما كان أشد شوقنا إليكم، ويقول لهن أولياء الله مثل ذلك.

فقال علي عليه السلام: يا رسول الله أخبرنا عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾[1]، بماذا بنيت يا رسول الله؟ فقال: يا علي تلك غرف بناها الله عزّ وجلّ لأوليائه بالدر والياقوت والزبرجد، سقوفها الذهب محبوكة بالفضة، لكل غرفة منها ألف باب من ذهب، على كل باب منها ملك موكل به، فيها فرش مرفوعة بعضها فوق بعض من الحرير والديباج بألوان مختلفة، وحشوها المسك والكافور والعنبر، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾[2]. إذا أدخل المؤمن إلى منازله في الجنة، وضع على رأسه تاج الملك والكرامة، وألبس حلل

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الواقعة، الآية: ٣٤.

الذهب والفضة والياقوت والدر منظوم في الأكاليل تحت التاج. قال: وألبس سبعين حلة حرير بألوان مختلفة وضروب مختلفة منسوجة بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت الأحمر، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[1]. فإذا جلس المؤمن على سريره اهتز سريره فرحاً، فإذا استقرت لولي الله عزّ وجلّ منازله في الجنان، استأذن عليه الملك الموكل بجنانه ليهنئه بكرامة الله عزّ وجل إياه، فيقول له خدام المؤمن من الوصفاء، مكانك فإن ولي الله قد اتكأ على أريكته، وزوجته الحوراء تهيأ له، فاصبر لولي الله. قال: فتخرج عليه زوجته الحوراء من خيمة لها، تمشي مقبلة وحولها وصائفها وعليها سبعون حلة منسوجة بالياقوت واللؤلؤ والزبرجد، وهي من مسك وعنبر وعلى رأسها تاج الكرامة وعليها نعلان من ذهب مكللتان بالياقوت واللؤلؤ، شراكهما ياقوت أحمر، فإذا دنت من ولي الله فَهَمّ أن يقوم إليها شوقاً فتقول له: يا ولي الله ليس هذا يوم تعب ولا نصب، فلا تقم، أنا لك وأنت لي، فيعتنقان مقدار خمسمائة عام من أعوام الدنيا لا يملها ولا تمله. قال: فإذا فتر بعض الفتور من غير ملالة نظر إلى عنقها، فإذا عليها قلائد من قصب من ياقوت أحمر، وسطها لوح صفحته درة مكتوب فيها: يا ولي الله أنت حبيبي وأنا الحوراء حبيبتك، إليك تناهت نفسي وإلي تناهت نفسك، ثم يبعث الله إليه ألف ملك يهنئونه بالجنة ويزوجونه بالحوراء. قال:

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٣.

فينتهون إلى أول باب من جنانه فيقولون للملك الموكل بأبواب جنانه: استأذن لنا على ولي الله فإن الله بعثنا إليه نهنئه، فيقول لهم الملك: حتى أقول للحاجب فيعلمه بمكانكم، قال: فيدخل الملك إلى الحاجب، وبينه وبين الحاجب ثلاث جنان حتى ينتهي إلى أول باب فيقول للحاجب: إن على باب الجنة ألف ملك أرسلهم رب العالمين تبارك وتعالى ليهنئوا ولي الله، وقد سألوني أن آذن لهم عليه، فيقول: إنه ليعظم علي أن أستأذن لأحد على ولي الله وهو مع زوجته الحوراء، قال: وبين ولي الله وبين الحاجب جنتان. قال: فيدخل الحاجب إلى القيّم، فيقول له: إن على باب العرصة ألف ملك أرسلهم رب العالمين يهنئون ولي الله فاستأذن، فتقدم القيّم إلى الخدام فيقول لهم: إن رسل الجبار على باب العرصة وهم ألف ملك أرسلهم الله يهنئون ولي الله فأعلموه بمكانهم، قال: فيعلمونه فيأذن للملائكة، فيدخلون على ولي الله وهو في الغرفة، ولها ألف باب، وعلى كل باب من أبوابها ملك موكل به، فإذا أذن للملائكة بالدخول على ولي الله، فتح كل ملك بابه الموكل به، فيدخل القيم كل ملك من باب من أبواب الغرفة. قال: فيسلمونه رسالة الجبار عزّ وجل، وذلك قول الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[1]. قال: وذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا﴾[2]. يعني بذلك ولي الله، وما هو فيه من الكرامة والنعيم، والملك العظيم الكبير، إن الملائكة من رسل الله عزّ وجل

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٢٠.

يستأذنون عليه فلا يدخلون عليه إلا بإذنه، فلذلك الملك العظيم الكبير. قال: والأنهار تجري من تحت مساكنهم وذلك قول الله عز وجل: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[1]. والثمار دانية منهم، وهو قوله عز وجل: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾[2]. من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذي يشتهيه من الثمار بفيه وهو متكئ، وإن الأنواع من الفاكهة ليقلن لولي الله: يا ولي الله كلني قبل أن تأكل هذا قبلي.

قال: وليس من مؤمن في الجنة إلا وله جنان كثيرة معروشات وغير معروشات، وأنهار من خمر، وأنهار من ماء، وأنهار من لبن، وأنهار من عسل، فإذا دعا ولي الله بغذائه أتي بما تشتهي نفسه عند طلبه الغذاء من غير أن يسمي شهوته. قال: ثم يختلي مع إخوانه ويزور بعضهم بعضاً ويتنعمون في جنات في ظل ممدود في مثل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، لكل مؤمن سبعون زوجة حوراء، وأربع نسوة من الآدميين، والمؤمن ساعة مع الحوراء، وساعة مع الآدمية، وساعة يخلو بنفسه على الأرائك متكئاً، ينظر بعض المؤمنين إلى بعض، وإن المؤمن ليغشاه شعاع نور وهو على أريكته ويقول لخدامه: ما هذا الشعاع اللامع لعل الجبار لحظني؟ فيقول له خدامه: قدوس قدوس جل جلاله بل هذه حوراء من نسائك ممن لم تدخل بها بعد أشرقت عليك من خيمتها شوقاً إليك، وقد تعرضت لك وأحبت لقائك، فلما أن رأتك متكأً على سريرك تبسمت نحوك شوقاً إليك، فالشعاع الذي رأيت،

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٣١.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ١٤.

والنور الذي غشيك، هو من بياض ثغرها وصفائه ونقائه ورقته. فيقول ولي الله: ائذنوا لها فتنزل إلي، فيبتدر إليها ألف وصيف وألف وصيفة، يبشرونها بذلك، فتنزل إليه من خيمتها وعليها سبعون حلة منسوجة بالذهب والفضة، مكللة بالدر والياقوت والزبرجد، صبغهن من المسك والعنبر بألوان مختلفة، يرى مخ ساقها من وراء سبعين حلة، طولها سبعون ذراعاً، وعرض ما بين منكبيها عشرة أذرع، فإذا دنت من ولي الله أقبل الخدام بصحاف الذهب والفضة فيها الدر والياقوت والزبرجد فينثرونها عليها، ثم يعانقها وتعانقه، فلا يمل ولا تمل.

قال: ثم قال أبو جعفر عليه السلام: أما الجنان المذكورة في الكتاب فإنها: جنة عدن، وجنة الفردوس، وجنة نعيم، وجنة المأوى. قال: وإن لله عز وجل جناناً محفوفة بهذه الجنان، وإن المؤمن يكون له من الجنان ما أحب واشتهى، يتنعم فيهن كيف شاء، وإذا أراد المؤمن شيئاً إنما دعواه فيها إذا أراد أن يقول: سبحانك اللهم، فإذا قالها تبادرت إليه الخدم بما اشتهى من غير أن يكون طلبه منهم أو أمر به، وذلك قول الله عز وجل: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]»[2].

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٠.

(٢) الكليني، الكافي، ص٩٦.

جنود العقل
تهاجم جنود الجهل

السعادة الأبدية والهجوم على الأمارة والجهل

ثم أن السعادة الأبدية أطلقت أعنة سوابق الكلام نحو الأمارة والجهل، مقرعة لهما، ومسفهة أحلامهما، بما دعوا إليه وحرضا عليه: تباً لكما من منتكستين في غوايتكما وترحاً، لقد ضلّ سعيكما وطاش سهمكما إن الفوز بمثل هذا النعيم لهو الغاية القصوى والفوز العظيم، والتقلب في أرياف هذه الجنات لهو أكبر اللذات وأنعم الطيبات، ولمثله فليعمل العاملون وليجد المجتهدون، ولمثله فلتدم أقدامَها في مذاهب الطلب المشتاقون، وبه فليتنافس المتنافسون. لا ما تندبان إليه وتحثان عليه من أصواف النعم الهامِله، وأوبار الإبل الساهمة، وأشعار التيوس السائمة، وكرابيس القطن الناعمة، وما تنبت الأرض من الحشائش الخضرة والبقول النضرة، التي في لذتها اشترك الرباني من نوع هذا الإنسان مع صامتي البهائم ومبلدات الحيوان، بينما المرء يتلقفها نضره خضرة، إذ يلفظها جيفة منتنة قذرة، تنفر منها الطباع، وتصم عن ذكرها الأسماع.

هذي المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا؟[1]

فقبحاً لكما وتعساً لجدكما، رغباً في ما به يحق الترغيب، وحرصاً على الفوز بجلائل هذه النعم، ونيل الرغائب من هذا الأمر العجيب، فورب السماء إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون، فاعلما أيها المرتكسان في ظلم الغي والمبلسان في حيرة الضلالة، أن الجنان لا يدرك نعيمها بالوصف، ولا يبلغ حقيقتها القول، ولا نهاية لأمدها، ولا انقطاع للذاتها، وهي درجات مختلفة، ومراتب متفاوتة، قد تقاسمتها العباد بطيب أعمالها، ومحاسن أفعالها، وكرائم أخلاقها، وسوابقها وفضائلها، وبرها وفواضلها، وشكرها وصبرها، وتسبيحها وذكرها، وعلمها وعملها، ومعرفتها ويقينها، وبكائها وحنينها، وأعوالها ورنينها. ومذ اختلفت مراتب أعمالهم وتفاوتت درجات معرفتهم. تفاوتت في الجنان مراتبهم، واختلفت في النعيم مقاومهم، ولذلك اختلفت أوصافهم، وتعددت أصنافهم، فمنهم المتقون، ومنهم المخلصون، ومنهم الصابرون، ومنهم الصادقون، ومنهم المستقيمون، ومنهم المقربون، ومنهم أصحاب اليمين، ومنهم الأبرون، ومنهم الخائفون، إلى غير ذلك من الألقاب التي لا يسع بيانها، والسر في اختلاف الألقاب مع أن أغلب هذه الصفات لا بد أن تكون مع كل صنف، كون تلك الصفة أظهر الأوصاف المتلبّس بها، وأشدها لصوقاً بصاحبها، أما

---

(١) أمية بن أبي السلط (ت. ٥هـ/ ٦٧٠م). وذكر في ديوانه النابغة الذبياني، وديوان ليلى الأخيلية. (وردت تلك المكارم بدل: هذي المكارم). (موسوعة الشعر العربي).

المتقون فقد سمعتم من صفة نعيمهم ما يذهل الألباب ويدهش العقول، وقد تكثرت الآيات في الكتاب بصفة نعيم كل هذه الألقاب، فمنها في نعيم المتقين قال جلّ وعلا: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[1]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ * فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾[2] ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات التي لا يسع المقام ذكرها، فكيف الأخبار الواردة لشرحها وتفصيلها، وقد نبه الله سبحانه في جملة من الآيات على الأسباب التي تجلب لصاحبها صفة التقوى، وتحدث له عند الله القرب والزلفى، وضيق المقام يمنع عن الكشف والبيان، وأما المخلصون ففي وصف نعيمهم قال جلّ جلاله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ * بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ * وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٥.

(٢) سورة الطور، الآيات: ١٧ إلى ٢٠.

(٣) سورة الطور، الآيات: ٢٢ إلى ٢٤.

لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ * قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾[1].

وأما الصابرون، فنبه على نعيمهم بقوله جلّ جلاله: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[2].

وأما الصادقون، ففي صفة ما بلغوه من الدرجات العالية قال عزّ وجلّ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3].

وأما الذين استقاموا على منهاج الطاعة، وثبتوا على مراكز الخدمة، لا تنتضل[4] هممهم خدائع الشهوات، ولا تميل بهم عن مراقبة أنفسهم الغفلات، قال الله عزّ وجلّ في حقهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ٤١ إلى ٦١.

(٢) سورة الرعد، الآيات: ٢١ إلى ٢٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٩.

(٤) لا تنتضل: لا تذهب سريعاً. (لسان العرب).

كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[1].

وأما المقربون، فلقد قال جلّ جلاله في مدحهم ونعت نعيمهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * . . . * عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ * جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾[2].

وأما أصحاب اليمين، فقد أحلهم الله من النعيم: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾[3].

وأما الأبرار، فإنهم في الجنة: ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[4]، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ * وَفِي ذَٰلِكَ

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ٣٠ إلى ٣٢.
(٢) سورة الواقعة، الآيات: ١٠ إلى ٢٦.
(٣) سورة الواقعة، الآيات: ٢٨ إلى ٣٨.
(٤) سورة الإنسان، الآيتان: ٥ و٦.

فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ * وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[1]، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾[2]. وأعرض عن زهرة دنياها.

ورمقت ببصرها الأمارة والجهل وقالت: اسمعا يا من أصمت اللذات أسماعهما، وأعمت الطيبات أبصارهما، وصرفت الشهوات بنابها، إلى ما حباه الله به من النعيم المؤبد، والملك المخلد، يتقلب في أريافه، ويمرح في أجزاعه وأخيافه، فقال عزّ من قائل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَآمَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[3].

---

(١) سورة المطففين، الآيات: ٢٣ إلى ٢٨.

(٢) سورة النازعات، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الرحمن، الآيات: ٤٦ إلى ٧٨.

ثم أن السعادة ختمت الكلام بيسير من النظم، جرياً على طريقة القوم، واقتفاء لسننهم، توبخ الأمارة به، وتقرعها بسياطه،

فأنشأت:

بفيك الثرى كم تحملين من الورى ... بواهظ آثام وأعباء أوزار
فأي يرى اللذات والرقش[1] أصبحت ... تساور منها كل زهر ونوار
أيدنو إليها يجتنيها وعندها ... موارد حتف لا تفيض بإصدار
هلمي إلى زاد يكون مبلغاً ... لدار عزيز الملك والخالق الباري
إلى جنة فيها حلا كل مطعم ... وما شيبت اللذات منها بأكدار
أعدت لمن قد خالف النفس والهوى ... ولم يجر في اللذات يوماً بمضمار
تدرع جلباب الحنادس والدجى ... ومدمعه ينهل كالعارض الجار
عصيناك يا أمارة السوء والردى ... فما لك من ناي لدينا ومزمار

أ ـ خطاب القنوع:

ثم نهض قائماً على قدميه القنوع، وهو يجر مطارف الجلالة ويرفل في أبراد الخشوع، وملك من أعواد العزة ذروتها، وركب صهوتها، وأنشد:

رأيت القناعة كنز الغنى ... فصرت بأذيالها أمتَسِكْ
وألبسني جاهها حلة ... تمر الليالي ولا تنهتكْ
فلا ذا يراني على بابه ... ولا ذا يراني به منهمكْ

(١) الرقش: من صفات الحية، حية رقشاء فيها نطقة سوداء وبيضاء. (لسان العرب).

وصـــرت غـــنـــيـــا بـــلا درهـــم أمرٌّ على الناس شبه الملكْ[1]

ثم فزع إلى كتاب الله جلّ وجلاله وتلا: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ * سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2].

ثم درج على استرساله في سنن مقاله وقال: الحمد لله الذي لم يرض هذه الدنيا جزاءً لأعدائه، ولا ثواباً لأوليائه، إهانة بها، واستحقاراً لها، واستخفافاً بشأنها، ولو كانت عنده مما تقابل لجناح بعوضة، أو يشار إليها بأنملة، لما بسطها لأعدائه، وزواها عن أوليائه الذين هم خاصته وخالصته ونخبته وصفوته.

فذا نبينا الأطيب الأطهر، منار الاهتداء، وقبس الضياء، وعلم الاقتداء، كان على ما وصفه الدارج مدرجه، والسالك منهجه، والوالج مولجه، أخوه وابن عمه عليه السلام حيث قال: «ولقد كان في رسول الله كاف لك في الأسوة، ودليل على ذم الدنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قبضت عنه أطرافها، ووطئت لغيره أكنافها، وفطم من رضاعها، وزوي من زخارفها... قضم الدنيا قضماً، ولم يعرها طرفاً،

---

(١) تنسب هذه الأبيات للإمام الشافعي. وقد وردت ثلاثة أبيات منها على الشكل التالي: رأيت القناعة رأس الغنى، بدل كنز الغنى. وممسك بدل أمتسك. البيت الثاني لم يرد. (موسوعة الشعر العربي).

(٢) سورة الحديد، الآيتان: ٢٠ و٢١.

أهضم أهل الدنيا كشحاً، وأخمصهم من الدنيا بطناً، عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها، وعلم أن الله سبحانه وتعالى أبغض شيئاً فأبغضه، وحقر شيئاً فحقره، وصغر شيئاً فصغره، وربما يكون الستر معلقاً على باب بيته فتكون فيه التصاوير، فيقول: يا فلانة ـ لإحدى زوجاته ـ غيبيه عني، فإذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها، فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها عن نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينيه لكي لا يتخذ منها رياشاً، ولا يعتقدها قراراً ولا يرجو فيها مقاماً»[1].

«وإن شئت ثنيت بموسى كليم الله، إذ يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[2]، والله ما سأله إلاّ خبزاً يأكله، لأنه كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله وتشذب لحمه»[3].

«وإن شئت تمثلت بداود صاحب المزامير وقارئ أهل الجنة، فلقد كان يعمل سفائف الخوص بيده، ويقول لجلسائه أيكم يكفيني بيعها، ويأكل قرص الشعير من ثمنها»[4].

«وقل ما شئت في عيسى بن مريم فلقد كان يتوسد الحجر، ويلبس الخشن، وكان أدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وظلاله بالشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم،

---

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ص٣٤٢، ٣٤٤.

(٢) سورة القصص، الآية: ٢٤.

(٣) من كلام للإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ص٣٤٢. صفاق: جلد.

(٤) من كلام للإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ص٣٤٣. سفائف الخوص: سعف النخيل.

ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذله، دابته رجلاه، وخادمه يداه»[1]. ولا تعد عيناك عن صاحب هذا الكلام، علم الناسكين، وإمام الزاهدين، عليّ أمير المؤمنين، فإنه قال: «ما زلت أرقع مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها عنك، فقلت: أغرب عني...»[2]، فعند الصباح يحمد القوم السرى، وكان يجعل جريش الشعير في وعاء ويختم عليه فقيل له في ذلك، فقال: إني أخاف هذين الولدين أن يجعلا فيه شيئاً من سمن أو زيت»[3].

عن سويد بن غفلة قال: «دخلت على علي بن أبي طالب عليه السلام، فوجدته جالساً وبين يديه إناء فيه لبن، أجد ريح حموضته، وفي يده رغيف، أرى قشار الشعير في وجهه، يكسره بيده، ويطرحه فيه، فقال: قلت لفضة وهي قريبة منه: ويحك يا فضة، أما تتقين الله في هذا الشيخ بنخل هذا الطعام من النخالة التي فيه، قالت: قد تقدم إلينا لا ننخل له طعاماً، قال: ما قلت لها؟ فأخبرته، فقال: بأبي وأمي من لم ينخل له طعام ولم يشبع من خبز البر ثلاثة أيام حتى قبضه الله إليه»[4]، وكان عليه السلام لا يوضع بين يديه صنفان من الطعام، ولقد صنعت ابنته يوماً ذلك معه فقال عليه السلام: «نحيه عني يا بنية، أتريدين أن يطول وقوفي بين

---

(١) من كلام الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ص٣٤٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٢٤ ص٣٨٩.

(٤) الحر العاملي، م.ن، ج٢٤ ص٣٨٩.

يدي الله»[1]. ولم يزل عليه السلام قائم الليل صائم النهار إلى أن اصطفاه إلى جواره العزيز الغفار.

ثم أن القنوع أمهل هنيئه وصاح، فاستفز بندائه الأسماع الساهية، والقلوب اللاهية، والألسن اللاغية، وصارت مشخصة أبصارها إليه، مستشرقة له، تستعجل منطقه، وتستحلب درته،

فقال:

يا من أزهرت في قلبه مصابيح الهدى، وتقشعت عن بصره غشاوات الجهل والهوى، انظر إلى أحوال ذوي النواميس الإلهية، والشرائع الربانية، بأبصار التأمل والفكر، وكر عليها مراجعاً بنظر التدبير والفهم، أترى أن الله أكرم بذلك أنبياءه أم أهانهم، فإن قال قائل أنه أهانهم كفر وكذب، وإن قال أنه أكرمهم فللقوم أيتها الخداعة الغرارة بأنبياء الله ورسوله اقتداء، لا اقتداء بفرعون وهامان ونمرود وقارون، الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، وراقت لهم بزبرجها، ودهتهم بمنظرها، وفتنتهم بزخارفها، فأوردتهم النار، وبئس الورد المورود، ويحك! أما للقوم فيما ضرب الله لها من الأمثال عبره، وانتباه من غفله، واستيقاظ من سنة.

لا قرّب الله لك داراً، ولا أنعم جواراً، ألم تعلمي أنَّ:

ملك كسرى تغني عنه كسرةٌ وعن البحر اجتزاء بالوشل

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٢ ص٢٧٦.

عيشة الزاهد في تحصيلها عيشه الجاهد بل هذا أزل[1]

فبعداً لك وسحقاً:

إذا المرء أعطى نفسه كلما اشتهت ولم ينهها تاقت إلى كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار بالذي دعته إليه من حلاوة عاجل[2]

وربما أوردته موارد ماله عنها مصادر، أو تركته للخزي مرتعاً وللذم مثابة ومجمعاً:

إذا أنت لم تترك طعاماً تحبه ولا مجلساً تدعى إليه الولائد
تجللت عاراً لا يزال يسبه سباب الرجال نثرهم والقصائد[3]

وقال الآخر:

أبيت هضيم الكشح مضطمر الحشى من الجوع أخشى الذم أن أتضلعا
وأنك مهما تعطِ بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا[4]

وقال آخر:

وإني لعف عن مطاعم جمة إذا زين الفحشاء للنفس جوعها

---

(١) ابن الوردي (٦٩١ ـ ٧٥٠هـ/ ١٢٩٢ ـ ١٣٤٩م). (موسوعة الشعر العربي). الوشل: الماء القليل. (لسان العرب). وازل: ضيق العيش. (م. ن).

(٢) البارع البغدادي (٤٤٣ ـ ٥٢٤هـ/ ١٠٥١ ـ ١١٣٠م). (موسوعة الشعر العربي).

(٣) هذا البيت لصاعد البغدادي (٣٣٥ ـ ٤١٠هـ/ ٩٤٦ ـ ١٠١٩م). (م. ن).

(٤) حاتم الطائي (ت. ٥٧٧م). وقد ورد بعض الاختلافات في الأبيات، وردت في موسوعة الشعر العربي:

أبيت خميص البطن مضطمر الحشى حياءً أخاف الذم أن أتضلّعا

لك الويل يا أمارة، ما أهداك بطرق الضلال، وأضلّك عن طرق الرشاد، فكفي إن شئت أو فكفكفي، وطولي إن شئت أو فقصري.

فما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن طعمت تاقت وإلا تسلتِ[1]

ألم تعلمي أن لذات الدنيا في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، وفي الشبهات عتاب، وإن السعداء غداً هم الذين نبذوا الشهوات، وحرموا على أنفسهم الشبهات، وجانبوا الملاذ، وهجروا الطيبات، منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم، قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قليلة، فأعقبتهم راحة طويلة، قانعة أنفسهم، منزوراً[2] أكلهم، مُرْهُ[3] العيون من البكاء، خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء:

نحف الجسوم جوىً يبس الشفاه ظمأً عمش العيون بكا ما مسها الكحل
يقال مرضى وما بالقوم من مرض أو خولطوا خبلاً حاشاهم الخبل
إن ينطقوا شكروا أو يقطعوا وصلوا أو يوزنوا رجحوا أو يحكموا عدلوا

---

(١) عمرو بن معدي كرب الزبيدي (٧٥ق.هـ ـ ٢١هـ/ ٥٤٧ ـ ٦٤٢م). ورد البيت في موسوعة الشعر العربي:
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن (أطمعت) تاقت وإلا تسلت

(٢) منزوراً: قليلاً. (لسان العرب).

(٣) مُرْه عيونهم: تبيض جفونهم لكثرة البكاء. (م.ن).

قد أخذوا بزمام قول نبيهم الأطيب الأطهر: «حسب ابن آدم لُقيمات يقمن صلبه»[1]. وتعبدوا بوصيته حيث قال: «فليكن بلْغة أحدكم من الدنيا كزاد الراحل»[2].

واقتدوا بسيرته، لأنه كان يضع حجر المجاعة على بطنه، ثم تمثل القنوع وأنشد:

أيها المرء إن دنياك بحر ... موجها طافح فلا تأمننها
وسبيل النجاة فيها منير ... وهو أخذ الكفاف والقوت منها

وأنشد:

حسبك مما تبتغيه القوت ... ما أكثر القوت لمن يموت[3]

وأنشد:

علل النفس بالقنوع وإلا ... طلبت منك فوق ما يكفيها[4]

وأنشد:

أرى كل زاد ما خلا سد جوعة ... تراباً وكل الماء عندي آلُ
وأنعم منا في الحياة بهائم ... وأثبت منا في التراب جبال[5]

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى، ج٤ ص١٧٧.
(٢) الشاهرودي، مستدرك سفينة البحار، ج٥، ص١٣٠.
(٣) أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية.
(٤) تنسب للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام؛ الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج٧ ص٣٦٥.
(٥) الشريف الرضي: ديوان الشريف الرضي.

وأنشد:

غنى النفس ما يكفيك عن سد جوعة فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا[1]

ثم قال: واعلموا أن الله جلّ جلاله، أدّب أنبياءه بأحسن الأدب واختار لهم أطهر الأخلاق، وكملهم بأشرف الصفات، فكان من أدبه لكليمه وخيرته موسى بن عمران عليه السلام: «يا موسى إرض بكسرة من شعير تسد بها جوعك، وخرقة تواري بها عورتك، واصبر على المصائب، وإذا رأيت الدنيا مقبلة عليك فقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذنب عجلت عقوبته في الدنيا، وإذا رأيت الدنيا مدبرة عنك فقل: مرحباً بشعار الصالحين، يا موسى لا تعجبن بما أوتي فرعون، فإنما هو زينة الحياة الدنيا»[2]. ومما ناجى به موسى وهارون عليهما السلام، حين أرسلهما إلى فرعون، «لا يروعكما لباسه فإن ناصيته بيدي، ولا يعجبكما ما متع به من زهرة الدنيا وزينة المترفين، فلو شئت زينتكما بزينة يعرف فرعون حين يراها أن مقداره يعجز عنها، ولكني أرغب بكما عن ذلك، فازويا الدنيا عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي، لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعي غنمه عن موارد الهلكة، وإني لأجنبكم سلوكها كما يجنب الراعي الشفيق غنمه عن موارد الغرة، وما ذاك لهوانهم عليّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم سالماً موفراً، وإنما يتزين لي أوليائي بالذل

---

(١) أبو العتاهية، وقد ورد البيت:

غنى المرء ما يكفيه من سد خلةٍ فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا

ديوان أبي العتاهية.

(٢) الحر العاملي، الجواهر السنية، ص٧٢.

والخشوع، والخوف الذي يثبت في قلوبهم فيظهر على أجسادهم، فهو شعارهم ودثارهم الذي يستشعرون، ونجاتهم الذي بها يفوزون، ودرجاتهم التي لها يأملون، ومجدهم الذي به يفخرون، وسيماهم التي بها يعرفون.

يا موسى: فاخفض لهم جناحك، وألن لهم جانبك، وذلل لهم قلبك ولسانك، واعلم أنه من أخاف لي ولياً فقد ارصد لي بالمحاربة، ثم أنا الثائر له يوم القيامة»[1].

وممّا أدّب الله به نبيّه عيسى عليه السلام: «يا عيسى: رح من الدنيا يوماً فيوماً، وذق ألماً قد ذهب طعمه، إشارة إلى أنه لا يعرف للألم طعماً بعد ذهابه، فكذلك لذات الدنيا وطيباتها».

فحقاً أقول: ما أنت إلا بساعتك ويومك، فرح من الدنيا ببلغة، وليكفك الخشن الجشب، فقد رأيت إلى ما يصير، ومكتوب ما أخذت، وكيف أتلفت، يا عيسى: لا تستيقظن عاصياً، ولا تنتبهن لاهياً، وافطم نفسك عن الشهوات الموبقات، وكل شهوة تباعدك مني فاهجرها، يا عيسى: إن الدنيا سجن منتن الريح وحِشىً فيها ما قد تذابح عليه الجبارون، وإياك والدنيا، فكل نعيمها يزول وما نعيمها إلا قليل»[2].

---

(١) الحر العاملي، الجواهر السنية، ص٧٢.

(٢) الحر العاملي، (م.ن)، ص٩٩. لكن ورد في الكافي بصيغة أخرى إذ بدل ألماً وقال ما ذهب، الكليني، الكافي، ج٨ ص١٣٢.

ومما أدّب الله نبيّه الأطيب الأطهر محمد ﷺ ليلة المعراج:

«يا أحمد: أحببت أن تكون أورع الناس إليّ، فازهد في الدنيا، وارغب في الآخرة، فقال: إلهي كيف أزهد في الدنيا؟ قال: خذ من الدنيا حقاً من الطعام والشراب واللباس، ولا تدخر لغد، ودم على ذكري، فقال: يا رب وكيف أداوم على ذكرك؟ فقال: بالخلوة عن الناس، وبغضك الحلو والحامض، وإفراغ بطنك وبيتك من الدنيا.

يا أحمد: احذر أن تكون مثل الصبي إذا نظر الأحمر والأصفر، وإذا أعطي شيئاً من الحلو والحامض اغترّ به، فقال: يا رب دلّني على عمل أتقرّب به إليك، قال: اجعل ليلك نهاراً ونهارك ليلاً، قال: يا رب كيف ذلك قال: اجعل نومك صلاة وطعامك الجوع.

يا أحمد: وعزّتي وجلالي ما من عبد ضمن لي أربع خصال إلا أدخلته الجنة: يطوي لسانه فلا يفتحه إلا بما يعنيه، ويحفظ قلبه من الوسواس، ويحفظ علمي ونظري إليه، ويكون قرة عينه الجوع.

يا أحمد: لو ذقت حلاوة الجوع والصمت وما ورثوا منها، قال: يا رب ما ميراث الجوع؟ قال: الحكمة، وحفظ القلب، والتقرّب إليّ، والحزن الدائم، وخفّة المؤنة بين الناس، وقول الحق، ولا يبالي عاش موسراً أم معسراً.

يا أحمد: هل تدري بأي وقت يتقرّب العبد إليّ، قال: لا يا رب، قال: إذا كان جائعاً أو ساجداً.

يا أحمد: عجبت من عبد دخل في الصلاة وهو يعلم إلى من يرفع

يديه، وقدام من هو وهو ينعس! وعجبت من عبد له قوت يوم من الحشيش أو غيره وهو يهتم لغد! وعجبت لعبد لا يدري أني راض عنه أم ساخط عليه كيف يضحك!.

يا أحمد: إن في الجنة قصراً من لؤلؤة فوق لؤلؤة، ودرة فوق درة، ليس فيها فصم ولا وصل، فيها الخواص، انظر كل يوم إليهم سبعين مرة، فأكلمهم كلما نظرت إليهم، وأزيدهم في ملكهم سبعين ضعفاً، وإذا تلذّذ أهل الجنة بالطعام والشراب، تلذّذ أولئك بذكري وكلامي وحديثي، قال: ما علامة أولئك؟ قال: مسجونون، قد سجنوا ألسنتهم من فضول الكلام، وبطونهم من فضول الطعام.

يا أحمد: إن المحبة لله هي المحبة للفقراء والتقرّب إليهم، قال: ومن الفقراء؟ قال: الذين رضوا بالقليل، وصبروا على الجوع، وشكروا على الرخاء، ولم يشكوا جوعهم ولا ظلمهم، ولم يكذبوا بألسنتهم، ولم يغضبوا على ربهم، ولم يغتموا على ما فاتهم، ولم يفرحوا بما أتاهم.

يا أحمد: ابغض الدنيا وأهلها، وأحب الآخرة وأهلها، قال: ومن أهل الدنيا ومن أهل الآخرة؟ قال: أهل الدنيا من كثر أكله وضحكه ونومه وغضبه، قليل الرضى، لا يعتذر إلى من أساء إليه، ولا يقبل معذرة من اعتذر إليه، كسلان عند الطاعة، شجاع عند المعصية، أمله بعيد، وأجله قريب، لا يحاسب نفسه، قليل المنفعة، كثير الكلام، قليل الخوف، كثير الفرح عند الطعام. وإن أهل الدنيا لا يشكرون عند الرخاء، ولا يصبرون عند البلاء.

يا أحمد: هل تعرف ما للزاهدين عندي؟ قال ﷺ: يا رب من هؤلاء الزاهدون الذين وصفتهم؟ قال: الزاهد هو الذي ليس له بيت يخرب فيغتم لخرابه، ولا له ولد يموت فيحزن لموته، ولا له شيء يذهب فيحزن لذهابه، ولا يعرف إنساناً يشغله عن الله طرفة عين، ولا له فضل طعام يسأل عنه، ولا له ثوب لين.

يا أحمد: ليس كل من قال أحب الله أحبني، حتى يأخذ قوتاً، ويلبس دوناً، وينام سجوداً، ويطيل قياماً، ويلزم صمتاً، ويتوكل عليّ، ويبكي كثيراً، ويقلّ ضحكاً، ويخالف هواه، ويتخذ المسجد بيتاً، والعلم صاحباً، والزهد جليساً، والعلماء أحباء، والفقراء رفقاء، ويطلب رضائي، ويفر من العاصين فراراً، ويشتغل بذكري اشتغالاً، ويكثر التسبيح دائماً، ويكون بالوعد صادقاً، وبالعهد وفياً، ويكون قلبه طاهراً، وفي الصلاة زاكياً، وفي الفرائض مجتهداً، وفي ما عندي من الثواب راغباً، ومن عذابي راهباً، ولأحبائي قريباً وجليساً.

يا أحمد: لو صلّى العبد صلاة أهل السماء والأرض، ويصوم صيام أهل السماء والأرض، وطوى الطعام مثل الملائكة، ولبس لباس العاري، ثم أرى في قلبه من حب الدنيا ذرة، أو سمعتها، أو رياستها، أو حليتها، أو زينتها، لا يجاورني في داري، ولأنزعن من قلبه محبتي، وعليك سلامي ورحمتي.

يا أحمد: لا تتزين بلبس اللباس، وطيب الطعام، ولين الوطاء، فإن النفس مأوى كل شر، وهي رفيق سوء، تجرها إلى طاعة الله، وهي تجرك إلى معصيته، وتخالفك في طاعته، وتطيعك في ما يكرهه،

وتطغى إذا شبعت، وتشكو إذا جاعت، وتغضب إذا افتقرت، وتتكبّر إذا استغنت، وتنسى إذا كبرت، وتغفل إذا أمنت، وهي قرينة الشيطان، ومثل النفس كمثل النعامة تأكل الكثير، وإذا حمل عليها لا تطير، ومثل الدفلى لونه حسن وطعمه مر»[1].

فلا ترم في المعاصي كسر شهوتها ... إن الطعام يقوي شهوة النهم
والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه ... إن الهوى ما توالى يُصم أو يصِم
وراعها وهي في الأعمال سائمة ... وإن هي استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة ... من حيث لم يدر أن السم في الدسم
فخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصماً ولا حكماً ... فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
وأحي سنة من أحيا الظلام إلى ... أن اشتكت قدماه الضر من ورم
وشد من سغب أحشائه وطوى ... تحت الحجارة كشحاً مترف الأدم
وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه فأراها أيما شمم[2]

ويحك أيتها الأمّارة! إلى كم التمادي في الغي؟ والانحراف عن منهج الرشاد؟ وإغراؤك هذا الخلق العظيم بسلوك مناهج الجبابرة، والأخذ بسيرة الفراعنة؟ من جنات وأثمار وعيون، وأنهار وقصور شاهقة مشيدة، وأبنية شامخة مزخرفة، ومراكب فارهة، وملابس من

(١) الحر العاملي، الجواهر السنية، ص١٩٤.

(٢) البصيري، شرف الدين (٦٠٨ ـ ٦٩٦هـ/ ١٢١٢ ـ ١٢٩٦م). ورد في البيت الأول بدل فلا ترم في طعام عند الكاتب فلا ترم في المعاصي. (موسوعة الشعر العربي).

الحرير والديباج زاهية نضرة، وتخذيلك إياهم عن الأخذ بسيرة الأنبياء، وارتكاب طريقة الأولياء، والتنكّب بهم عن سلوك مناهجهم، ووطء جوادّهم، وأما والله لو ملكت على صعاب هذه النفوس مقاليدها، وأخذت من شوامسها بأزمتها، ومن جوامحها بأعنتها، لأسلس قيادها، وذلّ جماحها، وانقاد طامحها:

وأصبحت مثل عجف النيب خاضعة ... يقتادها ضرع الإذلال والصّغر
مفطومة عن هوى الدنيا مذلّلة ... لا يخدشن لها ناب ولا ظفر
خمصانة الجوف والأحشاء من سغب ... تطوي عن الري قلباً كاد ينفطر
لم يعلها أشر من زينة عرضت ... ولا استخف بها من نعمة بطر
ترضى من العيش بالقوت الزهيد ولا ... يسمو إلى زينة الدنيا لها نظر
ولست أوردها ما الناس قد وردوا ... منه ولا طعم إلا الصاب والصبر
شاموا لوامع برق خلب كذب ... فاستشرفوها وظنوا أنهم مطروا
وليتهم حينما لاحت مخايلها ... لم يشرئبوا وكفوا الطرف وانتظروا
لكنها أنفس أزرى بها شره ... واستفحل العب في الأشداق والفغر
تخال كل سحاب لاح يمطرها ... وكل سائمة في ضرعها الدرر
وكل جيد على لباته درر ... وكل نبت علاه النور والزهر
بصَّاصة الطرف في أرض تحل بها ... تمضي إلى حيث يمضي الريح والأثر

ب ـ خطاب العفه:

ثم ابتدرت العفة، وكانت قائمة مع أهل الصفة، وقد علاها من ملابس الخشوع أبهاها، وتجللتها من سنن النزاهة أزهاها، وهي تتلو:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا * ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[1].

ثم رمقت ببصرها ملتف مواكب الجهل، وحفدة الأمّارة، فقالت:

شاهت الوجوه، وتربت الأكف، وشلت الأيدي، بغيّك أيتها الأمارة الكثكث، ما أضلك وأطغاك، وأصمك وأعماك، لم يثقب لك زند منذ عرفناك في مكرمة، ولا هدرت منك الشقاشق يوماً في معروف، ولا رفعت لك نار هدى في صحصح، ولا من دبّ أو درج في نهجك نجح أو فلح، كلا بل من وطئ حوضك زلق، ومن ركب لجك غرق، خدّاعة، غرّارة، مسيئة، ضرّارة، لم ينبض منك عرق إلا باللؤم، ولم ينجل لك صبح رأي إلا بالشؤم، لا أمر لك إلا بالسوء المهلك والبلاء المدمر، كم من قوم تركتهم لأرحية البلاء ثفالاً، ولجرد سابقات العناء حلبة ومجالاً، يتهافتون على المنية لإدارك ما حببت إليهم من مطاعم هذه الجيفة الدنية، فلا يلوي أحدهم عنان شهوته إلا بالموت أو بلوغ الأمنية، كلا ولا راقبت الجبار في هذا الديدن، ولا قلبت له ساعة من الزمان ظهر المجن، تريدين عرض الدنيا والله يريد الآخرة، وحسبك محادة لله ومشاقة، وأعجب من ذلك إقرارك له بالعبودية، وإذعانك له بالطاعة:

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٤٥ و٤٦.

تـودّ عـدوي ثـم تـزعـم أنـنـي صديقك إن الرأي منك لعازب[1]

أما ألوت من أعنة غيك، وثلمت من أسنة ضلالك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2].

أما فلت من غرب نفاقك، ونقضت من عزم شقائك:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[3].

فيا بعداً لطالعك ما أسوأه، ويا تباً لصبحك ما أظلمه، ألم تعلمي أن لكل قوم إماماً يقتدون به، ويستضيئون بنوره، ويطؤون جادته، ويركبون قدته، ألا وإن إمامنا قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، وقال: «لو شئت لاهتديت الطريق على مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، أو يقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثي، وأكباد حرّى، أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داء أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحن إلى القد

فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة، همها علفها، أو المرسلة، شغلها تقممها، تكترش من أعلافها، وتلهو عما يراد

---

(١) النابغة الشيباني، (ت. ١٢٥هـ/ ٧٤٣م). (موسوعة الشعر العربي).

(٢) سورة يونس، الآيتان: ٧ و٨.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٠.

بها... وأيم الله يميناً أستثني فيها بمشيئته، لأروضن نفسي رياضة تهش معها على القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً، ولأدعنَّ مقلتي كعين ماء نضب معينها، مستفرغة دموعها، أتمتلئ السائمة من رعيها فتبرك، وتشبع الربيضة من عشبها فتربض، ويأكل علي من زاده فيهجع، قرت إذاً عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة، والسائمة المرعية»[1].

ويلك يا أمارة! أما لنا بطريقة إمامنا اهتداء، وبسيرته اقتداء، وبه أسوة، ومع ذلك ليتك إذ مضيت على جهلك المردي ودائك المعدي، دعوت إلى ما له أصل أو حقيقة، وندبت إلى ما تنساغ لذته في فم مستطعمه ولو دقيقة، بل ما هو إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وليته كان كذلك، بل لا يجد إلا جيفة قذرة، ونطفة مذرة، بينما نراها يشخص إليها البصر حتى إذا بلغت جوف آكلها تحولت عذرة:

فدع عنك فضلات الأمور فإنها ... حرام على نفس التقي ارتكابها
وما هي إلا جيفة مستحيلة ... عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلماً لأهلها ... وإن تجتذبها نازعتك كلابها[2]

إلى متى؟ وحتى متى؟ تعلنين وتقولين: طيبات، ولذات، وفاكهة،

---

(١) من كلام للإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ص٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٤.

(٢) الأبيات للشافعي.
ورد البيت الأول:
فدع عنك سوآت الأمور فإنها ... حرام على نفس التقي ارتكابها
(موسوعة الشعر العربي).

ونعيم، وفرح وسرور، ولهو وحبور، بلى إنه سرور لولا أنه غرور! ونعيم لولا أنه عديم! وغنى لولا أنه منى! وجسيم لولا أنه ذميم! ومحمود لولا أنه مفقود! وحسن لولا أنه حزن!

سلاف قصاراها زعاف ومركب شهي إذا استلذته فهو جامح
وشخص جميل يونق الناس حسنه ولكن له أسرار سوءٍ قبائح[1]

شوهة لك وبوهه! كيف أعلنت بمدح الفرائس، وندبت إلى اقتناص الجيف، ولا غرو فإن من أضلَّه الغي وأعماه الهوى، لم يدر الخبيث من الطيب، ولا الهلاك من النجاة.

وربما رأى الشقاء سعادة والبلاء راحة، ألا منك نبأ صادق يخبرنا عن هذه اللذات، أي مذقة منها حلّت لذائق، أو مضغة طابت لآكل، أو رشفة انساغت لناهل، بلى أنبأنا الوجدان عن العيان وأقرهما على ذلك إمامنا الواقف على الحقائق بأوضح بيان: بأن «قرنت بسعتها عقابيل فاقتها، وبسلامتها طوارق آفاتها، وبفرج أفراحها غصص أتراحها... لم يكن امرؤ منها في حبره إلا أعقبته من بعدها عبرة، ولم تطله فيها ديمة رخاء، إلا هتفت عليه مزنة بلاء»[2]، وإن جانب منها اعذوذب أمر منها جانب فأوبى:

---

(١) الثعالبي (٣٥٠ ـ ٤٢٩هـ/ ٩٦١ ـ ١٠٣٨م).
ورد البيت الثاني:
وشخص جميل يعجب الناس حسنه ولكن له أسرار سوءٍ قبائح
(موسوعة الشعر العربي).

(٢) من كلام للإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ص٢٢٨، ٢٦٧.

ألا إنما الدنيا غضارة أيكة ... إذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ما الآمال إلا فجائع ... عليها ولا اللذات إلا مصائب
فكم أسخنت بالأمس عيناً قريرة ... وقرّت عيون دمعها الآن ساكب
فلا تكتحل عيناك قط بعبرة ... على ذاهب منها فإنك ذاهب[1]

فيا سبحان الله ما أغرّ سرورها، وأضحى فيئها وأظمأ ريها، لين مسها قاتل سمها، عيشها رنق وعذبها أجاج، لا ينال طالبها منها رغباً إلا أرهقته من نوائبها تعبا، وإن اطمأن منها إلى سرورها أشخصه عنها مكروه، وإن سكن منها إلى إيناس أزاله عنها إيحاش.

صن بالتعفف عز النفس مجتهدا ... فالنفس أعلى من الدنيا لذي الهمم
إن الحياة منام والمآل بنا ... على انتباه وآت مثل منعدم
ونحن في سفر نمضي إلى حفر ... فكل آن لنا قرب من العدم
والموت يشملنا والحشر يجمعنا ... وبالتقى الفخر لا بالمال والحشم
دنيا حلاوتها للجاهلين بها ... ومرها لذوي الألباب والفهم

الويل لك يا أمارة! أعلى هذه اللذات تحثين، وإلى هذه الطيبات تندبين، أكُلّ ذلك جهل وعمى، وتنكّب عن هدى، حتى رأيت القذر درر، والتبن تبر، والحنظل شهد، والسخف ظَرَف والكبر شرف، لا عجب لقد نظرت بأبصار العشوة وضربت في غمرة جهاله، فتهت عن

---

(١) ابن عبد ربه الأندلسي (٢٤٦ ـ ٣٢٨هـ/ ٨٦٠ ـ ٩٣٩م).
ورد في البيت الأول بدل غضارة أيكة: نضارة أيكة.
وفي البيت الثالث بدل فكم أسخنت: فكم سخنت. وبدل دمعها الآن ساكب وردت: دمعها اليوم ساكب. (موسوعة الشعر العربي).

القصد، وضللت عن الرشد، ثم ثنت جيدها لعميد القوم، قارعة سمعه بنظم كالعقود المنضدة:

إثنِ الأعنة لا يلوي بك الغرر ... ما كل لامع برق عنده مطر
لا يخدّعنك صفو العيش آونةً ... فرب صفو به للشارب الكدر
ولا يغرنك من دنياك زهرتها ... واحذر فما هي إلا الحية الذكر
كم من أناس سقتهم سم أربدها ... لما على حبها أهواءهم قصروا
وصدهم عن سبيل القصد زبرجها ... لما لبارقها الخداع قد نظروا
كم عابد فتنته عن عبادته ... وكان يحيى الدجى والليل معتكر
وآخر خاض في لذاتها فمضى ... بالغي تقذفه الأمواج والغِمر
يا خابطاً في هواه كل داجية ... يهوي به في المهاوي المركب الوعر
لا تتبعن أثر الأوهام إن سنحت ... فما لصادقها عين ولا أثر
وساوس من ضروب الوهم كاذبة ... نهفو إليها ولا ورد ولا صدر
نرى مخايل بادي الرأي نحسبها ... حقائقاً برزت لكنها صور
مثل السراب تراءى في تموّجه ... ولا مياه ولكن أخطأ البصر
يغرُّ كل ضعيف الطرف بارقة ... ونافذ الطرف لا يلوى به غرر
فاعدل إلى القصد واحذر كل بارقة ... لماعة يتجلى نحوها البصر
تلك الخيالات والأوهام كم صرعت ... من الرجال ليوثاً دأبها الحذر
وأوقفتها على صماء شاهقة ... تهابها الطير والذؤبان والعفر
لذّات دنياك آلام حقيقتها ... وفي السرور بها الأحداث والغير
كم العيان أرانا كذب بارقها ... والخبر أعرب عما أعجم الخبر

ج ـ خطاب الزهد:

ثم نهض الزهد، وكان واقفاً بإزاء حب الدنيا، ونور البهاء والخشية من جبينه يتألق، وينبوع منطقه بقوله يتدفق:

حذفت فضول العيش حتى رددتها على دون ما يرضى به المتعفف
وأملت أن أجري خفيفاً إلى العلى إذا شئتم أن تلحقوا فتخففوا[1]

ثم قال الحمد لله الذي لم يخلق الخلق عبثاً، ولم يتخذ إبداعهم لهواً ولا لعباً، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[2]، بل خلقهم لمعرفته، وندبهم إلى طاعته، وحثهم على عبادته، فقال جلّ جلاله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[3]. ثم أنه جلّ جلاله، قدّر لهم أرزاقهم، وقسّم بينهم معايشهم، وتكفل لهم بها، وضمن إليهم وصولها ولو كانوا في بروج مشيّدة، أو لجج بحار غامرة، ولم يكلفهم الضرب في مذاهب طلبها، ولا حملهم على تحمل مشاقها وتعبها، إذ ما من دابة إلا عليه رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، بل كلفهم أن يدينوا له بالعبودية، ويذعنوا بالربوبية، ويعترفوا بالإلهية، وأن يشغلوا أوقاتهم بخدمته، ويستفرغوا أيامهم لعبادته، وجعل لهم الدنيا دار الأعمال ومحل الاختبار، لا دار المكوث ونزل القرار.

---

(١) الأبيات للشريف الرضي. (ديوان الشريف الرضي).
(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ١٦ و١٧.
(٣) سورة الذاريات، الآيتان: ٥٦ و٥٧.

مكّارة، غرّارة، فتّانة، تخدع بمنظرها، وتغرّ بزهرتها، وتفتن بزبرجها، وتمكر بزخارفها، ثم أمرهم بالتجافي عنها، وعدم الركون إليها، امتحاناً لنفوسهم، واختباراً لسرائرهم، وابتلاءً لضمائرهم، ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1]، وجعلها محفوفة بالبلاء، مغمورة بالعناء، مملوءة بالمكاره، مشحونة بالمصائب، تصفية لعباده من دنسها، وتخليصاً لهم من رجسها. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[2].

فمن نظر إليها بطرف حسير ومقلة كليلة، وعقل خمد مصباحه، ولم يبزغ من غياهب الغفلات صباحه، تردى فيها في عمايته، وتاه في غوايته، وتحيّر في ظلماته، وارتبك في شهواته، فكلما عنّت له فيها شهوة، أو عرضت له منها لذة، طار إليها وأسرع للعكوف عليها، وعمي عن أنها وشيكة الزوال، سريعة الانتقال، تتصرف بأهلها من حال عزة واستكبار إلى حال ذلة وصَغار، ومن بضّة[3] صبا وشباب إلى حالة هرم واحديداب، وأما من نظر إليها بطرف نفذ فيها ضياؤه، وجاز إلى ما وراءها سناؤه، وبصر بها بعقل شبت مصابيحه، وتوقّدت بالاعتبار سرجه، جعلها قنطرة عبور وجسر مجاز، وتخلى عن طيباتها، وتباعد عن

---

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ٢ و٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

(٣) بضه صبا وشباب: يعني جمال وحسن الصبا والشباب. (أساس البلاغة).

لذاتها، وعلم أن قد قلّ فيها مناخه، فكانت عنده كيوم حان انسلاخه، فأعطى لذيل الجد في خدمة مولاه التشمير، وفي الخلاص من حبائلها والتفلت من أشراكها أحكم الرأي وأتقن التدبير، فراح مصباح الهدى يزهر في قلبه، وداعي الاعتبار يهتف على الدوام بعقله ولبّه:

أتأمل في الدنيا تجد وتعمر ... وأنت غداً فيها تموت وتقبر
تلقح آمالاً وترجو نتاجها ... وعمرك مما قد ترجّيه أقصر
تحوم على إدراك ما قد كفيته ... وتُقبل بالآمال فيه وتُدبر
وهذا صباح اليوم ينعاك ضوؤه ... وليلته تنعاك إن كنت تشعر
ورزقك لا يعدوك إما معجل ... على حاله يوماً وإما مؤخر
فلا تأمن الدنيا وإن هي أقبلت ... عليك فما زالت تخون وتغدر
فما تم فيها الصفو يوماً لأهله ... ولا الرنق إلا ريثما يتغير
وما لاح نجم لا ولا ذر شارق ... على الخلق إلا حبل عمرك يقصر
فشمر فقد أبدى لك الموت وجهه ... وليس ينال الفوز إلا المشمر
فهذي الليالي مؤذناتك بالبلى ... تروح وأيام كذلك تبكر
ولا بد يوماً أن تصير لحفرة ... بأثنائها تطوى إلى يوم تنشر[1]

ثم ثنى جيده نحو الأمّارة، وقال: أما والله أيتها الأمارة، لقد

---

(١) للشاعر أبو تمام.
قد ورد البيت الأول في الديوان غير ما ورد في الرسالة:
اللعمر في الدنيا تجدّ وتعمر ... وأنت غداً فيها تموت وتقبر
ورد البيت السادس في الديوان:
فلا تأمن الدنيا إذا هي أقبلت ... عليك فما زالت تخون وتدبر
(ديوان أبي تمام).

اكتحل بصرك بمرود العمى، وغشيته من الجهالة حوالك الدجى، فلم ينفذ في صافي الزجاجة ضوؤه، ولم يقع على ما وراءها نوره، حتى تستبين لك النجاة من الهلكة، والرشاد من الضلالة، بل شمت من دنياك برقاً يتألق، ونظرت سحاباً يتدفق، وروضة مشرقة أزاهيرها، وأبنية شامخة مقاصيرها، فحسبت أن هذا لا غيره هو النعيم، وأن الفوز بمثله لهو الفوز العظيم.

فضربت من بيداء الحث عليه في كل مذهب، وقدت في الدعاء المِقنب بعد المقنب، ولم تدر أن البرق خلب، وأن استطار ضوؤه والغيم جهام، وأن تتابع قطره ونوؤه، والروضة قد ساورت أزاهيرها الرقش الأفاعي، وسددت سهام المنيّة نحو مجتنيها أيدي الأيام والليالي، والبناء وإن شمخت أعاليه فهو من الأيام على لجة تيار، إذا اضطربت أمواجه، أسلمته إلى الدثار والبوار.

ويحك يا أمارة! إن أهل البصائر النافذة، والألباب المستنيرة، رأوا أن الدنيا بحر عميق قد هلك فيه أناس كثير، فجعلوا سفينتهم فيها النجاة، وشراعها التوكل على الله، وزادهم بها تقوى الله، ومع ذلك فهم خائفون وجلون، وبالإقدام على الآخرة من أعمالهم مشفقون:

إن لله عباداً فطنا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحي وطنا
حسبوها لجة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا[1]

---

(١) للأمير الصنعاني (١٠٩٩ ـ ١١٨٢هـ/ ١٦٨٨م ـ ١٧٦٨م). =

لم يركنوا إليها طمعاً، ولا تطلعت نفوسهم إليها رغبة وشوقاً، نأت عن ذكر لذاتها أسماعهم، وغضت دون طيباتها أبصارهم، حين تكشفت لهم عن عيوبها، وأبدت عن مساويها، وأبان لهم نبيهم الأطيب الأطهر عن حقيقتها، بالتصريح بذمها تارة، وفي ضرب الأمثال أخرى.

ولقد مرَّ ﷺ على شاة ميتة، فقال: «أترون هذه الشاة هينة على أهلها، قالوا: من هوانها ألقوها، قال والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها، ولو كانت الدنيا تعدل عنده جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء»[1].

ووقف عليه السلام يوماً على مزبلة، فقال: «هلموا إلى الدنيا! وأخذ خرقاً قد بليت على تلك المزبلة وعظاماً قد نخرت، فقال: هذه الدنيا»[2].

وقال ﷺ: «ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامه، فيؤمر بهم إلى النار، قالوا: يا رسول الله كانوا مصلّين؟ قال: نعم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هنةً من الليل، فإذا عرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه»[3].

وقال روح الله عيسى بن مريم عليه السلام: «لأكل خبز الشعير بالملح

= ورد البيت الثالث:

جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

(موسوعة الشعر العربي)

(١) رواه الترمذي في سننه، ج٣ ص٣٨٣، ٣٨٤.

(٢) النراقي، جامع السعادات، ج٢ ص١٩.

(٣) ابن فهد الحلي، عدة الداعي، ص٢٩٥.

الجريش، ولبس المسوح والنوم على المزابل، كثير مع عافية الدنيا والآخرة»[1].

وقال إمام الزاهدين، مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «إنما الدنيا ستة أشياء: مطعوم، ومشروب، وملبوس، ومركوب، ومنكوح، ومشموم. فأشرف المطعوم العسل، وهو مذقة ذباب، وأشرف المشروب الماء، ويستوي فيه البر والفاجر، وأشرف الملبوس الحرير، وهو نسج دودة، وأشرف المركوب الفرس، وعليها يقتل الرجال، وأشرف المنكوحات المرأة، وهو مبال في مبال، وأن المرأة لتزين أحسن شيء منها ويراد أقبح شيء منها، وأشرف المشموم المسك، وهو دم»[2].

وعن روح الله عيسى عليه السلام: «بحق أقول لكم، كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يتلذذ به من شدة الوجع، كذلك صاحب الدنيا لا يتلذذ بالعبادة، ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا.

وبحق أقول لكم، كما أن الدابة إذا لم تركب وتمتهن تصعب ويتغير خلقها، كذلك القلوب إذا لم ترقق بذكر الموت ونصب العبادة تقسو وتغلظ.

وبحق أقول لكم، أن الزق ما لم ينخرق أو ينحل يوشك أن يكون

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٢٠ ص٥٢.
(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج٦١ ص٢٣٩.

وعاء للعسل، كذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات، أو يدنسها الطمع، أو يقسيها النعيم، فسوف تكون أوعية للحكمة»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «إنما مثل صاحب الدنيا كالماشي في الماء، هل يستطيع الذي يمشي في الماء أن لا تبتل قدماه؟»[2].

وروي أنه ﷺ قال للضحاك بن سفيان الكلابي: «ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح، ثم تشرب عليه اللبن والماء! قال: بلى، قال: فإلامَ يَصير؟ قال: إلى ما قد علمت يا رسول الله، قال: فإن الله عزّ وجل ضرب مثل الدنيا بما يصير إليه طعام ابن آدم»[3].

وروي أن روح الله عليه السلام توسّد يوماً حجراً في نومه، فقال له الشيطان: أما كنت تركت الدنيا، فما الذي بدا لك؟ قال: وما الذي تجد، قال: توسّدك الحجر، أي تنعّمت برفع رأسك عن الأرض في النوم، فرمى الحجر، فقال: خذه مع ما تركته لك.

وروي عن يحيى بن زكريا عليه السلام: «أنه لبس المسوح حتى نقب جلده تركاً للتنعّم بلين اللباس، واستراحة حسن اللمس. فسألته أمه أن يلبس

---

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص٥٠٤. (الزق: الوعاء إو الإناء للشرب، وينحل: يرقّ لقِدَمِه).

(٢) الريشهري، ميزان الحكمة، ج٢ ص٩١٧.

(٣) أورده ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، ج١٩ ص١٤؛ والقرطبي في تفسيره، ج١٩ ص٢٢٠.

مكان المسح جبّة من الصوف ففعل، فأوحى الله إليه يا يحيى آثرت علي الدنيا، فبكى ونزع الصوف، وعاد إلى ما كان عليه»[1].

وقال النبي ﷺ: «سيأتي بعدي قوم، يأكلون أطايب الطعام وألوانها، ويركبون فُرْه الخيل وألوانها، وينكحون أجمل النساء وألوانها، ويلبسون أجمل الثياب وألوانها، لهم بطون من القليل لا تشبع، وأنفس بالكثير لا تقنع، عاكفين على الدنيا يغدون ويروحون إليها، اتخذوها آلهة دون إلههم، ورباً دون ربهم، إلى أمرها ينتهون، ولهواهم يتبعون، فغريمهم محمد بن عبد الله، لمن أدرك ذلك الزمان من عقب عقبكم، وخلف خلفكم، أبداً لا يسلم عليهم، ولا يعود مرضاهم، ولا يتبع جنائزهم، ولا يوقر كبيرهم، فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام»[2].

وقال ﷺ: «شرار أمّتي الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم، وإنما همتهم أنواع الطعام، وأنواع اللباس، ويتشدقون في الكلام»[3].

وقال الشاعر:

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره ... فسوف لعمري عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة ... وإن أقبلت كانت كثيراً همومها[4]

---

(١) النراقي، جامع السعادات، ج٢ ص٤٩. (والمسوح والمسح: كساء من الشعر). (لسان العرب).
(٢) النراقي، م.ن، ج٢ ص٢٠.
(٣) رواه ابن أبي الدنيا، كتاب الصمت وآداب اللسان، ص٩٢.
(٤) نسب البيتان للإمام علي عليه السلام، ورد البيت الثاني:
إذا أقبلت كانت على المرء حسرةً ... وإن أدبرت كانت كثيراً همومها

وقال الآخر:

دنيـاك غـرارة فـذرهـا ... فـإنـهـا مـركـب جـمـوح
دون بـلـوغ الـجـهـول مـنـهـا ... غـايـتـه نـفـسـه تـطـوح

وقال آخر:

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ... ونال من الدنيا سروراً وأنعما
كبان بنى بنيانه فأقامه ... فلما استوى ما قد بناه تهدما

وقال آخر:

هب الدنيا تساق إليك عفوا ... أليس مصير ذلك للزوال
وما دنياك إلا مثل فيء ... أظلك ثم آذن بارتحال

وقال آخر:

يا خاطب الدنيا إلى نفسها ... تنح عن خطبتها تسلم
إن التي تخطب غدارة ... قريبة العرس من المأتم[1]

وقال آخر:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق
فيا رب وجه في التراب عتيق ... ويا رب حر في التراب رقيق
ويا رب حزم في التراب ونجدة ... ويا رب رأي في التراب وثيق[2]

---

(١) أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية.

(٢) أبو نواس، (١٤٦ ـ ٢٩٨هـ/ ٧٦٣ ـ ٨١٣م). وردت في الديوان بدل ويا رب حرٍّ: ويا رب حسنٍ.

وقال آخر:

أحـــلام نـــوم أو كـــظـــل زائـــل إن اللبيب بمثلها لا يخدع[1]

وقال آخر:

يـا أهـل لـذة دنـيـاً لا بـقـاء لـهـا إن اغـتـراراً بـظـل زائـل حـمـق

وقال آخر:

ألا إنـمـا الـدنـيـا كـظـل بـنـيـتـه ولا بـد يـومـاً ان ظـلـك زائـل

وقال آخر:

وإن امـرءاً دنـيـاه أكـبـر هـمـه لـمستمسك منها بحبل غرور

ثم إن الزهد رمق الحيوانية ومن دب في نهجها ببصره وقال:

أيها السواد المتراكم، والملأ المكفهر، والجمع المتكاثف، ما لكم أجلبتموها غارة شعواء، وتهتم بها خبطة عشواء، أما لكم انتباه ويقظة، واعتبار وعظة، بما صنعه الأنبياء والمرسلون، واقتفى أثره الأولياء والصالحون.

أنتم أرسخ قدماً بالمعرفة؟ أم أكمل عقلاً بالإدراك؟ أم أنفذ بصيرة بالمنجي من المردي؟.

---

(١) ابن أبي حصينة، (٣٨٨ ـ ٤٥٧هـ/ ٩٩٨ ـ ١٠٦٤م).
كما ورد البيت ذاته لعمران السدوسي (ت. ٨٤هـ/ ٧٠٣م). (موسوعة الشعر العربي).

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبّه بالكرام فلاح[1]

هيهات! هيهات! عمي القائد، وجد السائق، وتاه الدليل، وأحزن السهل، وانمحى الأثر، وأنشأ:

رينٌ[2] على القلب أعمى الطرف حندسه ... إن يبصر القلب يبصر نافذ البصر
هيهات يبصر ما قد راح يطلبه ... السد أحكم بالفالوذ والزبر
إن الزجاجة إن رقت بها نفذت ... عمش العيون وكانت جلوة النظر
يا شائم البرق يرجو من سحائبه ... غيثاً فما لك في الأنواء من وطر
من أشكلت أرضه غرساً يحق له ... في كل آن سمو الطرف للمطر
ما أنت بالعير فيهم والنفير ترى ... إن عدّ أرباب هذا الغرس فاستتر
وعد عن نهجه واكفف سراك فما ... في طيره لك من ناب ولا ظفر
ما الشاء تبلغ شأو الظبي إن جريا ... ولا العصا في اللقا كالصارم الذكر
ولا الحصى كالدراري في سناً وعلاً ... ولا السهى في سنا الإشراق كالقمر
فامرح بدنياك كالأنعام ساهمة ... واعكف على اللهو في الإيراد والصدر
ما أنت والقوم ترجو نيل غايتهم ... وفي السرى واصلوا الروحات بالبكر
قد شاهدوا روضة راقت أزهرها ... وساورتها أفاعي الهم والكدر
فرحت من روضها تجني أزاهره ... على الغرور وهم راحوا على حذر
حازوا النجاة ونالوا الفوز مذ بعدوا ... عنها وأنت على المهواة والخطر

---

(١) السهروردي المقتول، (٥٤٩ ـ ٥٨٧هـ/ ١١٥٤ ـ ١١٩١م). (موسوعة الشعر العربي).

(٢) رين على القلب: ما غطى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب (أساس البلاغة).

د ـ خطاب التقوى:

ثم نهض التقوى وكان بإزاء النفس الأمّارة، وملك على الزهد سوابق منطقه، وفي توبيخ الأمارة جرى ينبوع حكمته بتدفقه، فأنشد:

ويحك يا نفس دعي ... ما عشت ذل الطمع
وارضي بما جرى به ... حكم القضاء واقنعي
إياك والميل إلى ... شيطانك المبتدع
واقتصري واقتصدي ... كي ترتوي وتشبعي
أين السلاطين الأُلى ... من حِمْيَر وتبع
شادوا الحصون فوق كل ... شاهق مرتفع
لم يبق من ديارهم ... غير رسوم خشع
كفى بذاك زاجراً ... وواعظاً لمن يعي
ويحك يا نفس اقبلي ... نصحي ولا تضيّعي

ويحك يا نفس! إلى متى؟ وحتى متى؟ تدعين الحكمة والفطانة، وأنت في الجهالة في غاية، ومن الغباوة في نهاية، ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ويحك يا نفس! هذه البلادة قد ضربت عليك بسدتها، وهذه الحماقة جللتك ببردتها، ما أنت والشهوات واللذات والتنعّم بالطيبات! هلا بادرتِ في صنع المرهم لجرحك، قبل أن ينتفض عليك داء قرحك؟ واجتهدت في عمل الدواء لدائك ما دام للطبيب يد في شفائك؟ ويحك يا نفس! قد أنهكتك العلة وتحسبين أنك في صحة، وبرح فيك السقم ولا تحسين بالألم، وأحاط بك البلاء وأنت راتعة في مرابض الأمن، وسارحة في رياض الأهواء.

ويحك يا نفس! من دلاك في هذا الغرور؟ وبدل صبحك بالديجور؟ وزهدك بالحرص؟ وتقواك بالفجور؟ وزين لك حب الشهوة واللذة؟ حتى وسمت بمياسم الهوان والذلّة.

ويحك يا نفس! أفطنتك عادت غباوة، أم ذكاؤك تحول بلادة حتى جعلت نفسك مطية لإبليس، يقودك حيث يشاء، ويسلك بك حيث يريد من المهامه الوعرة والمسالك المقفرة، يوردك ولا يصدرك، ويضعك ولا يرفعك، وينبذك ولا ينقذك، حسداً لأصلك، وبغياً على فرعك، وعداوة لعقلك، وتدنيساً لشرفك.

ويحك يا نفس! هذا عقلك أطفأ مصابيحه حب الشهوات، وتراكمت عليها من الوساوس الظلمات، وفكرك كلٌّ من الخوض في مذاهب الدنيا بخائبه، وأظلمت عليه إلى الآخرة مذاهبه، ووهمك لا إياب لشارده، ولا ري لوارده، وخيالك على تكرر الآناء يخبط العشواء ويتسنّم الظلماء.

ويحك يا نفس! بصرك أعماه اختلاف صور الألوان، فمتى للحقيقة تبصرين؟ وسمعك اصمه استماع الباطل، فهيهات بعد للحق من القول تسمعين! وشمك أنس بالروائح النتنة، فأنّى بالروائح العطرية بعد تأنسين! وذوقك ألف طعم المر، فلا بدع إن رحت بالحلو لا تستطعمين! ولمسك خشن بناعم لباس الدنيا، فمتى للخشن من لباس الآخرة تستشعرين!

ويحك يا نفس! قد تداوى المرضى وأنت في علتك سكرى، ونجا

الهارب وبقيت الهدف لكل سهم صائب، ولحق المخف، وحملك أنقب الحافر والخف، وظفر الصائد، وأنت تتلصصين بالمراصد.

ويحك يا نفس! غلست[1] الغربان، وبكرت الآساد، وأنت في غطيط النوم وسكرة الرقاد، وافترست الثعالب، وغنمت الذئاب، وأنت تهرّين هرير الكلاب، والتاجر أوقر الأحمال، وشدّ الأثقال، وقوّض الركاب، وأنت من زادك لسفرك خلو الرطاب، وصفر العباب، إن قيل لك: احملي، قلت: أنا نعامة! وإن قيل: لك طيري، قلت: أنا جمل!.

ويحك يا نفس! ارتوت الظماء وشبعت الخماص، وأنت في أسر الكسل والخمول، لا مفر لك منه ولا خلاص، تترددين في دمن المرابع كالإبل الجلالة، وتحومين حول أندية المجامع كالكلاب المهزوله.

ويحك يا نفس! سار الركب وأنت في نومك من جنب إلى جنب، وبلغ القاصدون الحمى وأنت تدبين في نهج الحيرة والعمى، ونال المريدون المنى وأنت تتعللين بلعل وعسى، وتكشفت الأستار للمدرعين حوالك الأسحار، وتفجرت ينابيع الأسرار للمنتصبين في محاريب التسبيح والأذكار، وأنت من المذبذبين، لا صفي لك نعيم الدنيا ولا تمت عليك نعم الدين.

ويحك يا نفس! كم يخبط بك الحرص والأمل، كل سهل وجبل، ويرفع بناظرك الطمع إلى كل برق لمع.

---

(١) غلست الغربان: طارت في الليالي المظلمة. (لسان العرب).

وتوردك الغفلات حياض الهلكات، ويقودك الهوى إلى مهاوى العطب والردى.

ويحك يا نفس! من يطأ حسكَ السعدان تدمى أقدامه، ومن يخترط القتاد[1] تشقق أنامله، ومن يقتحم ثبج[2] البحر يغرق، ومن يقترب من الزفت بعضه به يعلق، نسيم الصبا إذا مر بالنتن خبث ريحه، ومن يحمل المسك يعبق أريجه، ومن جلس إلى العطار إن لم يشترِ منه يحمل من عطره، ومن لم يعرف موقع أقدامه زلّ، ومن علا حفر المزالق زلق، ومن تسنم الشواهق هوى، ومن يركب الصعب الشموس فحري أن تدق عنقه، ومن امتطى الشرس الطموح فجدير أن تتفطّر من جذب الأزمة أكفه.

ويحك يا نفس! اتقني صنع السفينة فإن البحر عميق، وخفّفي الحمل فإن العقبة كؤود، وأكثري الزاد فإن السفر بعيد، واخلصي العمل فإن الناقد بصير.

ويحك يا نفس! لم يسخر لخدمتك العالمون لتمضي هملاً، أو تتركي سدى، الأنفاس معدودة، والآجال محدودة، والشقة مديدة، والغاية بعيدة، والسفر وعث[3] والسائق في حث، والزاد مقل، والماء ثمد[4].

---

(١) القتاد: شوك لا يستطاع لمسه. (جمهرة اللغة).

(٢) ثبج البحر: وسطه وأعلاه (لسان العرب).

(٣) سفر وعث: فيه نصب ومشقة (م.ن).

(٤) ماء ثمد: قليل (أساس البلاغة).

ويحك يا نفس! كلما مضى يوم منك فقد ذهب بذهابه بعضك، فاغتنمي الصحة قبل السقم، والشباب قبل الهرم، والفراغ قبل الشغل، والحياة قبل الموت، فما خلقت إلا للعمل، فاطوي عنك التعاليل، وجذّي حبل الأمل، فما دارك إلا مزرعة، ومن يزرع يحصد، ومن يغرس يجتن، ومن يقتن النحل يشتر[1] العسل وإن لدغته زنابره، ومن يغرس الحنظل يجتنِ المر وإن راقت مناظره، ومن أنس لجارية غيره كبر عند أخذها همّه، ومن عشق شيئاً ذاق ألم فراقه، وألم الفراق بقدر لذة التلاق.

ويحك يا نفس! ما هذا الحرص على الشهوات، والانهماك في اللذات، والنهم في الطيبات، فما أشد حماقتك، وأعظم جهلك، فإن كان لُبّك استولى عليه حب النعيم، واجتناء المستأسد منه والجميم، ترفيهاً لهذا الجسد، وتنعيماً لهذا الجسم، فاطلبي له التنعّم بالشهوات الصافية من الأكدار، واللذات الخالصة من الأوزار، والطيبات التي لا انقطاع لأمدها ولا انتهاء لأبدها، أما علمت أن ربّ أكلة منعت أكلات، وربّ شهوة جرّت إلى الهلكات، وربّ نعيم هو العذاب الأليم، وكم من دسم هو لآكله زعاف أو سم.

ويحك يا نفس! لو أن طبيباً أمر مريضاً بترك بارد الماء أياماً قلائل ليبرأ من علّته، ويلتذ بالماء في أيام حياته، فخالف الطبيب بما به أمر، وما على العطش يوماً صبر، إلى أن تمادت به العلّة، وعمّه الداء،

---

(١) يشتر: أصلها يشتار العسل: يستخرجه من موضعه (كتاب العين).

وازداد القياظ[1] به، وأشرف على الفناء، ولا طبيب ينفع حينئذٍ ولا دواء، وأصبح مهبوتاً مبلساً[2]، أكان في ذلك أحمقَ أم كيّساً. ألا وإن النعيم في دنياك، ليمنعك عن التقلّب في نعيم أخراك، والتلذّذ في ملاذ أولاك، ليحول بينك وبين ملاذ عقباك، على أن ما ليس شيء لا يقاس بما هو شيء، وهل يقاس عدم بوجود، ومذموم بمحمود، وخزف بجوهر، وتبن بتبر، كلا ما هذا إلا الحمق الجلي، والكفر الخفي.

ويحك يا نفس! لا تغرك الحياة الدنيا وزينتها، ولا يغرك بالله الغرور، فانظري في أمرك، وامهدي لنفسك، وليكن يومك خير من أمسك، ولا تضيعي أوقاتك باللعب واللهو، والغفلة والسهو.

فقال ربك: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾[3]. وقال إمامك: «وما هي إلا كغيم علا فاستعلى ثم استغلظ فاستوى ثم تمزق فانجلى»[4].

ويحك يا نفس! اجتهدي وجدّي، وأعدي واستعدي، الموت ما أوشك أن يدهمك صبحه، وبابه ما أسرع أن يفاجئك فتحه، ألا وإن من أهمل استعداده لبرد الشتاء حتى فاجأته أعاصيره، لتنفضه نفض السعفة زماجره، ومن تعاطى التسويف حتى دهمته عواصفه، لتتركه كالقوس المحنية رواعده وقواصفه، ومن اعتمد على ما به من القوة

---

(١) القياظ: من القيظ الحر الشديد وحميم الصيف (لسان العرب).

(٢) مهبوت: أحمق، ناقص العقل (م.ن)، ومبلساً: ساكتاً من اليأس (أساس البلاغة).

(٣) سورة الحديد، جزء من الآية رقم ٢٠.

(٤) المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٩ ص١٤١.

والنشاط، ليصيره كمهازيل النياق قره، ومن رجا أن يستعد له في وقته فقبل أن يدركه رجاه، قد يدرك منه العطب برده، وتاجر ملابسه ربما نفرت عيره وقوض نفيره، ويبقى كمن اعترضه الشجى بين الحناجر واللهى.

ويحك يا نفس! ألفت الدنيا فأعمتك زينتها، وأنست بها فألهتك زخارفها، وأنت لا قدم لك فيها ثابت ولا مخلب في التبأ[1] ناشب.

ويحك! إن من دخل بستان غيره، على غير أجل محدود، وأمد مضروب، ليجري منه أنهاراً تجري لبساتينه وسواقيَ تنصب إلى مزارعه، فقصر نظره على أزاهر رياضه، وخمائل حياضه ونضير آسه وورده، وزاهي عراره ورنده[2]، حتى استغرق حبها قلبه، واستلبّ لبّه، وذهل عن عمله، وغفل عن مقصده، حتى صوح[3] من بستانه زرعه، وذوى شجره، أترينه في ذلك عاقلاً أم أحمق؟!.

ويحك يا نفس! لا تكوني كالهدهد، يرى الماء في قعر الأرض، وتغرّه الحبة من الحنطة، فيخفى عليه الفخ وعليه كف من التراب، فلا يزال يعالجها حتى يقتنصه فخها.

ويحك يا نفس! لا تكوني كالدجاج، ينام في الأماكن العالية حذراً من ابن آوى حتى إذا جاءه ألقى بنفسه إليه.

---

(١) التبأ: الغنيمة في الغزو. (لسان العرب).

(٢) الرند من الأشجار الطيبة الرائحة. (لسان العرب).

(٣) صوح من بستانه زرعه: يبس وأصابته آفة. (لسان العرب).

ويحك يا نفس! لا تكوني كشاة، وقعت في زرع أخضر فأكلت حتى سمنت، فكان حتفها في سمنها.

ويحك يا نفس! كم من فتى رأيناه يمرح في دنياه، غضّ الشباب، نضير الغصن، زاهي الفرع:

نراه كالخميلة راق لطفا ... وعن نواره ابتسم الكمام
به ماء الحياة يموج حسناً ... ومن أعطافه عبق المشام
ويقطف من نضير العيش غضاً ... ومغبقه ومصبحه المدام

ألا ومن رميت غصنه بالذبول، وشبابه بالهرم، وصحته بالسقم، أو خدعت ناسكاً عن نسكه، وتنكبت به عن هديه، بأن منحته صفو درتها، وأعطته نضارة زهرتها، فراح منها مغموراً بالغرور، مملوء القلب بالكدر، وهو يحسب أنه سرور، ومضى على دائه يعتسف أثر هوائه:

بسكرة لهوه مرح المساعى ... جموح ليس يثنيه لجام
وآمال يضيق الوهم عنها ... سوارح في مراعيها سوام
وتخبط فيه عشواء الدياجي ... أمان ما لها أبداً زمام
شغوف بالمطاعم والملاهي ... وداء النفس لهوٌ أو طعام
حوانيت الضلال عمرن منه ... وللتقوى زيارته لمام

ويحك يا نفس! هذه اللذات كم غرّت من مخلد إليها، وخدعت من مكبٍّ عليها، وأمهلته الدنيا حتى أطلقت فيها شهواته، وطالت في بيدائها حلباته، وامتدت آماله، ورفعت إلى كل لذة منها أعلامه، كدرت منه كل لذة، ونغصت عليه كل شهوة، وجذّت منه كل أمل، وخيبت كل

أمنية، وجاءته تترى سهام الحتوف، وطيور الموت فوق رأسه لها حفيف ورفيف:

فبين يُرى كنصل السيف الا ... وحبل حياته رث رمام
يدير بأهله طرفاً سقيماً ... ونطق لسانه ملك السقام
وأصبح خافت الأنفاس ضعفاً ... وبين لهاته اعترض الكلام
وما شعرت به أهلوه إلا ... وخف بروحه الموت الزؤام
وأسلمه بنوه إلى ضريح ... ولحد فوقه نُضِدَ الرخام
بذا قضت الليالي في بنيها ... وساوى عندها الصقر الحمام
فلا تجزع لبؤس أو نعيم ... فما للبؤس والنعمى دوام
وليس فتى من الأحياء إلا ... وغايته من الدنيا الحِمام

ثم إن التقوى عطف على كلام سيد الحكماء[1]، يذكرهم به أحوال الأمم الماضية والقرون الخالية. فقال: «أما لكم انتباه ويقظة، واعتبار وعظة، بمن دمرتهم الأيام، وأفناهم الحمام، ما أنتم ونعيماً يفنى ولذة لا تبقى، وها أنتم على سنن من قد مضى قبلكم، ممن كان أطول منكم أعماراً، وأعمر ديارا، وأبعد آثارا، أصبحت أصواتهم هامدة، ورياحهم راكدة... وديارهم خالية، وآثارهم عافية، فاستبدلوا بالقصور المشيدة، والنمارق الممهدة، الصخور والأحجار المسندة، والقبور اللاطئة الملحدة... قد طحنهم بكلكله البلى، وأكلتهم الجنادل والثرى... ولو استنطقتم عنهم عرصات تلك الديار الخاوية والربوع

(١) ما ينقله المؤلف من كلام الإمام علي عليه السلام، من خطب متفرقة، لكنه يجمعه في سياق متصل.

الخالية لقالت: ذهبوا في الأرض ظلالاً، وذهبتم في أعقابهم جهالا، تطؤون في هامهم، وتستنبتون في أجسادهم، وترتعون في ما لفظوا، وتسكنون في ما خرّبوا، وإنما الأيام بينكم وبينهم بوالكٍ ونوائح عليكم.

أولئكم سلف غايتكم وفراط مناهلكم، الذين كانت لهم مقاوم العز، وحلبات الفخر ملوكاً وسوقا. سلكوا في بطون البرزخ سبيلاً، سلطت الأرض عليهم فيه، فأكلت من لحومهم، وشربت من دمائهم، فأصبحوا في فجوات قبورهم جماداً لا ينمون، وضِماراً لا يوجدون، لا يفزعهم ورود الأهوال، ولا يحزنهم تنكر الأحوال... غيّباً لا ينتظرون وشهوداً لا يحضرون... وما عن طول عهدهم وبُعد محلهم، عميت أخبارهم، وصمّت ديارهم، ولكنهم سُقوا كأساً، بدَّلتهم بالنطق خرساً، وبالسمع صمماً، وبالحركات سكونا... ولئن عميت آثارهم وانقطعت أخبارهم، لقد رجعت فيهم بصائر العبر، وسمعت عنهم أذان العقول، وتكلموا من غير جهات النطق، فقالوا: كلحت الوجوه النواضر، وخوت الأجساد النواعم، ولبسنا أهدام البلى، وتكاءدنا ضيق المضجع، وتوارثنا الوحشة، وتهكمت علينا الربوع الصَّموت، فانمحت محاسن أجسادنا، وتنكرت معارف صورنا، وطالت في مساكن الوحشة إقامتنا، ولم نجد من كرب فرجاً، ولا من ضيق متسعاً. فلو مثلتهم بعقلك، وكشف عنهم محجوب الغطاء لك، وقد ارتسخت أسماعهم بالهوام فاستكَّت، واكتحلت أبصارهم بالتراب فخسفت، وانقطعت الألسنة في أفواههم بعد ذلاقتها، وهمدت القلوب في صدورهم بعد يقظتها، وعاث في كل جارحةٍ منهم جديد بلى سمَّجها،

وسهل طرق الآفة إليها... لرأيت أشجان قلوب وأقذاء عيون، لهم من كل فظاعة صفة حال لا تنتقل، وغمرة لا تنجلي»[1]. وكأنكم أيها الجموع الحاشدة والمواكب الملتفة قد صرتم إلى ما صاروا إليه، ونزلتم فيما نزلوا به و«ارتهنكم ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع... فإن الموت هادم لذاتكم، ومكدر شهواتكم، ومباعد طياتكم، زائر غير محبوب وقرن غير مغلوب، وواتر غير مطلوب، قد أعلقتكم حبائله، وتكفنتكم غوائله، واقصدتكم معابله، وعظمت فيكم سطوته، وتتابعت عليكم عدوته، وقلّت عنكم نبوَته، فيوشك أن تغشاكم دواجي ظلله، واحتدام علله، وحنادس غمراته، وغواشي سكراته، وأليم إزهاقه ودجو أطباقه، وجشوبة مذاقه، فكأن قد أتاكم بغتة، فأسكت نجيكم، وفرَّق نديَّكم، وعفى آثاركم، وعطل دياركم، وبعث ورَّاثكم يتقسمون تراثكم، بين حميم خاص لم ينفع، وقريب محزون لم يمنع، وآخر شامت لم يجزع، فعليكم بالجد والاجتهاد، والتأهب والاستعداد، والتزوّد في منزل الزاد، ولا تغرنكم الحياة الدنيا، كما غرّت من كان قبلكم من الأمم الماضية، والقرون الخالية، الذين احتلبوا درتها، وأصابوا غرتها، وأفنوا عدتها، وأخلقوا جدتها... كم أكلت الأرض منهم من عزيز جسد وأنيق لون، كان في الدنيا غذي ترف، وربيب شرف. يتعلّل بالسرور في ساعة حزنه، ويفزع إلى السلوة إن مصيبة نزلت به، ضناً بغضارة عيشه، وشحاحة بلهوه ولعبه، فبينا هو

---

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ص٤٧٩، ٤٨٣، ٤٩٣.

يضحك إلى الدنيا وتضحك إليه في ظل عيش غفول، إذ وطئ الدهر به حسكه، ونقضت الأيام قواه، ونظرت إليه الحتوف من كثب»[1]:

سافر بطرفك هل ترى من سالم ... إن المنون على النفوس بمرصد
كم ضارب فوق السماء قبابه ... شرفاً وآخر في الحضيض الأوهد
جعلتهما للحشر رهن قرارة ... ساوت بذل العبد عز السيد
وتهافتوا عن كل شامخة الذرى ... وترجلوا عن كل سام أجرد
ساروا على عجل وما كان السرى ... منهم بلاحب نفنف أو فدفد
نزلوا بمدرجة الفنا في منزل ... متشابه الأرجاء غير موطد
درجوا على أثر القرون لغاية ... قصوى وكان الفوز للمتزود
سفر اناخوا ليس يرجى منهم ... في الدهر أوبة متهم أو منجد
ركسوا بطارقة البلى في هوة ... ليست بذات قرارة أو مقصد
شغلوا بما كسبت بها أيديهم ... لا منشد يصغي لآخر منشد
يا خابط العشواء يتبع الهوى ... إثنِ الزمام فما الدليل بمهتد
فالقصد أمسى من ورائك فالتمس ... نهجاً فما تنحوه غير المقصد

هـ ـ خطاب العلم والبراهين الساطعة:

ثم أن المطمئنة رنت بطرفها إلى العلم، وقالت له: قم واكشف سدف هذه الغمّة، وأنِرْ حنادس هذه الظلمة بأنوار حججك الساطعة، وأشعة براهينك اللامعة حتى ينجلي الصبح لذي عينين، ويتلألأ

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ص٤٨٣، ٤٩٧، ٤٩٨. (المعبله للسم تجعل فيه (لسان العرب».

شعشعاني الحق لكلا الفريقين، وترجع مواكب الضلالة ناكصة على أعقابها، مدحورة بجمعها وأحزابها، فلقد حملك الله من نور المعرفة وضياء التجلي مصابيح الكشف، ما لو رميت به البهم لاستنارت، أو الضلالة لتحولت هدى، أو الغواية لانقلبت رشدا.

فنهض العلم، وسبحات أنوار الهدى تتلألأ في جبينه، وأشعة مصابيح الرشاد تشع من صفحات وجهه، وكواكب هممه تبزغ مزهرة من رجع لهواته، وتفيض جداولها من جوانبه، وتنطق ألسنتها من نواحيه منحدراً في مقوله، سائلاً في ترسله، راكباً من البيان ثبج لجيه، ممتطياً كواهل غواربه، ساطعاً بصبح الإيضاح، وشموس الكشف، وقد قيد سوابق منطقه، وقصر أعنة مقوله، وبنى مطالب مقاصده على نظم مقدمات، وترتيب مقامات ببيانها ترتفع الغشاوات وتستنير الظلمات.

أولها: في توحيد الله وأزليته، وافتقار ما تقع عليه شوارد الأوهام إلى عليته وسببيته.

ثانيها: في أول ما وقعت عليه إرادة الإبداع، وتناولته يد الإنشاء، من الأنوار الشفافية، والأجسام الروحانية.

ثالثها: في تنبيه العقول الساهية، والقلوب اللاهية، على كبرياء الله، وعظيم جلالته، وجلال جبروتيته، وكبرياء عظمته، بفطر الأكوان، وإجراء الأزمنة، وإبداع المكان، وكيفية خلق السماوات والأرضين وملائكته المقربين.

رابعها: في كيفية خلق آدم عليه السلام، وما أجرى فيه من الطبائع

المتضادة، والصفات المختلفة، وجعلها وراثة في ولده، سارية في ذريته.

خامسها: في قيام البرهان العقلي على إثبات مقصده.

سادسها: في الجمع بيّن أدلة الفريقين، والتأليف بين براهين الطائفتين.

سابعها: إن حقيقة النعيم، إنما هو بالمعارف الإلهية، واللذات العقلية، لا بالعلوم الجسدية واللذات الحسية، وكان أول ما ابتدأ به، ثم أتبعه بحمد مبدأ سلسلة العلل، ومنشأ الحركات الأول.

أيتها العصائب المجتمعة، والمواكب الملتفة، أحزاب الشيطان وأعوان الضلال، أراكم قد استهدفتم للشر، وحششتم[1] نار المكاشرة، وضربت بكم أعراق المصيبة، ورفعت لكم غاية الفتنة الملاحاة، وركبتم في الحث على هذا الأمر كل سنام وغارب. من دعواكم هؤلاء القوم على ما تهواه طباعكم وتشتهيه أنفسكم، معتصمين بحجج هي في بادئ الرأي غير مدحوضة، ومنحازين إلى بينات هي لضعيف النظر غير مرفوضة، ولا غرو إن نزعتم إلى ذلك وفزعتم إليه، إذ ما من شيء إلا وينكس إلى طبعه وينزع إلى نبعه، والعرق نزّاع إلى أصله، فعميت عليكم المقاصد، وتاهت المراشد، وأشكلت الموارد والمصادر، واشتبهت السبل وظلت الغايات، فحسب جاهلكم أن الحق في ما يهواه، واللباب في ما جناه، وأن الباطل نجم قرنه في دعوى صاحبه،

(١) حش النار: مجازاً أطعمها الحطب. (أساس البلاغة).

والحنظل أمسى من أصفى مشاربه، ومن عشق شيئاً أعشى بصره وامرض قلبه، وها أنا بعون الله أرفع لكم عن الحق سواتر حجابه، وأوضح منهاج صوابه.

فانثنت عند ذلك إليه الأعناق، وامتدت نحوه الأبصار، وتطاولت إليه الأسماع، وأصغت له الأذهان، والجهل أصبح منكس الرأس، ضارب الأخماس للأسداس.

فقال العلم: الحمد لله المتوحد في أزليته، الأزلي في وحدانيته، والصمداني في ارتفاعه، والمرتفع في صمدانيته، العالي في دنوّه، والداني في علوه، بكمال بطونه ظهر للبصائر، وبمزيد إشراق ظهوره عشيت عنه النواظر، وقصرت عنه المشاعر، وتقطعت دون أدنى إدراكه أوهام الخواطر، تجلى للخلق بخلقه، وبخلقه امتنع عن باطلها بحقه، متسلط بجبروتيته، متجبر في سلطانه، متملك بقدرته، قادر بملكوته، دائم في بقائه، باق في دوامة، لم يسبقه عدم فيقال كان، ولم يتقدمه زمن فيقال متى كان، ولم يكن حيّز ولا تحيِّز حتى يقال علام استقل وفيم كان، سبق الأوقات كونه، والأزلي قدمَه، والعدم وجوده، وهو الذي خلق الكان والمكان، وأعمد المعتمد وكوَّن الزمان، والصلاة والسلام على النور الساطع والضياء اللامع والسناء البارع والفجر الصادع[1]، روح الكمال وصفوة الأنام محمد ﷺ الذين هم ناشئة القطب وأعلام الفلك.

---

(١) الصادع: المشرق (تاج العروس من جواهر القاموس).

أما بعد فإن الله جلّ جلاله سبق علمه، ونفذ قضاؤه، وجرت إرادته بإبداع الخلائق، وفطر الأكوان، وتكييف الكيف وتأيين الأين، وإجراء الزمان لأسرار خفية وحكم غيبية. عجزت العقول المشرقة عن أن تنالها بعلم، وجبهت البصائر المستنيرة من أن تقع عليها بوهم، وعشيت نواظر العلم من أن تسمو إليها بطرف، وخسئت شوارد المشاعر من أن تلم بها بنعت أو وصف، أنشأها إنشاءً، وابتدعها ابتداعاً، على غير مثال احتذي عليه، ولا مشاركة ظهير استعان به، ولا مشاورة وزير افتقر إليه. ولم يعترضها عند إرادته لإنشائها ريث المبطئ، ولا أناة المتلكئ، بل أسرعت بالإجابة لأمره، والانقياد لدعوته، والإذعان لطاعته، فبقول كن حدثت، وبحدوث يكون، على منهاجها استقامت، وعلى مراكزها ثبتت، ولا رجع حرف يجري هناك في لهى، ولا مد صوت يقطعه في مجاريه نسيم هوى، وإنما فعله إرادة، وخلقه مشيئة، وتكوينه انفعال، ولا إرادة ولا مشيئة ولا فعل ولا أوصاف، وإنما بمظاهره أثبتنا أوصافه، ومن حيث محدثاته أقمنا نعوته، وما هو إلا واحد أحد فرد صمد، وما بقولي أحد واحد أثبت له عما هو عليه معنى زائد، بل هو هو وليس هو إلا هو، وما إشارتي إليه بالهوية رجوع وكَرْ على إقامة صفات ثبوتية، ولكن قصرت العبائر عن الحد، وخرست الألسن عن النعت، وضلّ العلم عن الإشارة، وتاهت الألباب عن الإدراك، وكيف وإنما تنعت العلوم مدركاتها، والألباب مبصراتها.

قال سيد الحكماء: «لا يشمل بحد، ولا يحسب بعد، وإنما تحدّ الأدوات أنفسها، وتشير الآلات إلى نظائرها، منعتها «منذ» القدمية،

وحمتها «قد» الأزلية، وجنبتها «لولا» التكملة بها تجلّى صانعها للعقول، وبها امتنع عن نظر العيون، لا يجري عليه السكون والحركة، وكيف يجري عليه ما هو أجراه، ويعود فيه ما هو أبداه، ويحدث فيه ما هو أحدثه. إذاً لتفاوتت ذاته، ولتجزأ كنهه، ولامتنع من الأزل معناه، ولكان له وراء إذ وجد له أمام ولا تلمس التمام إذ لزمه النقصان، وإذاً لقامت آية المصنوع فيه، ولتحول دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه، وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما يؤثر في غيره...

خضعت الأشياء له، وذلّت مستكينة لعظمته... وهو المفني لها بعد وجودها، حتى يصير موجودها كمفقودها، وليس إفناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من إنشائها واختراعها، وكيف ولو اجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهائمها، وما كان من مراحها وسائمها، وأسناخها وأجناسها، ومبلّدة أممها وأكياسها، على إحداث بعوضة ما قدرت على إحداثها، ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها، ولتحيّرت عقولها في علم ذلك وتاهت، وعجزت قواها وتناهت، ورجعت خاسئة حسيرة، عارفة بأنها مقهورة، مقرة بالعجز عن إنشائها مذعنة بالضعف عن إفنائها»[1].

ثم أن العلم أيقظ أسماع تلك المواكب الحاشدة، والجموع المتراكمة، للإصغاء في ما عليهم يتلوه، والتفكّر في ما يسرده ويمليه، ونبّه قوى مدركاتها لإدراكه، واستفز ألبابها للتأمل والتفكّر به، فقال:

---

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ص٤٠١، ٤٠٤.

أعرني أيها المستمع سمعك، وفرّغ ذهنك، وأيقظ فهمك، وأوقد مصابيح عقلك ولبّك، فسأتلو عليك من عجائب حكمته، وغرائب صنعته، وإتقان تدبره، وانتظام أموره، ما يحيّر الأذهان، ويدهش الألباب، وتقضي العقول المستنيرة من أدنى دركه العجب العُجاب، وترجع كليلة النواظر، خاسئة البصائر، مجبهة بالرد معترفة بالعجز، مذعنة بالتقصير، مستيقنة بأنه لا يدرك كنه قدرته بعد الهمم، ولا ينال دقيق صنعته غوص الفطن، ولا تلم به شاردات الأوهام، ولا تقع عليه سانحات المشاعر، ولا خواطر الأفهام، فربما كان ذلك وسيلة لك للوقوف على عظيم القدرة، وجليل المنزلة، وكبرياء العظمة، وجبروتية السلطان.

اعلم أن الله جلّ جلاله، وكبر مجده، وتعالى شأنه، كان قبل القبل، ولا عرش ولا ماء، ولا كرسي ولا هواء، ولا جو ولا فضاء، فأول ما خلق وأبدع، وأنشأ واخترع، نور الأنوار الذي نورت منه الأنوار، وهو نور نبينا الأطيب الأطهر، والسنا المتلألئ الأزهر، الباسق في دوح الكمال فرعه، والمشتق من جوهر القدس نبعه، والمكون من معدن الصفاء طبعه، خلقه قبل خلق الماء، والعرش والكرسي والهواء، بأربعة وعشرين وأربعمائة ألف عام، وخلق منه اثني عشر حجاباً، أولها حجاب القدرة، ثم حجاب العظمة، ثم حجاب العزّة، ثم حجاب الهيبة، ثم حجاب الجبروت، ثم حجاب الرحمة، ثم حجاب النبوة، ثم حجاب الكبرياء، ثم حجاب المنزلة، ثم حجاب

الرفعة، ثم حجاب السعادة، ثم حجاب الشفاعة، ثم أمره بالدخول في كل واحد من هذه الحجب والمكث بها.

فدخل باب القدرة وهو يسبّح الله ويقدّسه ويقول: سبحان العلي الأعلى. ومكث به اثني عشر ألف عام، ثم أمره بالدخول في كل حجاب، على نقصان من مدة المكث، واختلاف في التقديس والثناء، إلى أن دخل في حجاب الشفاعة وهو يقول: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، ومكث به على هذا الحال اثني عشر ألف عام، ثم أن الله جلّ جلاله خلق من نوره عشرين بحراً من نور، في كل بحر علوم لا يعلمها إلا الله تعالى، ثم قال لنور محمد: أنزل في بحر العز، ثم في بحر الصبر، ثم في بحر الخشوع، ثم في بحر التواضع، ثم في بحر الرضا، ثم في بحر الوفا، ثم في بحر الحلم، ثم في بحر التقى، ثم في بحر الخشية، ثم في بحر الإنابة، ثم في بحر العمل، ثم في بحر المزيد، ثم في بحر الهدى، ثم في بحر الصيانه، ثم في بحر الحيا، حتى تقلب في عشرين بحراً، ثم خلق من نور محمد جوهرة وقسمها قسمين.

فنظر إلى القسم الأول بعين الهيبة، فصار ماءً عذباً، ونظر إلى القسم الأخير بعين الشفقة فخلق منه العرش، فاستوى على وجه الماء، فخلق الكرسي من نور العرش، وخلق من نور الكرسي اللوح، وخلق من نور اللوح القلم، ولما تم خلق هذه الأنوار الشفافية، كان أول ما أنشأ من المخلوقات الروحانية، أشرف موجوداته، وأكمل مخلوقاته، الذي لم تنتظم الأمور إلا بوجوده، ولم تستقم الأشياء إلا به، نعمة الله

الكبرى وآيته العظمى، الهادي إذا السائر ضلّ والمسدد إذا القدم زل، والمنقذ من ديجور الهوى، وورطات الجهل، سيدنا ومليكنا العقل، مدّ الله علينا أروقة ظلاله، وأسبغ علينا نعم هديه وكماله، خلقه الله جلّ جلاله، من نور مخزون في سابق علمه مكنون، لم يطلع عليه نبي مرسل ولا ملك مقرب، أقامه عن يمين عرشه وقربه من قدسي جلاله، وجعل العلم نفسه، والفهم روحه، والزهد رأسه، والحياء عينه، والحكمة لسانه، والترفه همه، والرحمة قلبه، ثم حشاه وقراه بعشرة أشياء:

باليقين، والإيمان، والصدق، والسكينة، والإخلاص، والعطية، والقنوع، والرفق، والتسليم، والشكر. ثم أمره بالإقبال والإدبار، فأسرع لأمره، واستسلم لطاعته، وأذعن بربوبيته، واعترف بإلهيته، ثم استنطقه فقال: الحمد لله الذي ليس له ضد ولا ند، ولا شبيه ولا كفو، ولا عديل ولا مثيل، الذي كل شيء لعظمته خاضع ذليل، فقال تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحسن منك، ولا أطوع لي منك، ولا أرفع منك، ولا أشرف لي منك، ولا أعز منك، بك أحمد، وبك أعبد، وبك أُدعى، وبك أُرتجى، وبك أُبتغى، وبك أخاف، وبك أحذر، وبك الثواب، وبك العقاب، فخر العقل عند ذلك ساجداً لعظمته، شاكراً لجليل نعمته، وجزيل عطيته، فكان في غمرة سجوده، واستكانة خشوعه، وذلة خضوعه ألف عام، لما حباه الله به من مزيد الكرامة وجليل الأنعام، ثم ناداه الرب تبارك وتعالى: ارفع رأسك، وسل تعطَ، واشفع تشفع، فرفع العقل رأسه وهو يقول: إلهي أسألك أن تشفعني فيمن خلقتني فيه، فقال الله سبحانه وتعالى: أشهدكم يا

ملائكتي إني شفعته فيمن خلقته فيه، ثم آزره وأيده، وأقام أركانه وسدده بعشرة أشياء، هي منبع الكمالات، وأمن الخيرات، وأمهات المحامد، وجعل يفيض عن هذه العشرة عشرة، هي لباب المعروف وسنام الجميل، وذروة مكارم الأخلاق، وأمرها بالعكوف على بابه، والقيام بأعتابه والحياطة لساحته، تستمد من فيضه، وتنهل من حوضه، وتهتدي بسنائه، وتبصر بشعاعه وهي:

الحلم، والعلم، والرشد، والعفاف، والصيانة، والحياء، والرزانة، والمداومة على الخير، وكراهة الشر، وطاعة الناصح.

أما الحلم: فعنه يفيض حسن العواقب، والمحمدة في الناس، وتشرف المنزلة، والسلب عن السنة، وركوب الجميل، وصحبه الأبرار، والارتداع عن الضعة، والارتفاع عن الخساسة، وشهرة اللين، والقرب من معالي الدرجات.

ويفيض عن العلم: الشرف وإن كان دنيا، والعز وإن كان مهيناً، والغنى وإن كان فقيراً، والقوة وإن كان ضعيفاً، والنبل وإن كان فقيراً، والقرب وإن كان قصياً، والجود وإن كان بخيلاً، والحياء وإن كان صلفاً، والمهابة وإن كان وضيعاً، والسلامة وإن كان سفيهاً.

ويفيض عن الرشد: السداد، والهدى، والبر، والتقوى، والعبادة، والقصد، والاقتصاد، والقناعة، والكرم، والصدق.

ويفيض عن العفاف: الكفاية، والاستكانة، والمصادقة، والمراقبة، والصبر، والنصر، واليقين، والرضا، والراحة، والتسليم.

ويفيض عن الصيانة: الكف، والورع، وحسن الثناء، والتزكية، والكرم، والغبطة، والسرور، والمنالة، والتفكّر.

ويفيض عن الحياء: اللين، والرأفة، والراحة، والمداومة، والبشاشة، والمطاوعة، وذل النفس، والنهى، والورع، وحسن الخلق.

ويفيض عن المداومة على الخير: الإصلاح، والاقتدار، والعز، والإخبات[1]، والإنابة، والسؤدد والأمن، والرضا في الناس، وحسن العاقبة.

ويفيض عن كراهة الشر: حسن الأمانة، وترك الخيانة، واجتناب السوء، وتحصين الفرج، وصدق اللسان، والتواضع، والتضرع لمن هو فوقه، والإنصاف لمن هو دونه، وحسن الجوار، ومجانبة أخوان السوء.

ويفيض عن الرزانة: التوقر، والسكون، والتأني، والعلم، والتمكن، والحظوة، والمحبة، والفلح، والزكاية، والإنابة.

ويفيض عن طاعة الناصح: زيادة العقل، وإكمال اللب، ومحمدة الناس، والاتعاظ من اللوم، والبعد من الطيش، واستصلاح الحال، ومراقبة من هو نازل، والاستعداد للعدو، والاستقامة على المنهاج، والمداومة على الرشاد.

وبعد أن أكمل الله جلّ جلاله، خلق هذا النور المتلألئ بالكمال، والمتأجج بالهدى، قال سيد الحكماء: «أنشأ سبحانه فتق الأجواء،

---

(١) الإخبات: الخشوع. (تهذيب اللغة).

وشق الأرجاء، وسكائك الهواء، فأجرى فيها ماء متلاطماً تياره، متراكماً زخاره. حمله على متن الريح العاصفة، والزعزع القاصفة، فأمرها بردّه، وسلطها على شدّه، وقرنها إلى حدّه، الهواء من تحتها فتيق، والماء من فوقها دفيق، ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبها، وأدام مربّها، وأعصف مجريها، وأبعد منشأها، فأمرها بتصفيق الماء الزخار، وإثارة موج البحار، فمخضته مخض السقاء، وعصفت به عصفها بالفضاء، ترد أوله على آخره، وساجيه إلى مائره، حتى عب عبابه، ورمى بالزبد ركامه، فرفعه في هواء منفتق، وجو منفهق، فسوى منهن سبع سماوات. جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً، وعلياهن سقفاً محفوظاً، وسمكاً مرفوعاً، بغير عمد يدعمها، ولا دسارٍ ينظمها... ونظم بلا تعليق رهوات فرجها، ولاحم صدوع انفراجها، ووشج بينها وبين أزواجها، وذلل للهابطين بأمره، والصاعدين بأعمال خلقه حزونة معراجها. وناداها بعد إذ هي دخان، فالتحمت عرى أشراجها، وفتق بعد الارتتاق صوامت أبوابها، وأقام رصداً من الشهب الثواقب على نقابها، وأمسكها من أن تمور في خرق الهواء بأيده، وأمرها بأن تقف مستسلمة لأمره، وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها، وقمرها آية ممحوة من ليلها، فأجراهما في مناقل مجراهما، وقدر سيرهما في مدارج درجيهما، ليميز بين الليل والنهار بهما وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما، ثم علق في جوها فلكها... وناط بها زينتها من خفيات دراريها، ومصابيح كواكبها، ورمى مسترقي السمع بثواقب شهبها، وأجراها على أذلال

تسخيرها، من ثبات ثابتها، وسير سائرها، وهبوطها وصعودها، ونحوسها وسعودها.

ثم خلق سبحانه لإسكان سماواته، وعمارة الشفيع الأعلى من ملكوته، خلقاً بديعاً من ملائكته، ملأ بهم فروج فجاجها، وحشى بهم فتوق أجوائها، وبين فجوات تلك الفروج، زَجَل المسبحين، منهم في حظائر القدس، وسترات الحجب، وسرادقات المجد، ووراء ذلك الرجيج الذي تستك منه الأسماع سبحات نور، تردع الأبصار عن بلوغها، فتقف خاسئة على حدودها. أنشأهم على صور مختلفات وأقدار متفاوتات... وعصمهم من ريب الشبهات... وأمدهم بفوائد المعونة، وأشعر قلوبهم تواضع إخبات السكينة، وفتح لهم أبواباً ذللاً إلى تماجيده... لم تثقلهم مؤصرات الآثام، ولم ترتحلهم عقب الليالي والأيام، ولم ترم الشكوك بنوازعها عزيمة إيمانهم، ولم تعترك الظنون على معاقد يقينهم، ولا قدحت قادحة الاحن في ما بينهم، ولا سلبتهم الحيرة ما لاقى من معرفته بضمائرهم... ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع برينها على فكرهم، منهم من هو في خلق الغمام الدُّلّح، وفي عظم الجبال الشمخ، في فترة الظلام الأبهم، ومنهم من خرقت أقدامهم الأرض السفلى، فهي كرايات بيض، قد نفذت في مخارق الهواء، وتحتها ريح هفافة، تحبسها على حيث انتهت من الحدود المتناهية، قد استفرغتهم أشغال عبادته، ووصلت حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته، وقطعهم الإيقان به إلى الوله إليه، ولم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره، قد ذاقوا حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الروية

من محبته، وتمكنت من سويداء قلوبهم وشيجة خيفته، فحَنَوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم، ولم ينفد طول الرغبة إليه مادة تضرعهم، ولا أطلق عنهم عظيم الزلفى ربق خشوعهم، ولم يتولهم الإعجاب فيستكثروا ما سلف منهم، ولا تركت لهم استكانة الإجلال نصيباً في تعظيم حسناتهم، ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤوبهم، ولم تجف لطول المناجاة أسلات ألسنتهم، ولا ملكتهم الأشغال فتنقطع بهمس الجؤار إليه أصواتهم، ولم تختلف في مقاوم الطاعة مناكبهم، ولم يثنوا إلى راحة التقصير في أمره رقابهم، ولا تعدو على عزيمة جهدهم بلادة الغفلات، ولم تنتضل في هممهم خدائع الشهوات»[1].

ثم أن الله تعالى بعد أن أنشأ ﴿ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا * وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ * أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا * وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾[2].

وفي كيفية دحو الأرض، وقذفها في لجج الماء، قال سيد الحكماء:

«كبس الأرض على مور أمواجٍ مستفحلة، ولجج بحار زاخرة، تلتطم أواذيُّ أمواجها، وتصطفق متقاذفات أثباجها، وترغو زبداً كالفحول عند هياجها. فخضع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها، وسكن هيج ارتمائه إذ وطئته بكلكلها، وذلَّ مستخذياً إذا تمعَّكت عليه

---

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ص٧٠، ٧١، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٩ و٢٢٠.

(٢) سورة النازعات، الآيات: من ٢٧ إلى ٣٢.

بكواهلها، فأصبح بعد اصطخاب أمواجه ساجياً مقهوراً، وفي حِكَمةِ الذُّلّ منقاداً أسيرا، وسكنت الأرض مدحوة في لجة تياره، وردت من نخوة بأوائه واعتلائه، وشموخ أنفه وسموّ غلوائه، وكعَمَتْه على كِظَّة جريته، فهمد بعد نزقاته، ولبد بعد زيفان وثباته، فلما سكن هياج الماء من تحت أكنافها، وحمل شواهق الجبال الشُّمخ البذَّخ على أكتافها، فجَّر ينابيع العيون من عرانين أنوفها، وفرَّقها في سهوب بِيْدِها وأخاديدها، وعدَّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها، وذوات الشناخيب الشُّم من صياخيدها. فسكنت من الميدان لرسوب الجبال في قِطِع أديمها، وتغلغلها متسرِّبة في جوبات خياشيمها، وركوبها أعناق سهول الأرضين وجراثيمها، وفسح بين الجوِّ وبينها. وأعدَّ الهواء مُتنسِّماً لساكنها، وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها، ثم لم يدع جرز الأرض التي تقصر مياه العيون عن روابيها، ولا تجد جداول الأنهار ذريعة إلى بلوغها، حتى أنشأ لها ناشئة سحاب تحيي مواتها، وتستخرج نباتها. ألَّف غمامها بعد افتراق لُمعهِ وتباين قَزعه، حتى إذا تمخَّضت لُجَّة المزن فيه، والتمع برقه في كُففه، ولم ينم وميضه في كنهور ربابه، ومتراكم سحابه، أرسله سحاً متداركاً قد أسفَّ هيدبه، تمريه الجنوب درر أهاضيبه، ودفع شآبيبه، فلما ألقت السَّحاب برك بوانيها، وبعاع ما استقلّت به من العبء المحمول عليها، أخرج به من هوامد الأرض النبات، ومن زعر الجبال الأعشاب، فهي تبهج بزينة رياضها، وتزدهي بما ألبسته من ريط أزاهيرها، وحلية ما سمطت به من ناضر أنوارها،

وجعل ذلك بلاغاً للأنام، ورزقاً للأنعام، وخرق الفجاج في آفاقها، وأقام المنار للساكنين على جواد طرقها»[1].

والغرض من إيراد هذا الكلام، وبديع هذا القول، تزيين هذه الرسالة به، وتحليها بلآلي درره، فإنه حوى من البلاغة، ما تخرس الأقلام عن نعته، وتستعجم العبائر عن وصفه، مع كمال الإيضاح عن حقيقة مقصده، وتمام الكشف عما هو بصدده، ولا يعرف الصفوة إلا أهلها، وبنوافح الريح، تعرف الأعراب منابت القيصوم والشيح، والجوهر الفرد يدرك حسنة الغواص، وللاعتراف بالعجز والتقصير عن نعت أدنى فصاحته، هو من إدراك مواقع الكلام، والخبر بتصاريف وجوهه في منتهى غايته، وأنّى لا يكون كذلك، وقد بسقت فروعه في آفاق البلاغة، حتى تفوقت في أعاليها أزاهيره، وأشرقت من أكمامها أنواره، وضربت أعراقه في دوحها، حتى رسخت في تخومها جراثيمه، ونفذ في ما تناهى من قعرها صميمه، أو ما تراه رفيع الذروة بعيد الغاية، واسع الفج، طويل المنهج، لا يركب له ثبج، ولا تخاض منه لجج، إن قسته بماء الغمام، فدلاح كَنَهْور، وعارض مُكفهرّ، ودفع شآبيب، من متراكم أهاضيب، أو نافست به البحر، فتيار عَبَّ عبابه، وزخرت لجاته، وطغت أثباجه، فاستفحل هياجه، وتلاطمت أمواجه، أو تحريت النعت لقعقعته، فقل: فحل رعد هيج نزيقه، فغلت شقاشقه، وهدر فنيقه، أوليث ريع قسورة، فأرعدت زماجره، وعلا زئيره، أو

---

(١) راجع، نهج البلاغة، خطبة ٩١، تعرف بخطبة الأشباح، ص٢٢٣ ـ ٢٢٧.

عادلت به الصم الصلاب. فقل: حديد يقرعه حديد، وجلمود ينحط أثر جلمود، أو شبهته بالرياض، فقل: خميلة عطره، وروضة مزهرة، رقت حواشيها، وراقت سواقيها. قد اجتمع فيها من مختلف الطعم واللون كل زوجين اثنين، فهي تزدهي وتميس، ما بين حلة سندسية، وخضرة زبرجدية وزرقة لازوردية، وحمرة عقيقية، وحق أن أنشد مخمساً فيه ما قيل:

يـا مـنـاراً لـنـا بـه الاهـتـداء ... إن دهـى الـخـلـق خـبـطـة عـشـواء
مِـصْـقَـع الـقـول فـلـيـقـل مـا يـشـاء ... غـايـة الـمـدح فـي عـلاك ابـتـداء
لـيـت شـعـري مـا تـصـنـع الـشـعـراء

كـيـف يـرقـى إلـيـك طـائـر وهـم ... ومـزايـاك أعـجـزت كـل رقـم
بـدء فـيـض الـوجـود أنـت بـقـدم ... يـا أخـا الـمـصـطـفـى وخـيـر ابـن عـم
وأمـيـراً إن عـدت الأمـراء

أنـت مـعـنـى بـدركـه الـعـقـل تـاهـا ... حـيـن رام الـوصـول مـنـه سـفـاهـا
يـا سـمـاءً لا الـفـكـر يـرقـى ذراهـا ... مـا نـرى مـا اسـتـطـال إلا تـنـاهـى
ومـعـالـيـك مـا لـهـن انـتـهـاء[1]

ولنرجع إلى ما نحن بصدده، فنقول: أن الله جلّ جلاله، لما سمك السماء ورفعها، وبسط الأرض ووضعها، وجعل هذه ذات كواكب وأبراج، وهذه ذات جبال وأودية وفجاج. اقتضت حكمته أن تسكن من

(١) وردت الأبيات مخمسة أيضاً لعبد الباقي العمري، وهو شاعر عراقي (١٢٠٦ ـ ١٢٧٩هـ/ ١٧٩٠ ـ ١٨٦٢م). (موسوعة الشعر العربي).

الأرض الفجاج بعد يبابها، وتعمر التلال والوهاد بعد خرابها، قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]، فاعترضوا قوله، وأعظموا فعله، بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[2]، فنبههم على خطئهم وكشف لهم عما خفي عن علمهم، بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3]، فاعترفوا بجهلهم، وأذعنوا بخطئهم بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[4].

قال أبو الحسن، يعسوب الدين، وسيد الحكماء، وإمام الموحدين: «فبعث الله جبرائيل، فأخذ من أديم الأرض قبضة، فعجنه بالماء العذب والمالح، وركب فيه الطبائع قبل أن ينفخ فيه الروح، فلذلك سمي آدم، لأنه لما عجنه بالماء استأدم، فطرحه بالجنة كالجبل العظيم، فكان خلقه من ماء وطين، ونور وظلمة، وريح ونور من نور الله»[5].

وهذا الحديث قد اشتمل على كنوز من العلم، فلنتعرض لشرح بعض فقراته، بضرب من الإجمال، واختصار من البيان، مستنبطاً له من مضامين أحاديث وعدة أخبار:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٣٢.
(٥) المجلسي، بحار الأنوار، ج٥٤ ص٩٤.

اعلم أن الماء والطين هما أصل آدم عليه السلام، في مبدأ خلقته وأول نشأته، فبعد أن تكوّن منهما، وتصلصل من حقيقتهما، وتميَّز بالصورة النوعية التي افترق بها عن المادة الجسمية، أولج فيه الروح الحيوانية، المسماة فيما تقدم بالحسية الحيوانية، والمعبَّر عنها في الحديث بالريح، وجعل مصدرها وموردها الجهل، تمرح في فجه، وتدرج في نهجه، وهو المعبر عنه في الحديث بالظلمة.

ثم ناط به جوهراً شريفاً، وخلقاً لطيفاً، وهو المعبر عنه في الحديث بالنور، وعند الحكماء بالنفس الناطقة، وأيدها بالعقل، والمعبَّر عنه في الحديث بالنور الإلهي، فكان آدم عليه السلام مركباً من أشياء أربعة: الماء، والطين، والنفس الحيوانية، والروح.

أما الماء والطين فهما: أصل الجسد وبنيته، وذات الجسم وحقيقته، والنفس والروح قائمان ومتلبسان في بنيته، فمن قبل التراب انبعثت يبوسته، ومن قبل الماء حدثت رطوبته، ومن النفس كانت حرارته، ومن قبل الروح كانت برودته.

ثم أن الله جلّ جلاله، بمقتضى حكمته، وإتقان صنعته، خلق فيه طبائع أربع هي: ملاك الجسد وقوامه، وبها بقاؤه ودوامه، لا تقوم واحدة منهن إلا بالأخرى، وهي المرة الصفراء، والمرة السوداء، والدم، والبلغم، ثم أسكن بعض هذا الخلق في بعض، فجعل مسكن اليبوسة في المرة السوداء، ومسكن البرودة في المرة الصفراء، ومسكن الحرارة بالدم، ومسكن الرطوبة في البلغم، فإذا اعتدلت هذه الطبائع، اعتدلت جثته وصحت بنيته، وإن واحدة ضعفت منها وكانت الغلبة لما

يقابلها، اعترى البدن النقص من جهتها، وجاءه السقم من قبلها، ولكل واحدة من الأربع التي تكون منها الجسد صفات قائمة بها ونعوت لازمة لها.

ـ أما الماء: فهو جوهر لطيف مشرق في ذاته، عدل متوسط، أصل كل شيء وإليه ينسب كل شيء، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾[1]، وعنه ينبعث من الأخلاق: العفة، والكرم، والتوسع، والسهولة، والتوسل، والقرب، والقبول، والرجاء، والاستئثار.

وأما الطين فهو كثيف مظلم، وعنه تنبعث أخلاق عشرة، هي أمهات الرذائل، وأصل النقائص، وهي: القسوة، والبخل، والحصر، والفظاظة، والبرم، والشح، واليأس، والقنوط، والعزم، والإصرار.

ـ وأما النفس: فهي كمال أول الجسم الطبيعي، إلى جهة ما يدرك من الجزئيات، ويتحرك بالإرادة، ولها قوتان: مدركة، ومحركة.

أما المدركة فهي: إما في الظاهر، أو في الباطن.

ـ أما في الظاهر فهي خمس وهي: السمع، والبصر، والشم، واللمس، والذوق.

وأما في الباطن فهي خمس وهي: الحس المشترك، والخيال، والوهم، والحافظة، والمتخيلة، وتسمى بالمفكرة إذا استعلمتها النفس بواسطة القوة العقلية، وإن استعملتها بواسطة القوة الوهمية فمخيلة.

---

(١) سورة الفرقان، جزء من الآية: ٥٣.

وأما القوة المحركة فعند الحكماء تنقسم إلى فاعله وباعثه.

ـ أما الباعثة فهي المسماة بالشوقية، وهي القوة التي إذا ارتسمت صورة مطلوبة، أو مهروبة عنها، حملت القوة الفاعلة على تحريك آلات الحركة، والشوقية ذات شعبتين: شهوية، وغضبية. والقوة الغضبية هي المباشرة للتحريك، التي من سماتها أن تعد العضلات للتحريك، وعن هذه النفس تنبعث صفات عشرة: الحدة، والخفة، والشهوة، واللعب، والضحك، والسفه، والخداع، والعنف، والخوف، وهي المحركة للجسد، والناهضة به إلى ما تقتضيه أخلاقها، وتميل إليه طباعها، من الطيش والهزليات، والانهماك بالمطعومات والمشروبات، ليس لها همة إلا تغذية الجسد، وتنمية الجسم، ومصدرها وموردها الجهل، الذي هو الظلمة الجسدية الحادثة من جهة التراب، فهي مؤيدة به، ومسددة بجنده، للتشاكل والتجانس الذي بينها وبينه، إذ كل منهما مظلم في ذاته، أعمى في شؤونه، وهو يصدر ويعقل عن الشيطان، كما أن العقل يعقل ويصدر عن الرحمن.

ـ وأما الروح فإنها جوهر شفافي، مرآتي نوراني، وهي المعنية بالخطابات الإلهية، والمقصودة بالأوامر التكليفية، وعنها اختلفت العبارات، وإليها تفاوتت الإشارات، فعند الفلاسفة والحكماء تسمى بالنفس الناطقة تارة، وبالإنسانية أخرى، وعند الحكماء الإسلاميين، بالمطمئنة مرَّة، وبالكلية الإلهية أخرى، وفي بعض الأخبار بالنور، وأكثر ما يطلق عليها اسم الروح، وهي المعنية بقوله جلّ وعلا:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[1]. وقد ايدها الله جلّ جلاله بالعقل، وسدّدها بجنده، وجعلها تقوم بهداه وتقعد برشده، وتفزع إليه عند اعتكار الحنادس، وتراكم ظلم الوساوس، فيكشف لها عن الأمر ما دجا من ظلمه، واستحلك من بُهمِه، فهي ما دامت في سلطانه، لا تعمى عليها مشتبهات الأمور، ولا تخفى عليها مخبآت الستور.

ومن صفاتها: الحلم، والوقار، والعفاف، والحياء، والبهاء، والفهم، والكرم، والصدق، والرفق، والكِبَر، فبها يعرف المرء الحق من الباطل، والرشد من الغي، والصواب من الخطأ، وبها عَلَّم وتعلَّم، وحكم وعقل، واستحى وتكرم، وتفقه وتفهم، وتحذر وتقدم.

فكان آدم عليه السلام، مركباً من أمرين حسيين وهما: الماء، والتراب، وأمرين عقليين وهما: النفس الحيوانية، والكلية الإلهية. والأولى مؤيدة بأمر معنوي وهو الجهل وجنوده، والأخرى بنور إلهي وهو العقل وجنوده، وكل اثنين من هذه الأمور الستة قرنان متصاولان، وخصمان جدلان، وفحلان متناطحان، فكل من غلب منهما على قرنه كانت مملكته بيده، وتصرفها بإرادته، وتحركها بمشيئته.

فكان هذا النوع من الحيوان الذي يشار إليه بالإنسان، مؤلفاً من أمرين متضادين، وأصلين متباينين، وإن لكل أسباباً وموارد وأغذية تدني صاحبها إلى مركزه وتقربه إلى عالمه، وأغذيتهما متباينة متضادة، وموادهما مختلفة متعاندة، فهما دائبان في تعب ونصب، فإن تهيأ

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

للجسد ما يدنيه على مركزه، جذب الروح فانتكست مغلوبة مقهورة، فكساها من ملابسه الغشاوات الظلمانية، ودنسَّها بالكثافات الجسمانية، فعادت في حكمة الذل مأسورة، وعلى إرادات الجسد مجبورة، وإن تهيأت للروح أغذيتها المدْنية لها إلى مركزها، وتوفرت دواعيها الناهضة بها إلى عالمها، جذبت الجسد إليها، وغمدت أزمة إرادته في يديها، فكعمته عن إرادته، وحالت بينه وبين شهواته، فشمله من البؤس والضرر والألم والضجر ما لا يقدر على ردّه، ولا ينهض بدفعه، فهما على ذلك ما دام التأليف بينهما قائماً، والتركيب ثابتاً، ولا يكون لأحدهما الراحة العظمى والسرور الخالص، إلا بإعدام الآخر وفنائه، والحيلولة بينه وبين مركزه، بقطع مواد ملاذه، وحسم ملاك أغذيته. إذ ما هو لأحدهما غذاء وقوام، هو للآخر علقم وسمام، واعلموا أن السبب الموجب لهذا التأليف، والعلّة الباعثة على هذا التركيب، هو أن هذا الجوهر اللطيف، القائم بالجسد قيام التصرف والتدبير المسمى بالروح، لما كانت حالة تجردها في عالمها، وقيامها في مركزها، لها من التأثير بالموجودات والتصرف في الكائنات، قدرة تحملها على الغرور، وتتجاوز بها عن الحد، ولا يؤمن من أن تنازع محدثها في ربوبيته، وتنزع إلى دعوى المشاركة في إلهيته، لطف بها القديم الأزلي، ومبدأ الفيض اللطفي، بإبداع هذا الهيكل الجسماني، وإحداث هذا الجسد الترابي، وجعل بينهما التضاد في جميع الأسباب والموارد، ثم أهبطها من عالمها، فعلقها به، وبسطها في أحنائه وفصوله، وبثها في صفائحه، وحبسها في أدواته وجوارحه، فهي داخلة به، لا دخول

المظروف في ظرفه، وقائمة به، لا قيام الوصف في موصوفه، ونافذة به، لا نفوذ الهواء في مسام الأجسام، بل كتعلق أهداب الشمس بسطح الكره، وجعلها لتعلقها به أمداً مضروباً، وأجلاً محدوداً.

في هبوطها للجسد قال ابن سينا:

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة ناظر ... وهي التي سفرت ولم تتبرقع[1]

فهي دائماً تنزع إلى الخلاص، وتروم المخرج، فلا تستطيع لذلك مظهراً، ولا تصيب منه معبراً، حتى إذا انقضت مدتها، وفني أجلها، أرسل إليها من يشاكلها من الروحانيين، فقطع تلك العلقة، ونقض ذلك التركيب، وفرق هذا التأليف، فيبقى الجسد بعد مفارقتها معطلاً، ويكر إلى أصله راجعاً، لا يبصر ولا يسمع، ولا يلفظ كسائر الجمادات، فبمر الأعاصير والسوافي، واختلاف الأيام والليالي، تتحلل أجزاؤه وتنتقض تراكيبه، فيرجع إلى ما منه بدأ، وإليه يعود، فقال جل وعلا: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[2].

وأما الروح، فإنها تستقر على حالها، لا هي من الدنيا الفانية ولا من الآخرة الباقية، تسمى بعالم البرزخ إلى يوم البعث والنفخ، مرتهنة بعملها، موكلة إلى ما جنته في الدنيا يدها، إما نعيماً أو هواناً.

---

(١) من قصيدة لابن سينا في النفس، وهي على ما وصفها ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء من أجل قصائده وأشرفها، ص٤٤٦.

(٢) سورة طه، الآية: ٥٥.

فإذا انتظمت هذه المقدمات، وتحرَّرت هذه الكليات، على إيجاز منها واختصار من مطالبها، فأقول إن الله جلّ جلاله، لما أهبط الروح لهذا العالم، وعلقها في هذا الجسم، اقتضت حكمته، وهو الغني عن إطاعة من أطاعه، والذي لا تضره معصية من عصاه، أن تدين له بالطاعة، وتعلن بالعبودية، وتذعن بالربوبية، وتعترف بالإلهية، قال جلّ جلاله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]،

وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[2].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[3].

وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[4].

وفي الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً، فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق لكي أُعرف»[5]. فامتحن نفوس عباده بمشاق الأعمال، واختبرها بارتكاب محاسن الأفعال، وخصال الخير وضروب أعمال البر، من عبادات بدنية، وقربات مالية، وما جمع الوصفين، وحد لها حدوداً، وشرط لها شرائطَ في معاملاتها، بالمحافظة عليها ينتظم عيش النوع الإنساني، وتصلح حياة هذا البدن الفاني، ويذلّ بذلك عزتها، ويرغم أنفها، ويكسر شوكتها، ويخمد جمرتها، ويطفئ لهبها، ويميز

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٦.

(٤) سورة الملك، الآية: ٢.

(٥) الرازي: تفسير الرازي، ج٢٨ ص٢٣٤.

مطيعها من عاصيها، وسعيدها من شقيها، وجعل لها أعمال الخير وأفعال البر، وصافي العبادة، وخالص الطاعة، غذاء يتقوم به وجودها، وتصفو حياتها، ويكمل بقاؤها، وصيقلاً لما تكسبه من الغشاوات الدنيوية، والأدناس الجسمانية، تزداد كلما جدت في فعلها تلألؤاً وإشراقاً، ولطافة وصفاءً، ليكمل استعدادها لتلقي الفيض، والتقلب في نعيم الكشف، ورياض القرب، ما أعده لها على تلك الأعمال نعيماً لا ينقطع أبداً إلا بمشيئته، وسروراً لا يفنى إلا بإرادته، وأظهر أوصافه، أنه لا يخطر على قلب بشر ما عدا رسله، وما حدّ به من النعوت، وأشير إليه من الصفات فهي إشارات وعلامات، وتقريب للمغيبات بالمشاهدات، وإلا لما كان عيانه أعظم من سماعه.

ثم أن الله جل جلاله، جعل مظاهر تلك الأعمال، ومحل تلك الأفعال، أدوات الجسد، وجوارح الجسم، يمضي على إراداة الروح، لما فيه من التسخير، ويجري على مشيئتها، لما فيه من الانقياد في أصل التكوين، ولما كان الجسم مراداً منه البقاء إلى مدة خاصة، وأمد معين، وكان ذلك لا يتم إلا بما يتقوم به وجوده، وينمى نموه، من الأغذية التي تشاكله وتجانسه، جعل له مكونه مما يجانسه، أغذية ومطاعمَ، مبدأها التراب، ومنتهاها التراب، ليكون بذلك نشيطاً قوياً غير مصدوع، ولا منشعب، لتتمكنَّ الروح من إيجاد ما ألزمت به من العمل على جوارحه، وإظهارها على أدواته، إلى أن يستكمل مدته، ويتخطّى الأيام على أجله.

ثم أن الحكيم بمقتضى حكمته، جعل له حداً ينتهي إليه في أغذيته،

وشرائط يقف عندها في أيام مدته، ولم يجعله مطلقاً سائماً، ولا مهملاً مرسلاً، إذ لو تمت إرادته، وأطلقت شهواته، لشرس على الروح واستصعب، وربما حملته الشراسة على ما به الهلاك والعطب، فلا يؤمن من أن يجذب الروح إلى مركزه، ويحملها على إرادته، فترتكس في هوته، وترتبك في ظلمته، فينوء جدها عما هي بصدده من تحصيل فرائض الأعمال، وتفتر عزائمها عما كلفت به من ارتكاب محاسن الأفعال، وكانت العبادة عليها أشق عمل تعمله، وأصعب فعل ترتكبه، وربما نأت بها شراسة الجسد عن الانقياد والطاعة، وطمحت بها إلى الشقاق والمعصية، فإذا استمرت على الغواية، فربما تخلّت منها العناية، وقضي لها بخاتمة السوء، ويا بؤساً لها من نهاية. ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[1]. فترد من الآخرة على أشرها مورد، ويقال لها بئس الورد المورود، وحيث أن هذه الطامة الكبرى والبلية العظمى، إنما هي من تمادي الجسد في شهواته، وتنعمه في لذاته، وانهماكه في طيباته، كأن كلما قلّ غذاؤه، وضعفت شهوته، إلا ما به من قوام وجوده، وبقاء نموه، أعون للروح على النهوض بتكاليفها، والقيام بعباداتها، والملازمة لطاعاتها، وسبباً متيناً للازدياد في تحصيل القرب، ووسيلة تامة للترقي في درجات الكمال، وربما سمت بها الكمالات الروحانية، إلى التجرد عن الملابس الطبيعية، فهبت عليها النفحات القدسية، وغمرتها الفيوضات

---

(١) سورة الروم، الآية: ١٠.

الربانية، ووقفت بها السعادة الأبدية على أبواب الفيض، ومغالق الكرامة، تقرعها بيد الابتهال والضراعة، وقد تسمح لها الإرادة بجواب السعادة، بـ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[1].

ولما كانت هذه السعادة الكبرى، والنعمة العظمى، إنما هي من التجافي عن ملاذ الجسد وطيباته، وذلك الشقاء الأكبر، والبلاء الأعظم، إنما هو للإقبال على شهواته، وتنعمه في ملاذه، كانت جديرة أن لا يعيرها العاقل طرفاً، ولا يصغي لها سمعاً، ولا ينزل منها في قراره، ولا يتبعها بإشاره، ولا يتخذ منها رياشاً، ولا يجعل نضارة أزاهيرها له معاشاً، وأن يضرب عنها صفحاً، ويطوي دونها كشحاً، لأن من كانت عاقبته الوخامة، فالأجدر به أن يلفظ لفظ النخامة، ومن كانت عاقبته جيفة، فحيق له أن تتباعد عنه كل نفس شريفة:

أيها النفس الشريفة إنما دنياك جيفة
وعقول الناس في رغـ بتهم فيها سخيفة[2]

ثم إن العلم التفت إلى الأمّارة، وقال لها: هذا ما قضت به الأدلة الحكمية، والبراهين العقلية، وهو أن ليس للجسد من أغذيته، ولا حق له من ملاذه، إلا ما به قوام وجوده، ودوام حياته، ليقوى على التخلق بأخلاق الروحانيين، والنهوض بخدمة رب العالمين، لكي يفوز

---

(١) سورة الفجر، الآيات: ٢٧ إلى ٣٠.

(٢) البيتان لبهاء الدين زهير (٥٨١ ـ ٦٥٦هـ/ ١١٨٥ ـ ١٢٥٨م). (موسوعة الشعر العربي).

بالدرجات العالية، والمراتب السامية، وما زاد عن ذلك، لا بد له من دليل قاطع، وبرهان ساطع. يحكم به العقل الأول على الطرق المستقيمة، والنهج الأمثل، وأما ما اعتصمت به أنت ومن جرى في نهجك، من ظواهر الأدلة النقلية، والبراهين اللفظية، حيث عمدت إلى كرائم آياته، وشرائف بيناته، فنصبتها للجاهل المغرور حبائل، وثبتها للضال المفتون أشراكاً، فهي:

ـ أولاً: لنظائرها من الآيات، دارجة على سنن الإهمال، لا حظ لها في شيء من الأمر، إلا مشروعية أحكام الأفعال، فإذا تلبس الجسد من هذه الطيبات مما يكون به قوامه، كان ما زاد على ذلك محتاجاً إلى دليل يثبت للمرء اعتصامه.

ـ ثانياً: إنها ظاهرة في الرخصة والإباحة، لا الحث والتحريض، وإن ذلك ظاهر منها بالصراحة. والإباحة ما تساوى بها الطرفان، وفقد من كل منهما على الآخر الرجحان، وما ساوى وجوده العدم يحكم العقل الفطري عليه برجحان العدم.

ـ ثالثاً: إنها واردة كما هو ظاهر، أكثرها للرد على من ذهب فيها إلى التحريم، فهي آبية عن الحجة إذ لا إطلاق بها على المدعي ولا تعميم، ولئن قلت إنها واردة مورد التعطف والامتنان، فالإطلاق لها لازم والعموم بها قائم، فهي أكبر حجّة وأعظم برهان، قلنا بتناول ما يحتاج إليه جسد الإنسان، يتم التعطف، ويتحقق الامتنان.

ـ رابعاً: إن من تدبرها رآها واردة عقيب توهم الحظر، والمتبادر منه مع القرينة الرخصة، عند أولي التحقيق إذا ورد عقيبه الأمر.

ـ خامساً: لو أرخينا لك العنان، وجرينا معك في حلبة هذا الميدان، بأن أسلمنا لك في تلك الأدلة اللفظية الإطلاق، وقلنا إن لها في العموم لمدعاك السياق، فهي مخصصة بما تقدم من الأدلة العقلية، ومقيده بما ذكرنا من البراهين اللبية، إذ تلك ظنية وهذه قطعية.

ـ سادساً: لو تركناك على غرك، وطويناك على كسرك، نقول: تلك الأدلة النقلية، مخصصة ومقيدة ببراهين مثلها نقلية، ألم يكفك في ذم الدنيا ونعيمها ما تلته عليك السيدة المطمئنة، من جرى في حلبتها بحمل عموماتك فيها على التخصيص، إذ آياتك معلنة بالظهور، وآياتهن معلنة بالتنصيص، ولئن أنعشت منك الآمال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾[1]، فلقد جذت مرائر أشطانها: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[2].

ولئن هي أثارت منك للشهوات الطمع، فلقد خيبته: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[3].

ولنزيدك بياناً، ونوسعك حجة وبرهاناً، إن ما اعتصمت به من

---

(١) سورة الأعراف، جزء من الآية ٣٢.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٣) سورة طه، الآيتان: ١٣١ و١٣٢.

الحجج، وظننت أن له بك على غيرك الغلبة والفلج، بما كان من قبيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾[1].

فلقد صرحت لها عن حدود قائمة، وشرائط لازمة، ومخصصات لعموماتها صارفة، ومقيدات لإطلاقاتها نافية، التي تنهدّ لها أركان لذات المتقين، وتتحول سما زعافاً لذّات المطاعم للعارفين، وهي قوله جلّ وعلا: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[2].

انظري، وهيهات منك النظر! وقد طبع الرين[3] على قلبك، وأعمى حب الشهوات منك البصر، فإن الله جلّ جلاله، لم يكتف في إباحة نعمه لعباده بمجرد الإيمان، وإن تجاوزت الحدود بالإثم والعدوان. بل اشترط زيادة على الإيمان والعمل الصالح، تقوى يتساوى عند صاحبها الناصح والكاشح، ثم قرنها بالازدياد في الإيمان، والمواظبة على العمل الصالح في كل أوان. ثم شدد بتكرير الشرط على الترقي في التقوى والسمو في درجات الإيمان، لتنجلي للعبد الحجة ويتضح له ساطع البرهان، من أن ما أباحه له من المطاعم ليس ليتنعم فيها تنعم البهائم، ويكون عن شكر المنعم في غفلة الساهي وسكرة النائم. ثم كرّ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٣.

(٣) الرين: الدنس. يقال ران على قلبه أي غلب (الصحاح).

مراجعاً على تأكد شرط التقوى مقروناً بشرط الإحسان، وهذه مرتبة لا تنال أدنى درجاتها إلا بالمجاهدة والرياضة لنفس الإنسان، إذ النفوس على الظلم مجبولة «وإن تجد ذا عفّة فلعلّة لا يظلم»[1].

ويحك أيتها الأمارة! لقد هدرت سقباً، وطرت شَكِيراً[2]، وأثمرت وَدِياً[3]، من الذي يقوم بهذه الحدود، وينهض بهذه الشرائط، ويكون في حركات نفسه خير عادل، وفي أفعال جوارحه أعدل قاسط، خميص البطن من الجرائم، سليم الجوارح من المآثم، خالي الصحائف من السيئات، مشحون الديوان من الحسنات، حتى إذا تمادى في لذاته، وانهمك في طيباته، لا يخرج فيها عن حدّه، ولا يطغيه الترفه والترف، فيكون تارة في جزره، وأخرى في مدّه.

ولنختم الكلام بما ذكره بعض العلماء الأعلام[4]، من أن اللذات العقلية، أشرف وأكمل من اللذات الحسية، والعاقل لا يختار الأنقص على الأكمل، ولا يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وبرهان ذلك من وجوه:

«الأول: أنه لو كانت سعادة الإنسان متعلقة بقضاء الشهوة وإمضاء الغضب، لكان الحيوان الذي يكون أقوى في هذا الباب من الإنسان

---

(١) المتنبي، والبيت:

الظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

(ديوان المتنبي).

(٢) الشكير: الريش: (تاج العروس من جواهر القاموس).

(٣) ودياً: مكروه (أساس البلاغة).

(٤) يقصد العلامة المجلسي.

وأشرف منه، فإن الجمل أكثر أكلاً من الناس، والذئب أقوى في الإيذاء من الإنسان، والعصفور أقوى على السفاد[1] من الإنسان، فوجب كون هذه الأشياء أشرف من الإنسان؟ لكن التالي معلوم البطلان بالضرورة، فوجب الجزم بأن سعادة الإنسان غير متعلقة بهذه الأمور.

الثاني: أن كل شيء يكون سبباً لحصول السعادة والكمال، فكلما كان ذلك الشيء أكثر حصولاً، كانت السعادة والكمال، فلو كان قضاء شهوة البطن والفرج سبباً لكمال حال الإنسان ولسعادته، لكان الإنسان كلما أكثر اشتغالاً بقضاء شهوة البطن والفرج، وأكثر استغراقاً فيه، كان أعلى درجة، وأكمل فضيلة، لكان التالي باطل، لأن الإنسان الذي جعل عمره وقفاً على الأكل والشرب والبعال، يعد من البهيمة، ويفضي عليه بالدناءة والخساسة، وكل ذلك يدل على أن الاشتغال بقضاء هاتين الشهوتين، ليس من باب السعادات، والكمالات، بل من باب دفع الحاجات، والآفات.

الثالث: أن الإنسان يشاركه في لذة الأكل والشرب جميع الحيوانات الخسيسة، فإنه كما أن الإنسان يلتذ بأكل السكر، كذلك الجمل يلتذ بتناول السرقين[2]، فلو كانت هذه اللذات البدنية هي السعادة الكبرى للإنسان، لوجب أن لا يكون للإنسان فضيلة على هذه الحيوانات الخسيسة، بل نزيد ونقول: لو كانت سعادة الإنسان متعلقة

---

(١) السفاد: التقليح (للطير). (لسان العرب).

(٢) السرقين: نوع من الشوك. (تاج العروس من جواهر القاموس).

بهذه اللذات الخسيسة، لوجب أن يكون الإنسان أخس الحيوانات، والتالي باطل، فالمقدم مثله، وبيان وجه الملازمة أن الحيوانات الخسيسة مشاركة للإنسان في هذه اللذات الخسيسة، إلا أن الإنسان تتنغص عليه المطالب بسبب العقل، فإن العقل سمي عقلاً لكونه عقالاً له، وحبساً له عن أكثر ما يشتهيه، ويميل طبعه إليه، فإذا كان التقدير أن كمال السعادة ليس إلا في هذه اللذات الخسيسة، ثم بيّنّا أن هذه اللذات الخسيسة حاصلة على سبيل الكمال والتمام للبهائم والسباع، من غير معارض ومدافع، وهي حاصلة للإنسان مع المنازع القوي، والمعارض الكامل، وجب أن يكون الإنسان أخس من الحيوانات، ولما كان هذا معلوم الفساد بالبديهية، ثبت أن هذه اللذات الخسيسة ليست موجبة للبهجة والسعادة.

الرابع: أن هذه اللذات الخسيسة إذا بحث عنها فهي في الحقيقة ليست لذات، بل حاصلها يرجع إلى دفع الألم، والدليل عليه: أن الإنسان كلما كان أكثر جوعاً، كان التذاذه بالأكل أكمل، وكلما كان ألم الجوع أقل كان الالتذاذ بالأكل أقل، وأيضاً إذا طال عهد الإنسان بالوقاع، واجتمع المني الكثير في أوعية المني، حصلت في تلك الأوعية دغدغة شديدة، وتمدّد وثقل، وكلما كانت هذه الأحوال المؤذية أكثر، كانت اللذة الحاصلة عند اندفاع المني أقوى، ولهذا السبب فإن لذة الوقاع في حق من طال عهده بالوقاع يكون أكمل منها في حق من قرب عهده به.

فثبت أن هذه الأحوال التي يظن أنها لذات جسمانية، فهي ليست

في الحقيقة إلا دفع الألم، وهكذا القول في اللذة الحاصلة بسبب الثياب، فإنه لا حاصل لتلك اللّذة إلا دفع ألم الحر والبرد، وإذا ثبت أنه لا حاصل لهذه اللذات إلا دفع الآلام، فنقول: ظهر أن ليس فيها سعادة، لأن الحالة السابقة هي حصول الألم، والحالة الحاضرة عدم الألم، وهذا العدم كان حاصلاً عند عدم الأصلي، فثبت أن هذه الأحوال ليست سعادات ولا كمالات البتة.

الخامس: إن الإنسان من حيث يأكل ويشرب، ويجامع ويؤذي، يشاركه سائر الحيوانات، وإنما يمتاز عنها بالإنسانية، وهي مانعة من تكميل تلك الأحوال، وموجبة لنقصانها وتقليلها، فلو كانت هذه الأحوال عين السعادة، لكان الإنسان ناقصاً شقياً خسيساً، ولما حكمت البديهة بفساد هذا التالي، ثبت فساد المقدم.

السادس: أعلم أن العلم الضروري حاصل، بأن بهجة الملائكة وسعادتهم، أكمل وأشرف من بهجة الحمار وسعادته، ومن بهجة الديدان والذباب وسائر الحيوانات والحشرات، ثم لا نزاع أن الملائكة ليس لها هذه اللذات، فلو كانت السعادة القصوى ليست إلا هذه اللذات، لزم كون هذه الحيوانات الخسيسة أعلى حالاً وأكمل درجة من الملائكة المقربين، ولما كان هذا التالي باطلاً، كان المقدم مثله. بل ههنا ما هو أعلى وأقوى مما ذكرناه، وهو لا نسبة لكمال واجب الوجود، وجلاله وشرفه وعزته إلى أحوال غيره، مع أن هذه اللذات الخسيسة ممتنعة عليه، فثبت أن الكمال والشرف يحصلان بسوى هذه اللذات الجسمية، فإن قالوا ذلك الكمال لأجل حصول الإلهية، وذلك

في حق المخلوق محال، فنقول: لا نزاع في أن حصول الإلهية في حق الخلق محال، إلا أنه ﷺ قال: تخلقوا بأخلاق الله، والفلاسفة قالوا: الفلسفة عبارة عن التشبّه بالإله بقدر الطاقة البشرية، فيجب عليه أن يعرف تفسير هذا التخلّق وهذا التشبيه، ومعلوم أنه لا معنى لهما إلا تقليل الحاجات، وإضافة الخيرات والحسنات، لا بالاستكثار من اللذات والشهوات.

السابع: إن هؤلاء الذين حكموا بأن سعادة الإنسان ليس إلا في تحصيل هذه اللذات البدنية، والراحات الجسمانية، إذا رأوا إنساناً أعرض عن طلبها، مثل أن يكون مواظباً للصوم، مكتفياً بما جاءت به الأرض، عظم اعتقادهم فيه، وزعموا أنه ليس من جنس الإنسان بل من زمرة الملائكة، ويعدون أنفسهم بالنسبة إليه أشقياء أراذل، وإذا رأوا إنساناً مستغرق الفكر والهمة في طلب الأكل والشرب والوقاع، مصروف الهمّة إلى تحصيل أسباب هذه الأحوال، معرضاً عن العلم والزهد والعبادة، قضوا عليه بالبهيمية والخزي والنكال، ولولا أنه تقرر في عقولهم أن الاشتغال بتحصيل هذه اللذات الجسدانية نقص ودناءة، وأن الترفع عن الالتفات إليها كمال وسعادة، لما كان الأمر على ما ذكرنا، ولكان يجب أن يعيبوا على المعرض عن تحصيل هذه اللذات بالخزي والنكال، وعلى المستغرق فيها بالسعادة والكمال، وفساد التالي يدل على فساد المقدم.

الثامن: كل شيء في نفسه يكون كمالاً وسعادة، وجب أن لا يستحي من إظهاره، بل يجب أن يفتخر بإظهاره، ويتبجح بفعله، ونحن

نعلم بالضرورة أن أحداً من العقلاء لا يفتخر بكثرة الأكل، ولا بكثرة المباشرة، ولا بكونه مستغرق الوقت والزمان في هذه الأعمال، وأيضاً فالعاقل لا يقدر على الوقاع إلا في الخلوة، فأما عند حضور الناس فإن أحداً من العقلاء لا يجد في نفسه تجويز الإقدام عليه، وذلك يدل على أنه تقرر في عقول الخلق إنه فعل خسيس، وعمل قبيح، فيجب إخفاؤه عن العيون، وأيضاً فقد جرت عادة السفهاء، بأنه لا يشتم بعضهم بعضاً إلا بذكر ألفاظ الوقاع، وذلك يدل على أنه مرتبة خسيسة، ودرجة قبيحة، وأيضاً لو أن واحداً من السفهاء أخذ يحكي عند حضور الجمع العظيم، أن فلاناً كيف يواقع زوجته، فإن ذلك يستحي من ذلك الكلام، ويتأذى من ذلك القائل، وكل ذلك يدل على أن هذا الفعل ليس من الكمالات والسعادات، بل هو عمل باطل، وفعل قبيح.

التاسع: كل فرس وحمار كان ميله إلى الأكل والشرب والإيذاء اكثر، وكان قبوله للرياضة أقل، كانت قيمته أقل، وكل حيوان كان أقل رغبة في الأكل والشرب، وكان أسرع قبولاً للرياضة، كانت قيمته أكثر، ألا ترى أن الفرس الذي يقبل الرياضة في الكر والفر، والقد والشد، فإنه يشترى بثمن رفيع، وكل فرس لا يقبل هذه الرياضة يوضع على ظهره الأكاف[1]، ويسوى بينه وبين الحمار، ولا يشترى إلا بثمن قليل، فلما كانت الحيوانات التي هي غير ناطقة، لا تظهر فضائلها

(١) الأكاف: الرحال، يوضع على ظهره الأكاف كناية إنه كالبغال لا لزوم له إلا لنقل الأغراض. (لسان العرب).

بسبب الأكل والشرب والوقاع، بل بسبب تقليلها، وبسبب قبول الأدب، وحسن الخدمة لمولاها، فما ظنك بالحيوان الناطق العاقل.

العاشر: إن سكان أطراف الأرض، لما لم تكتمل عقولهم ومعارفهم وأخلاقهم، لا جرم كانوا في غاية الخسة والدناءة. ألا ترى أن سكان الإقليم السابع، وهم الصقالبة، لما قل نصيبهم من المعارف الحقيقية، والأخلاق الفاضلة، فلا جرم تقرر في عقول العقلاء خسة درجاتهم، ودناءة مراتبهم، وأما سكان وسط المعمورة، لما فازوا بالمعارف الحقيقية، والأخلاق الفاضلة، لا جرم أقر كل واحد بأنهم أفضل طوائف البشر وأكملهم، وذلك يدل على أن فضيلة الإنسان وكماله، لا يظهر إلا بالعلوم الحقيقية، والأخلاق الفاضلة»[1].

ثم أن العلم قال: لقد طال المقال، واتسع المجال، والمقام لا يسع مفصلات هذه الأحوال، وفي ذلك تبصرة لمن عقل، وذكرى لمن تدبر، ونور لمن استبصر، وعظة لمن اعتبر، وهداية لمن تفكّر، والله ولي الرشد والتوفيق، وحسبنا هذا بياناً ووضوحاً، لمن كان له قلب، وألقى السمع وهو شهيد.

---

(١) النص مأخوذ عن بحث للعلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٥٨ ص١٣١.

هجوم مضاد

١ ـ كيد الشيطان:

ومذ رأت الأنفس الأربع والجهل وجنوده، أن المطمئنة، ومن جرى في حلباتها، قد ضيَّقن عليهنّ من أقطار الكلام، وأخذن منهن بكل عنان وزمام، والعلم قد أزاح من الجهل دواجي ظلمه، وحنادس بهمه، ببزوغ فجر بيانه، وأشعة شموس براهينه، والقوم قد اتضح لهم سبيل الحق، وارتفعت أعلام غاياته. انكفأ الجهل بجنوده مذموماً مدحوراً، وفي حكمة الذل أصبح منقاداً أسيراً، وانتكست الأنفس الأربع في مهاوي حيرتها، وارتبكت في ظلم خيبتها، ونكصت على أعقابها إلى عميدها، تسترشده طرق الضلالة، ومناهج الغواية، فرأته وكأنما سُوِّد وجهه بالعظلم[1]، أو صُبغ بحلك الليل المظلم. فتآمر الجميع بحضرة أبي مرة، وطلبوا الكشف عن وجه الرأي المرة بعد المرة. ثم نهضت الأمارة بين يديه تستنهض من هممه أعلاها، وتنتضي من عزائمه أمضاها:

---

(١) العظلم: المظلم. (لسان العرب).

أسيدنا عطفاً علينا فإننا ... بنا ظمأٌ برح وأنتم مناهل
فكن هضبة نأوي إليها وحرة ... يعرد عنها الأعوجي المناقل
فأنت شهاب في الملمات ثاقب ... وسيف إذا ما هزك الكف فاصل
تقطعت الأسباب إن لم تفر لها ... قوى ويصلها من يمينك واصل[1]

ثم اقتفت أثرها الحسية الحيوانية، تدرج في ما درجت، وتلج في ما ولجت، وتنحو حيث نحت:

انشر لنا أحدوثة غضة ... تصغي إليها أذن السامع
وارمهم منك بمستيقظ ... لا فاتر الطرف ولا خاشع
إن أنت لم تنهض بها صاعداً ... في مُستراد الزاهر اليانع
أكدى الذي نعتده عدة ... وضاع من نرجوه للضائع[2]

وكان أبو مرة كبر عليه الأمر، والحيرة ألقت عليه من حنادسها كل سجف حالك، فغدا يتنفس الصعداء، ويتأوّه كمداً، وبسوء سياسة الأمارة لهذا الأمر أصبح معرضاً ومنشداً:

خطوب إذا لاقيتهن رددنني ... جريحاً كأني قد لقيت كتائبا

---

(١) أبو تمام. ورد الشطر الأول خلاف الكتاب: (أكابرنا عطفاً علينا) وهو البيت الأخير في القصيدة المؤلفة من ستين بيت.
ورد في البيت الثالث بدل وسيف إذا ما هزك الكف فاصل: وسيف إذا ما هزك الحق فاصل. (ديوان أبي تمام).

(٢) أبو تمام. مع بعض الاختلاف، البيت الأول: بدل انشر لنا وردت في الديوان: انشر لهم.
وفي الثاني: ورد الشطر الأول: ترمي العلى منه بمستيقظٍ. وفي الثالث بدل لم تنهض بها: لم تنهض به.
وفي البيت الرابع: بدل نعتده: يعتده وبدل نرجوه: يرجوه. وكأن صاحب الكتاب يتصرف بالأبيات بثقة لتتناسب ومضمون رسالته. (م.ن).

ومن لم يسلم للنوائب أصبحت خلائقه طراً عليه نوائبا
وقد يكهم السيف المسمى منية وقد يرجع السهم المظفر خائبا
وآفة ذا ألا يصادف رامياً وآفة ذا ألا يصادف ضاربا[1]

ومذ سمعت الأمارة ذلك، تلمَّظت تلمُّظ الأفعوان، وتنضنضت تنضنض الرقشاء المطرقة، حنقاً وغيظاً، وقالت: ليس الأمر على ما تظن، ولا ما إليه تذهب، القوم أعلى كعباً، وأورى زنداً، وأمضى حداً، وأهيب جانباً، وأعز سلطاناً، ما وزنوا إلا رجحوا، وما قالوا إلا فعلوا، وما حكموا إلا عدلوا:

لا ينطقون عن الفحشاء إن نطقوا ولا يمارون إن ماروا بإكثار
من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري
منهم وفيهم يعد الخير متَّلداً ولا يعد شنا خزي ولا عار[2]

والله ما فتحنا لهم باباً إلى اللذات من الترغيب، إلا فتحوا لنا أبواباً من الوعيد والترهيب، وما رفعنا لهم من الحجج في الرغبة فيها رايه، إلا رفعوا لنا من البراهين في الزهد ألف راية.

إذا ما حملنا حملة مثلوا لنا بمرهفة تذري الصواعد من صعد
وإن نحن نازلناهم بصوارم ردوا في سرابيل الحديد كما نردى

---

(١) أبو تمام، ورد البيت الأول:
خطوب إذا لاقينهن ردننني جريحا كأني قد لقيت الكتائبا
(ديوان أبي تمام).
وقد ورد في الرسالة في البيت الأخير: ألا يصادف رامياً وفي الديوان: ألا يصادف مضرباً.
(٢) هي لعبيد بن العرندس. (موسوعة الشعر العربي).

رماحهم في الطول مثل رماحنا وهم مثلنا قدوا السيور من الجلد[1]

وما زلنا كذلك، حتى خشينا أن ندخل في ما دخلوا فيه، ونعكف على ما عكفوا عليه، وعدنا في أيديهم كالعود المنكوس، المقيد بين مجرى السيول، أو كالمقرون بصفد، لا يهبط برجل، ولا يرقى بيد:

فطوراً قياماً وطوراً قعوداً وطوراً هبوطاً وطوراً صعودا

ثم نزعت بها حميتها إلى الاعتذار عن خيبتها:

كم ذقت في الدهر من عسر ومن يسر وفي بني الدهر من رأس ومن ذنب
ماذا علي إذا ما لم تزل وتري في الرمي إن زلن أغراضي فلم أصب
ما زلت أرمي بآمالي مراميها لم يخلق العرض مني سوء مُطَّلبي[2]

والتفتت إلى أبي مرة، وقالت له: عدِّ عن هذا اللوم، واكفف عن هذا التقريع، أنا لفي ما هو أعظم وأدهى، وأمضى وألهى:

حللت في صخرة صماء معنقة فانحت برأيك في أوعارها درجا
وإن علا رهج في وسط ساحتها بصبح رأيك تجلو ذلك الرهجا[3]

أنت الملاذ إذا الخطب احتدم والمعاذ إن جار دهر أو ظلم.

اشدد يديك على يدي وتلافني من مطلب كدر الموارد راكد

---

(١) أبو الأخيل العجلي، كان في أواخر العهد الأموي. (موسوعة الشعر العربي).

(٢) أبو تمام. ورد في البيت الثاني بدل ما لم تزل: ما لم يزل. (ديوان أبي تمام).

(٣) أبو تمام.
وردت في الديوان: قد حلّ في صخرة صماء معنقة، أما في الكتاب وحتى تفي بالغرض المطلوب أراد الكاتب أن يغير قليلاً فارتأى: حللت في صخرة صماء معنقة (المعنقة: المرتفعة). (م.ن).

أصبحت في طرقاته ووجوهه عميا ولكني بصير القائد
تلك القليب مباحة أرجاؤها والحوض منتظر ورود الوارد
والدلو بالغة الرشاء ملية بالري إن وصلت بباعٍ واحد[1]

فعندها استقام من قناته أودها[2]، وتلاحَك[3] من سابغات جننه زردها، وأيقظ عقارب شره للدبيب ونصب حبائل مكره للاصطياد، وأقبل على الأمارة بوجه هش بش، يرفع عنها ما غشيها من ضعف العزم، وخور القناة:

سيري على رسلك سير الآمن سير رداحٍ ذات جأش ساكن
إن التأني دون قرني شاءني أبلي بلائي واخبري وعايني

ثم تمثل وأنشد:

لبث قليلاً واصطبر كي يلحق الهيجا حمل[4]

---

(١) أبو تمام.
ورد البيت الثاني في الرسالة على خلاف الديوان، وذلك في الشطر الثاني من البيت، فورد في الديوان:
أصبحت في طرقاته ووجوهه أعمى ولكني نبيل القائد
والقليب في البيت الثالث البئر.

(٢) أودها: اعوجاجها. (أساس البلاغة).

(٣) تلاحك: تقارب بشده (كتاب العين).

(٤) ورد البيت لحمل بن سعدانه (المتوفي سنة ٦٠هـ/ ٦٧٩م) مختلف عن الكتاب، ولكن ورد كالآتي:
لبث قليلاً يدرك الهيجا حمل ما أحسن الموت إذا دنا الأجل
كما ورد لحسان بن ثابت المتوفي سنة (٥٤هـ/ ٦٧٣م) بالمعنى ذاته:
مهل قليلاً يشهد الهيجا حمل لا بأس بالموت إذا حان الأجل
(موسوعة الشعر العربي).

مهلاً رويداً، هيهات أن يغلبوا مني كيداً، أو يثلموا لي حديداً، أو يخدعوا مني شيطاناً مريداً، يعدهم ويمنيهم ويضلهم ويرديهم.

أين الجذاع إذا الميدان ماطلها عن بازل بسرى الغايات قد قرحا[1]

أو يقعقع لي بالشنان[2] ويغمز جانبي كتغماز التنين:

أنا أبو مرة إن جد الوهل خلقت غير زمل ولا وكل
ذو خدعة وذو دهاء وختل إن ملني الشر فإني لا أمل[3]

الآن حمي الوطيس، طاب الضراب اليوم!

إني لذو مرة مرة إذا ركبت حالة حالها

لا يكبر عليكم أمر الصخب، ولا يهولنكم احتدام الخطب:

أنا السيف إلا أن للسيف نبوة ومثلي لا تنبو عليه مضاربه

إنهم وإن أبرقوا وأرعدوا، واتبعوا الزئير بالزئير، والزمجرة بالعربدة:

فما نفرت جنّي ولا فل مبردى ولا أصبحت طيري من الخوف وقعا

---

(١) الجذاع: ورد في جمهرة اللغة: وهم أخوة الجذاع، والجذاع بطون أيضاً. وهم بنو الجنس الواحد.

(٢) يقعقع لي بالشنان: المعنى أنه نبيه لا يحتاج إلى التنبيه، وهو من لا يقعقع له بالشنان. (تاج العروس من جواهر القاموس).

(٣) الأعرج المعنى، مجهول تاريخ الولادة والوفاة، وهو من شعراء الحماسة، وقد ورد البيت:
أنا أبو برزة إذا جد الوهل خلقت غير زمل ولا وكل
(ديوان الحماسة لأبي تمام).
ولعل الكاتب أراد أن يدخل البيت في معنى الرسالة فقال: أنا أبو مره. بدل الأصل: أبو برزة.

لا يذهب بكم الوهن، ولا يصطلمكم الفشل، بل حققوا الرجاء، وواصلوا الأمل:

فسوف احمي لهم ميسما ... ينبش منه وبر البازل
إذا انبرى للجلد أبقي له ... علطاً من الزور إلى الكاهل[1]

أفرغوا عليكم جنن التجلّد، واعتصموا بمجان الصبر، فإن بالصبر تنفرج مغالق الشدائد، وبالإقدام على مكاره الأمور تحلو العواقب، وليس ينال المرء ما يحب حتى يحمل نفسه على ما يكره، إن من جد وجد، ومن لج ولج، ومن أدمن قرع الباب أوشك أن يفتح له، وإذا التقت حلقتا البطان، تبلج صبح الفرج:

والحرب لا يبقي لجا ... حمها التخيل والمراح
إلا الفتى الصبار في النـ ... ـجدات والفرسُ الوقاح
والكر بعد الفر إذ ... كُره التقدّم والنطاح
صبراً بني قيس لها ... حتى تريحوا أو تراحوا[2]

زاولوا هذ الأمر، برأي الشجاع، من ذوي العزم، وروية الجبان، من أولى الحزم، ثم أخلصوا من الزلتين، بنتيجة تبعد عنكم معرة نقص الجبان، وتهور الشجعان، فإن نجوم الرأي على هذا أنفذ على عدوكم، من السهم الصائب، والحسام القاضب، فإذا أدمنتم مقارعتهم على ما قلت، وزاولتموهم على ما وصفت، فربما حدث في أحدهم وهن في

---

(١) الشريف الرضي، والعلط العلامة. (لسان العرب).

(٢) سعد بن مالك البكري. (ت. ٩٥هـ/ ٥٣٠م). (موسوعة الشعر العربي).
والفرس الوقاح: ذات الحافر الصلب (كتاب العين).

شكيمة، أو نقص في عزيمة، وهبت به عواصف نهمته، ودارت عليها أرحية شهوته، ولا يأمن من أن تستعر جمرات حدته، وتثور به خيلاء نخوته، فيجدَّ في خلافهم، ويجتهد في نقض إبرامهم، فإذا جرت بهم الملاحاة في حلباتها، ووقفت بهم المشاجرة في غاياتها، انكسرت شوكتهم، وفلّ حدَّهم، وفشلت أنفسهم، وذهب النزاع بريحهم، وكانت لكم الغلبة، وعليهم الدائرة، وأصبحتم المالكين لمقاليدهم، والمصرفين لأزمّتهم، لكم الدولة وفيكم الشوكة، أُمضوا لما أمرتم به، فإنكم لأنتم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون.

فما كان بأسرع من أن قامت الأمارة بين يديه شاكرة له، ومثنية عليه، وكاشفة له عن أن في رأيه خللاً كخلل المنخل، فقالت: بخ بخ لي ولصحبي، إذ أصبحت لنا الساعد والعضد، والكاهل والكتد[1]، والمعاذ والملاذ، وحقيق[2] على من كنت له كذلك، أن لا يضحى في ظلك، ولا يضل في هديك، وحاشا أن يزل في عزك، أو يضام في سلطانك، أو يضطهد لاجئ إليك:

لما انتضيتك للخطوب كُفيتها ... والسيف لا يكفيك حتى يُنتضى
ما زلت أرقب تحت أفياء المنى ... يوماً بوجه مثل وجهك أبيضا
قد كانت الحال اشتكت فأسوتها ... أسواً أبى إمرارُهُ أن ينقضا[3]

---

(١) الكتد: ما بين الكاهل إلى الظهر (الصحاح).
(٢) حقيق: يحق لك أن تفعل. (لسان العرب).
(٣) أبو تمام. (ديوان أبي تمام).

لا عدمنا بِرَّك، ولا حرمنا حنوك وعطفك، لقد طبقت المفصل، وظفرت باللباب، وأصبت شاكلة الرمية:

تلك الأمور المشكلات تمزقت ظلماتها عن رأيك المتوقد
عن مثل نصل السيف إلا أنه مذ سل أول سلة لم يغمد[1]

إن هذا الرأي أنعم به من سهم صائب، وحسام قاضب:

وما هو إلا الوحي أوحد مرهف تميل ظباه أخدعي كل مائل
فهذا دواء الداء من كل عالم وهذا دواء الداء من كل جاهل[2]

لكن أعزّك الله، هذا السهم إنما ينفذ في رميته، وهذا الحسام إنما يقطع في ضريبته، لو لم تكن المطمئنة نازلة في صماخ آذان قلوب القوم، ومخيمة في سويداء أفئدتهم، وقد شملتهم في ملاحف السكينة، ورفرفت عليهم بأجنحة الوقار، ونزعت ما في صدورهم من غل، وبأثمد براهين العلم نفذت بصائرهم، وببيانه امتلأت ضمائرهم، وصفت سرائرهم، واشرقت بأنوار حكمته خواطرهم، حتى عاد لا مغدى لنا فيهم، ولا مراح، ولا سبيل لنا عليهم ولا جناح:

زهر تضيء وجوههم غر مرازبة جحاجح
غلب وآساد بهاليل مغاوير وحاوح
من كل بطريق لبطـ ريق نقي العرض واضح
دعموص أبواب الملوك وجانب للخرق فاتح

---

(١) أبو تمام. (ديوان أبي تمام).
(٢) أبو تمام. (م.ن).

القائلين الفاعلين الآمرين بكل صالح
لكرامهم فوق الكرا م مزيزة وزن الرواجح
كمثاقل الأرطال بالـ قسطاس في الأيدي النوافح[1]

ومذ تغلغل في سمعه ذلك، منحته لونها الحرباء، وأعطته ضجيجها الإبل الجرباء، وغدا كمن أخذت عليه الفجاج، وسدت المخارج، أو كمن اعترض الأسنة، واستهدف للرمي، ولم يدر ما ينزل به، فيعتصم بأهبته، ولا ما يستل عليه، فيستقبله بدرقته، وقد أخذ الهم بكظمه، والكرب بحلاقيمه، وضاق صدره، وظمأت هواجر يومه، فعندها استراح إلى الأمثال، وأخذ يسردها على مهل واسترسال:

فإياك والأمر الذي إن توسعت موارده ضاقت عليك المصادر
فما حسن أن يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر[2]

قد اتسع الخرق على الراقع، وعن ندائي صمت خروق المسامع:

---

(١) أميه بن أبي السلط.
وقد ورد البيتان الأولان على خلاف في الشطر الأول من الكتاب. وردت على الشكل التالي:
وكم بدرٍ والعقنـ ـقل من مرازبةٍ جحاجح
شمطٍ وشبان بهالـ ـيل مغاوير وحاوح
في البيت التالي: بدل نقي العرض في الرسالة، وردت: نقي الوجه.
وورد هذا البيت:
القائلين الآمرين الـ فاعلين لكل صالح
والبيت الأخير، بدل الأيدي النوافح في الرسالة، وردت الأيدي الموانح. (موسوعة الشعر العربي).

(٢) مضرس بن ربيعي الأسدي (شاعر جاهلي). (م.ن).

يريد المرء أن يعطى مناه ... ويأبى الله إلا ما يشاء
وكل عظيمة نزلت بقوم ... سيأتي بعد شدّتها رخاء[1]

وما زال متيماً على علز[2] القلق، وجَلَز[3] الضجر، وألم المضض، وغصص الجرض[4]، إلى أن اطمأن بعد لأي اضطرابه، ورجع شارده، وقر نافره، وثاب إليه عقله، وآب لبه، فرأى أنه نزل من هذا الأمر على أصعب مركب، وأعز مطلب، وأغمض مسلك، وأضيق مذهب، فأنشد:

ومن يشرب بصاف غير رنق ... يرد يوماً برنق غير صاف
غمست يديَّ في أمر ومن لي ... وأين بنزع كفي وانكفافي
ولكن الحميّة فيّ تأبى ... قراري للرجال على التكافي
وأنظر سُبَّةً وعظيم عار ... رضاي من المنازع بالكفاف
وما سهمي السديد من النوابي ... وما باعي الطويل من الضعاف
ولي أنف كأنف الليث يأبى ... شميمي للمذلّة واستيافي[5]

---

(١) الربيع بن أبي الحقيق (من شعراء يهود بني قريظة ومعاصر للنابغة الذبياني).
ورد البيتان بخلاف رسالة المؤلف وولكن بالمعنى ذاته، وردا على الشكل التالي:
يحب المرء أن يلقى نعيماً ... ويأبى الله إلا ما يشاء
وكل شدائد نزلت بحيٍّ ... سيأتي بعد شدتها رخاء
وقد ورد البيت الأول أيضاً من قصيدة للشاعر الجاهلي قيس بن الخطيم. (موسوعة الشعر العربي).

(٢) علز: الاضطراب الشديد. (أساس البلاغة).

(٣) جلز: الطي واللي، أي تململ ضجراً. (لسان العرب).

(٤) الجرض: الغيظ. (أساس البلاغة).

(٥) الشريف الرضي: ديوان الشريف الرضي. (والرنق: الكدر. والاستياف: الشم).

ثم جمع للأمر خواطره، وأخلى له مشاعره، وملأ غرائره، وأحكم مرائره، وشمر للوثبة ذيله، وأعدَّ للجولة خيله، وتمثل:

إذا العزم لم يفرج لك الشك لم تزل جنيباً كما استتلى الجنيبة قائد

وارسل الرأي يرتاد القوى الباطنة حتى يستحصف[1]، وتركه يعب من مناهلها حتى يختمر، وقال: لا عطر بعد عروس، إن هذا يوم له ما بعده:

والحرب صاحبها الصليب على تلاتلها العزوم
من لا يمل ضراسها ولدى الحقيقة لا يسيم
واعلم بأن الحرب لا يسطيعها المرح السؤوم
والخيل أجودها المنا هب عند كبتها الأزوم[2]

وعند اضطراب الأمور، وضيق الصدور، وحشرجة الحيازم، وحزّ الحلاقم:

جدير بأن لا أستكين ولا أرى إذا الأمر ولّى مدبراً أتبلد

ثم عجل إلى مناجاة الفكرة، ومطارحة القريحة، وانغمس في تيار الرويَّة ساعة، وحكم في فجها شبره وباعه، ورفع رأسه وهو يقول: لا ضلت دون أبي مرة ضائعة، ولا نأت عنه غاية شاسعة:

---

(١) يستحصف: من حصف: أحكم، ويستحصف الرأي يحكمه إحكاماً. (أساس البلاغة).

(٢) يزيد بن الحكم الثقفي (ت. ١٠٥هـ/ ٧٢٣م)، (موسوعة الشعر العربي). (والعزوم: الصبور، وكبتها الأزوم: كناية عن أن خيله منصورة الحافر أو الكعب). (أساس البلاغة).
وقد ورد في البيت الثاني: ولدى الحقيقة لا يسيم: أي لا يهرب، أما في الديوان فوردت: ولدى الحقيقة لا يخيم: أي لا يجبن، وفي الحالتين المعنى صحيح.

لا أحسب الشر جاراً لا يفارقني ولا أحز على ما فاتني الودجا
وما نزلت من المكروه منزلة إلا وثقت بأن ألقى لها فرجا[1]

أيها الرامي عزائمي بالوهن، وقناتي بالخور، وشكيمتي بالضعف:

فاذهب بنفسك حاسماً أطماعها عن صَلّ واد أو هزبر غريف
خل الطريق لمجمر أخفافه ماض على سنن الطريق منيف[2]

٢ ـ حيرة جنود الجهل:

ثم أسدى للأمارة برأيه، وإذا برويته قد انفرجت له عن رأي، بزغت في سماء الغيب كواكبه، وأصابت مهيعاً واضحاً إلى الحقيقة ركائبه، وسهامه لم تتجاوز من الأمر مقاتله، ولم تعد شواكله، يرمي به من قرنه الجندل بالجندل، ويقرع منه الحديد بالحديد، قال: اعلموا أن هذا الأمر قد ضربت أنفه وعينه، وقلبته ظهراً لبطن، فرأيت أن هذه المطمئنة، لا يظفر بالنجح من عاكسها في إرادتها، ولا يؤوب بالظفر من رام أخذها من غير جهاتها، ولا عدم الحرمان والخيبة، من دخل إليها من غير أبوابها، لأن الكمال قد أخذ بكلكلها، وشموس التجلي وكواكب الكشف قد أشرقت في آفاق فلكها، وهي قد اعتصمت بقوادم الحذر، وخفت بخوافي الفطنة والذكاء، وشهب حكمتها تقذف كل شيطان مارد، وقد قيل: إذا لم يكن ما تريد فرد ما يكون. فالذي أرى أن هذا اليوم عندها من أجلّ يوم يذكر، وأنفس علق يدخر، وأكبر عيد

---

(١) ابن الزبير الأسدي، (ت. ٧٥هـ/ ٦٩٥م). (موسوعة الشعر العربي).
(٢) الشريف الرضي، ديوان الشريف الرضي.

عظم فيه لديها السرور، وجل الفرح وكبر الحبور، وقد أمرها الله فيه بارتكاب الطيبات، والتمتع فيه في صنوف النعم وأطائب اللذات، واقتطاف الفواكه اليانعة، واجتناء البقول الزاهرة، فاطلبوا منها التخلية بينكم وبين القوم، لكي تؤدّوا لله شكر نعمة هذا اليوم.

ومذ قرع سمع الأمارة ما انفرجت عنه رويته، وتجلت له به فكرته، طار بها العجب، واستخفها الزهو والطرب، فنهضت قائمة بين يديه، تكيله من المدح صاعاً فصاعاً، وتمدّ له من أحسن الثناء باعاً فباعاً، وأنشدت:

هبها ضبابة ليل أنت خابطها ... إن الظلام وإن عنَّاك منكشف
تنظر الصبح إن الصبح منتظر ... والصبح يعرب عما أعجم السدف[1]

لا عثر جدك، ولا كبا زندك، ولا ضيم جانبك، ولا ذل مصعبك:

ينال بالظن إن فات اليقين به ... إذا تلبس دون الظن إيقان
كأن آراءه والظن يجمعها ... تريه كل خفي وهو إعلان
ما غاب عن عينه فالقلب يذكره ... وإن تنم عينه فالقلب يقظان[2]

هيهات ما كل سيف لصمصامه، ولا كل خفاق الجناح بأجدل، ولا كل رام من بني ثعل[3]:

---

(١) الشريف الرضي، ورد هذا البيت في الشطر الثاني في الديوان: والفجر يعرب عما أعجم السدف. والسدف: الظلمة. (أساس البلاغة).

(٢) الأبيات للبحتري (ديوان البحتري)، وبدّل الشاعر في البيت الثاني الشطر الأول، فبدل والحزم يتبعها وضع والظن يجمعها، وفي الثالث بدل القلب يكلؤه، القلب يذكره.

(٣) بنو ثعل: حي من أحياء طيء. (تهذيب اللغة).

إذا اعتلى في أقاصي الرأي لاح له ما في الغيوب التي تخفى فتستترُ

وإذا الخطوب تلاحك زردها، ولحجت أبوابها، وتلاحمت أصداعها، أخمد لهبها وأباخ حميها، وعفر مساعيرها، بصارم رأي جردته للدواهي عزائمه، كالبرق صيقله الإطراق والفكر:

عضباً إذا سله في وجه نائبة جاءت إليه صروف الدهر تعتذر

أما والله لقد كشف به الظلمة عن السادر، وأماط بفجره العشوة عن الخابط، فأصاب المتحيّر قصده، والضال رشده، والجائر نهجه، والمرتاد وجهه وفجه،

وأنشدت:

يطول استشارات التجارب رأيه إذا ما ذوو الرأي استشاروا التجاربا
برئتُ من الآمال وهي كثيرة لديك وإن جاءتك حدباً لواغبا
وهل كنت إلا مذنباً يوم أنتحي سواك بآمالي فجئتك تائبا[1]

أما وجلالة مجدك، وشامخ عزّك، لنؤوبنَّ عنك بالظفر، بعد أن جئناك على غبيراء الظهر، حين أصبنا منك:

يقظان أحصدت التجارب عنده شزراً وثُقِّف عزمه تثقيفا
واستل من آرائه الشعل التي لو أنهن طبعْنَ كن سيوفا[2]

---

(١) أبو تمام: ديوان أبي تمام. ورد في الديوان الشطر الثاني للبيت الثالث على خلاف الرسالة:
وهل كنت إلا مذنباً يوم أنتحي سواك بآمال فأقبلت تائبا

(٢) أبو تمام: (م.ن)، وبدل أحصدت التجارب عنده في الرسالة، وردت أحصدت التجارب حزمه.

لاعدمناك عند الظمأ منهلاً، وعند قيام الهاجرة ظلاً وموئلاً، ولا حرمناك بازلاً[1] إذا بعدت الغاية، وصارماً إذا استحجرت الضريبة، ولا فقدناك عند تكثّر الهنبثة[2] والأنباء:

قوال محكمة نقاض مبرمة ... فتاح مبهمة فلال أجناد
قتال مسغبة وثاب مرقبة ... منّاح مغلبة فكاك أقياد
حلال ممرعة فراج مفظعة ... حمال مضلعة طلاع أنجاد
حمال ألوية شهاد أندية ... شداد أوهية فراج أسداد[3]

وبعد أن فرغت من الدعاء، أخذت في حلل المدح، وملابس الثناء، تسدي وتلحم، وتوشي وتنمنم:

كأني به في الخطب صماء صلدة ... وصلٌ فلاة لا يلين على الرقا
إذا غفل الحادون ثار مساورا ... وإن روجع النجوى أرمّ وأطرقا
طلوع الثنايا ينفذ الليل لحظه ... إذا ما رنا جوّابُ أرضٍ وحملقا
له المنظر العاري وكل هنيهة ... تُغاور بالأرقاء برداً مشرقا
كأن زماماً ضاع من أرحبيّة ... تلوّى بأقْواز النقا وتعلقا
تلمظ شيئاً كالحباب وغامرت ... به وثبة أمضى من الليل مصدقا
رشاء الردى لو عض بالطود هاضه ... ولو شم ما لاقى على الأرض أحرقا

---

(١) بازلاً: هنا صفة للرأي السديد: بزل الرأي والأمر: قطعه. (لسان العرب).

(٢) الهنبثة: الاختلاط في القول، ويقال الأمر الشديد (الصحاح).

(٣) جبلة بن الحارث (شاعر جاهلي) وردت الأبيات في موسوعة الشعر العربي مع بعض الخلاف في الكتاب ولكن المعنى واحد لكن التغيير يأتي ليتناسب مع محل الشاهد.
وقد وردت الأبيات لفارعه المريه (ت. ١٢ق.هـ/ ٦١٠م). مع نفس الاختلاف أيضاً.

دويهية يحمي الطريق مجرّه إذا نفخ الركبان نام وأرّقا[1]

ثم مضت لا تلوي على أحد، إلى أن مثلت قائمة بين يدي المطمئنة، مفتتحة الكلام بالدعاء لها، بيا: أيتها السيدة لا أظمأ الله لك واردة، ولا أعطش صادرة، ولا غيب عنك شاردة، ولا أخفض منك صاعدة، إنه قد نزل بنا من الأمر، ما لا ينهض بازل الجلد[2] بعبائه، ولا شامخ الصبر بثقله، وقد تمسكنا منه بذنابى عيش أغبر، واستظللنا بجهام غمام اكفهر، حين امتد علينا رواق سخطك، ورفعت أعلام غضبك، وقد كنا من رضاك، نمرح في ظلال عيش رقيق الحواشي، منمنم الغواشي، فطواه عنا منك الإعراض والصد، حتى لبسنا أيدينا من القر والبرد، وصَفِرت العياب[3] بعد امتلائها، وكلحت وجوه كانت كالديباج تتلون بصفاءاتها، وقد انتهت العدة، وخلقت الجدة، وتم الظماء، وقدحت علينا للفاقة زند غير كابية الزند[4]، ومن عصفت عليه أرياح سخطك، ورمته مريشات[5] غضبك، لجدير أن يكون هو الرديّ، ويجف منه كل أخضر ونديّ، لكن أعز الله السيدة، قد يصيب الأعمى رشده، ويخطئ البصير قصده، وقد كان منا هناة، أقمنا لها كل لدن

---

(١) الشريف الرضي. في البيت الأول وبدل في الخطب: كأني أنادي منه، (وقد وردت في الديوان: بالإنقاء برداً، بدل: بالإرقاء برداً عند الكاتب). أما البيت السادس الشطر الثاني ورد: به وثبة من الليث مصدقا. (ديوان الشريف الرضي).

(٢) لا ينهض بازل: بمعنى: لا يقوى عليه الرجل المطيق للشدائد. (جمهرة اللغة).

(٣) صفرت: فرغت وخلت. (لسان العرب). ـ والعياب: الصدور والقلوب سُمّيت عياباً لأنها تكتم الأسرار تشبيهاً بعياب الثياب وذلك أن الرجل يضع في عيبته حرّ متاعه (لسان العرب).

(٤) زند غير كابيه: ضعيفه غير منتفخه، وهي صفة تصلح للوجه وللفرس. (لسان العرب).

(٥) المريشات: السهام وهي استعارة. (لسان العرب).

وقناة، وربما أدل المغرور فأمل، وواجف فأعجف، إلى أن لم يدع للصفح مسنّة، ولا للصلح مظنّة، فيميت عنه خواطر العفو، ويرد إليه شوارد الانتقام، ولئن تسكعت في وهد الغي برهة، وتهت في فج الضلال مدة، فإني لأعلم من جميل صنعك وجليل كرمك، أن التوبة عندك تمحو الحوبة، والإقلاع عن الزلّة يرد الرضا بعد السخط، وإني وإن تماديت في الجهالة، وأفرطت في الغواية، فلم أخلع نفسي من ربقة عبوديتك إباءً ولم أعتقها من الرق عتقاً لأستحق بعده ولاءً، ولا تبرأت منك تبرؤ من لا يجد بعده دركاً، ولا خفرت من ذممك خفر ما لو أصاب أدناه امرأً لهلكا، ولا رفضت من حقك فرضاً، ولا تحولت سماء بعد أن كنت في الصغار لك أرضاً، بل لم تزل رقبتي في ربقة الذل خاضعة لعبوديتك، ونفسي في رق الصَغار خاضعة لطاعتك متطلبة لمرضاتك، فارةً عما يوجب ثوران غضبك، ومع ذلك فالعفو اقرب للتقوى والله يحب المحسنين. وكيف يعدل عنك الإحسان، ويتعداك العفو والامتنان، وأنت هامة الشرف، وعرنين الكرم، ومغرس الجود، أكرم خلق الله شيماً، وأطيبهم خلقاً، وأوفاهم ذمماً، وأبعدهم هممماً، وإن سطوة الهيبة، وصولة العز وشامخ الجلالة، لتحول بيني وبين أن ينحدر مني اللسان، بكلم يتحدر منه كما ارفضت[1] عقود الجمان، ولكن عض أنياب الحاجة، وتنشب أظفار الفاقة، ينهضانِ بي إلى الجرأة، ويستفزاني على بث الشكاية.

---

(١) ارفضت: تفرقت. (لسان العرب).

زاد الله في نعم السيدة، إن الله جلّ جلاله قد أسبغ عليك نِعَمَهُ ظاهرة وباطنة، عاجلة وآجلة.

أما الآجلة: فقد أحلك في دار، خرست ألسن البلغاء عن نعتها، وقصرت الأوهام عن الإحاطة بوصفها، دار اصطنعها لنفسه، ظلها عرشه، ونورها بهجته، ورفقاؤها رسله، وزوارها ملائكته، وزادك شرفاً على شرف، وكرامة على كرامة، حيث دعاك إلى نفسه، وندبك إلى النزول في جنته، فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[1].

ماذا عسى مادح يثني عليك وقد ... ناداك بالوحي تقديس وتطهير
فت الممادح ألا إن السننا ... مستعلنات بما تخفي التضامير[2]

فبخ بخ لك، لقد علاك من الشرف إكليله، وأحاط بك من شعاع بهاء المجد أنوره، فأنى يدرك لك غاية، أو يشق لك غبار، أو ترفع في حندس مع نارك نار، فمآثرك جلّت أن تحصى، وفضلك طبق المشرق والمغربا.

وأما في العاجل: فلقد اصطفاك الله دون خلقه، وشرّفك على سائر عباده، بما أفاض عليك من الكمال الوافر، والخلق الباهر، والعلم الزاهر، وولاك رعاية هذا الجسد، وأمّرك على بنية هذا الجسم، فجميع جوارحه منقادة لأمرك، وكلّ حواسه مطيعة لك، فأنت المدبرة، والمصرفة، والقائدة والسائقة، لا يستقل إلا بك، ولا ينهض إلا

---

(١) سورة الفجر، الآيات: ٢٧ إلى ٣٠.

(٢) أشجع السلمي، (ت. ١٩٥هـ/ ٨١١م). (موسوعة الشعر العربي).

بقوتك، عن إرادتك ينبعث، وعلى مشيئتك يتصرف، لا تطوي حواسه دونك أمراً، ولا تكتم عنك سراً، وإنك لتعلمين ما ودع الله فيه من شهوات الدنيا ولذاتها، وحبِّ زخارفها، والشغف بطيباتها، ولئن أخذت بزمامه عن كل لذة، وكعمته عن كل شهوة، فلا يأمن من أن يذهب ذفره، ويبقى بخره[1]، ويعود وكِله تكلة، يأكل خلله فينقطع صميمه، ويسلخ أديمه، كما يسلخ الأديم في احتدام القيظ.

ومع ذلك فلم يحجب عن علمك، أن هذا اليوم عندنا هو من أقصى الأماني، وغاية شوارد الآمال، وما هو لنا بين الأيام، إلا قمر في حلك ظلام، ولو لم يكن سواه لنا في الأيام من عيد، لكان لنا به غنية عن كل رث وجديد، وما توارى عن علمك أن فيه جفَّت الأقلام عن رقم موبقات الآثام، وجميع الملائكة حتى كتّاب السيئات، تفرغت فيه لمحو صحائف الذنوب، ورقم دواوين الحسنات، لمن أدى نعمته بالجذل والسرور، والفرح والحبور، وقد أطلق للناس فيه العنان، وتزخرفت لذوي الأنس فيه مقاصير الجنان، والكريم المنان أمرنا فيه باتخاذ الموائد والولائم، وصافي الأشربة وأنيقات المطاعم. وحاشاك أن تعاكسي فياض النعم في إرادته، أو تجري على غير مشيئته، فخلي بيننا وبين القوم، لنؤدي لله شكر نعمته هذا اليوم، ثم أهوت إلى أذنها فأسرت إليها ما أبدى ناجذها تبسماً، وقهقهت حناجرها ضحكاً.

فأجابتها عند ذلك المطمئنة: إن كان الأمر كما ذكرت، فاذهبي

---

(١) الذفر: حدة الرائحة، وقالت أعرابية: أدبر ذفره وأقبل بخره. (أساس البلاغة).

واصنعي ما شئت، ما كان لله فهو لله، وما كان للشيطان فهو للشيطان.

ومذ سمعت الأمارة ذلك خفّ بها الجذل، فطفح مقولها يُسدي ويلحم بالثناء المعجب، وأنشدت:

عليك سلام الله ما الطير غنت ... وأنى استقرت داركم واطمأنت
أقمت عمود الحق في مستقره ... وأركان دين الله فيك استقرت
وأحييت سبل العدل بعد دثورها ... وانهجت سبل الرشد حين تعفت
وجازيت بالإحسان من كان محسنا ... وبالعفو والنعمى إذا النعل زلت
إذا ظلمات الشك أسدل ثوبها ... تطلع فيها فجركم فتجلت
بك انكشفت عنا الجهالة وانفرت ... جلابيب غيّ دوننا واضمحلت
حللت من العز المنيف محلة ... بجنب ذراهُ الكائنات استظلت
وإنك منه في اللباب الذي له ... تطامنت الأفلاك صغرا وذلت
إذا ما حلوم الناس حلمك وازّنت ... رجحت بأحلام الأنام وخفت[1]

---

(١) أبو تمام.

في البيت الأول غير الكاتب بما يتناسب مع سياق الحديث السابق دون تغيير في جوهر الأبيات: فجاء البيت في ديوان أبي تمام:

عليها سلام الله أنى استقلت ... وأنى استقرت دارها واطمأنت

وفي البيت الثاني الشطر الأول في الديوان: أقر عمود الدين في مستقره، والشطر الثاني في القصيدة هو: وقد نهلت منه الليالي وعلت. وأما في البيت السادس فقد ورد عند الشاعر:

به انكشفت عنا العنايه وانفرت ... جلابيب جور ؟؟ فاضمحلت.

والبيت الثامن ورد:

وإنك منها في اللباب الذي له ... تطأطأت الأحياء صغرا وذلت.

والبيت الأخير ورد بدل الأنام عند الكاتب: الرجال. وهكذا تصرف الكاتب في معظم الأبيات لتفي بالغرض.

ثم إنها أتت القوم إتيان اللصوص، فلهزتهم[1]، وإذا هم في أمرهم كالبنيان المرصوص، لا تثنى لهم أعنّة، ولا تحطم أسنة، وكانت قد علمت تخلي العناية عنهم من المطمئنة.

فذهبت بها إلى ما ذكره أولاً أبو مرة الفطنة، فكان كما حسب وصدق إبليس على القوم ظنه، فتشاجر القوم في الأمر تصويباً وتصعيداً، وإتهاماً وإنجاداً، إلى أن تجلّى لهم النظر بما جاءت به الأمارة. فإن كان الحق نازلاً في ذروته أخذنا به، وإن كان الباطل نجم فيه قرنه، ونعق صوته، جعلنا لسهام الرفض غرضاً، ولأسنة الطرح والإعراض هدفاً، فقلنا أيها الوفد، طرقتمونا وأعلام الأنس خافقة وألسنة السرور ناطقة.

في مجلس تفتحت فيه أعين نرجس الظرف، وخفقت فيه نسائم عبير المطايبة، تخضع لبهجته الزرابي المبثوثة[2] والنمارق[3] المصفوفة، نتعلل فيه بأحاديث، تتساقط كأنها اللؤلؤ الرطب، أو زهر الروض الممطور، فما راعنا إلا وقد أوسعتموه بالهمّ جرحاً، ونكأتم بالغمّ منه قرحاً، وأوريتم زنده بالترح قدحاً، فتبدَّل صفوه بالكدر، وأمنه بالغِيَر، وجنته بسقر، لم نشرب منه إلا الغصص، ولم نحتسِ إلا الطرق والرنق، من نزعكم إلى دعوىً كنا من دحضها على أنور من ضياء الفجر، ومن رفضها على أبهى من شعاع الشمس، ولئن اعتكرت علينا

---

(١) لهزتهم: هزّتهم وضربتهم. (لسان العرب).

(٢) الزرابي المبثوثة: الرزابي: البسط. (لسان العرب).

(٣) النمارق: الوسائد. (لسان العرب).

حنادس الشك، وأفلت زواهر اليقين، ولا نحب أن نكون لكم من الظالمين، فهلموا شهداءكم إن كنتم صادقين.

ومذ تغلغل في سمع الوفد ذلك، ألقت الأمارة قناعها، والحسية الحيوانية طرحت خمارها، وانتشرت الشهوة في الجسد، وألقت في عنق القلب حبلاً من مسد.

والشره من رقدته ثار، وأحكم عقد مطرفه والإزار، وقال: لا نوم سائر اليوم، وعن حبب السرور غدا يفتر من أبي مرة الثغر، وهو يقول: إيه! إيه! إلى متى؟ وحتى متى؟ تجذون من حبائلي أشطانها، وتقطعون من أشراكي مرائرها، فوالله لأدخرن لكم مخبأة، تجعلكم لأرحية الندم ثفالاً، ولتصعد الزفرات، وتتابع الحسرات نكالاً.

ثم اندفعت الأمارة تدلي بالحجة، وتكشف عن واضح المحجّة، فقالت:

الحمد لله الذي لم يجبر الخلق على حركة، ولم يضطرهم إلى سكون، بل ألقى إليهم أزمة الاختيار، في سدف الليل ومشارق النهار، وبين السبيل، وأرسل الدليل، وقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾[1]. وأوضح لهم في ذات العقول ونيرات الألباب، ألا ومن استرشدنا أرشدناه، ومن قصدنا أوصلناه، ومن تنكب عن طريقنا أمهلناه، ومن صدف عن آياتنا تركناه،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

ومن ورائه جهنم وساءت مصيراً، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

أما بعد فيا أعلام الهدى وحملة الكتاب، وزواهر الرشد ومناهج الصواب، إنا وإن اطردت بنا ألسنة المقال إلى غاية سحيقة، وتغلغلت بنا فورة الجدال إلى هوة عميقة، هي كانت بالأجدر أن تطوى حلباتها، ولا تقصد غاياتها، وبالأحرى ان يقصر مضمارها، ولا يضمن رهانها، ولكن قبح الله اللجاج، لقد ذل من ركبه، وها أنتم والحمد لله يافوخ الشرف، وسنام العفو، وذروة الإحسان، ما سبقتم إلى مكرمة، ولا قصرتم عن غاية، ولا ألقى رحله في غيركم المعروف، ولا عقل وجناءه في غير سوحكم الجميل، فعفواً عفواً، وصفحاً صفحاً، لغيركم العسف والعنف، ما كان دعاؤنا إياكم في هذا الأمر، لنحملكم على صعاب بوازله بالإلجاء والقهر، أو نسوقكم في جواد طرقه بالجبر والقسر، ولا لنذل به ما شمخ منكم من إباء العزة، أو ندنس به ما طاب منكم من أعراض العفة، أو نخفض منكم ما شمخ من جلالة القناعة، كيف وقد غلَّت منَّا ومن عميدنا عنكم اليدان، ولم يكن لنا عليكم في حركة ولا سكون من سلطان، بل نقذف بالدعاء، ونهتف بالنداء، ونزين للمرء حب شهواته ونحبب إليه أنواع طيباته، ونسهّل عليه إليها سبل الوصول، ونواصل له فيها الأمل حتى يرى أنها غاية المأمول، فإن استجاب لنا كان الرشيد السعيد، وإلا انقلبنا خاسئين وولينا مدبرين.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٦٩.

فالتفت بعض القوم إلى بعض وقالوا: هذا كلام كاد أن يبزغ فجر الحق في أفقه، وفي كنف سحائبه قارب أن يلوح برق الصدق في تألقه، ثم قالوا للأمارة: هات ما عندك، واقطعي الخصومة بشاهد عدل.

٣ ـ الأمارة في هيئة السمك:

فقالت: لهذا يساق الحديث، واندفعت برسالة صاحبها، تطفح في بلاغة كلمها، وتسيل في متقاذفات جملها، كاعمة اللسان على كِظَّة جريته في فصولها وقواطعها، قائلة:

أما بعد فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، على ما أولاني من مزيد النعم، وخصني من عواطف المنن والكرم، بأن جعل لي لجي الماء مسرحاً ومراحاً، وسكناً وقراراً، ورفعني عن أن أدبّ في الأرض دبيباً، وأسمو في جو السماء حفيفاً ورفيفاً، بل أطفو في كل لجة، وأرسب في كل غمرة، غير محدود لي السير في مكان دون مكان، وأوان دون أوان، أخوض البحار الزاخرات، وأتقلَّب في لججها الغامرات، وله الحمد والمنة، بما أمدني على ذلك بالمعونة، بجناحين أشدين، وعضدين ألَدَّين، أضرب بهما عن جانبي عبابها، وأشق غمارها، كما يضرب الملاح بمخرقته عن جانبي سفينته، ولو ضربت بهما خراطيم السفن، وأسنمة ظهور الفلك، لقضيت منها المأرب، وأسلمت أهلها إلى العطب، وله الفضل على أن كسا جسمي قشوراً متينة، صلبة رقيقة، متداخلة كتداخل الدروع، ومنتضده كانتضاد

الجواشن، جُنَّة لي من الآفات الطارقة، والدواهي النازلة، وأكرمني دون سائر خلقه عامة، بازدياد قوة في حاسة الشامة، اهتدي بها في ظلمات الماء إلى طعامي، وأتعرف مأمن مرقدي ومنامي، ومن مزيد لطفه بي، أن صيرني أتروح بعب الماء في فمي، وإرساله من صماخي، كما يتروح أحدكم بِمَر الهواء، وتنسيم الأرياح، وحباني بكثرة النسل والفراخ، وألهم الناس اصطيادي بالأشراك والفخاخ، وجعلني مطعماً لجم من هذا الخلق العظيم، وقوتاً للأغر منهم والبهيم، وخلق لحمي طرياً شهياً، وعظمي دقيقاً بهياً، تتفاخر به الأكياس، ويغالى به بين الناس، ويدور لحمي بالمضغ على أرحية الأضراس، بلا تعب ولا كلفة، ولا نصب ولا مشقة، وأبعد ما هنالك ذروة في الشرف لا ترتقى، وسناماً لا يمتطى، وغاية لا تلتحق، ما ألبسنيه في عزيز محكم كتابه، وشريف خطابه، من النعت الجميل، والوصف الجليل، وجعلني مظهراً لامتنانه على خلقه، ونعمة طلب الشكر عليها من سائر عباده، فقال جلّ جلاله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[1].

ولقد اختبر بي أهل طاعته، وامتحن قلوب أهل معصيته، فقال لمن اعتدى منهم في السبت: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[2]، وأثاب الذين استجابوا له، جنات تجري من تحتها الأنهار هم فيها من الخالدين، وجعلني معراجاً لنبيه الأطيب الأطهر، يونس الزكي المطهر، ليريه من

(١) سورة النحل، الآية: ١٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

ملكوته ما يبلغ به أوج الكمال، ويسمو به إلى ذروة القرب وقدسي الجلال، واعلموا أني لما رأيتكم محادين لله، بنبذكم إياي من بين أنواع المطعومات، ومشاقين له بطرحكم لي من بين أصناف الطيبات، ووضعكم ما رفع الله من أمري، وتصغيركم ما عظم من قدري، حتى أدمنتم هجري، وباعدتهم بيني وبين قدري، وتركتم لذاتي، وجفوتم طيباتي، وأقبلتم على ما يسومكم التلف، ويوردكم موارد الضر والهلكة، أنفذت إليكم نفراً من خاصتي، وطائفة من أعواني، لا تأخذهم في تعظيم حقي لومة لائم، ولا في نشر ملاذي عذل عاذل، يدعونكم إلى ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ويرجعونكم من الضلالة إلى الهدى، ويخرجونكم من الظلمات إلى النور، فهلموا إلي فبي تملأ الأجواف الخاليات، وأقبلوا عليّ فبي يقطع دابر الشهوات، واعلموا أنكم غداً عن هذا النعيم لا تُسألون، فكلوا مني وتمتعوا وأنتم الفائزون، ومن سلك غير هذا السبيل فأولئك هم الضالون، وكان قد ختم رسالته، بأبيات أخذت الأمارة تتغنى بهن، وتترنح في تلاوتهن:

لو يعلم الناس ما طعمي ولذته ... ما كان غيري من المطعوم يدخر
لحمي طري فلا الأضراس يتعبها ... مضغاً وها أعظمي من دقة إبر
هبت نسائم من ريحي فما نزلت ... أنفاً من الناس إلا ناله زفر
من اصطفاني من المطعوم مائدة ... لم يعله أشرٌ مني ولا بطر
ضلّت عن الرشد أرباب البطون فما ... غيري من اللحم يقضى عنده الوطر
سلكت بالناس نهج الرفق في ثمن ... كيما ينعم بي من دأبه العسر
فلتنعمن عيوناً كل أرملة ... مني وكل يتيم شفه الضرر

فما أتت الأمارة من رسالتها على التمام، إلا ونفذت في قلوب القوم نفوذ المريشات من السهام، فهبَّ جماعة منا إليه هبوب الريح العاصف، وأسرعوا نحوه إسراع البرق الخاطف، وقالوا كلمح البصر أو هو أقرب، ثم نؤوب إليكم إما بالعُجْب أو بالعَجَب، فوجدوا الناس حاشدة في أبوابه، عاكفة على أعتابه، وقوفاً صفوفاً، ورعيلاً صموتاً، قد أصهرتهم الهاجرة، وكاد أن يلجمهم العرق، فما كان بأقل من فواق ناقة، أو لوث إزار، حتى أسرعت لهم الأذن، وارتفعت حجب الأستار، فإذا هم بشخص قد أخذ من الجلالة أبهتها، ومن التوقر تردى بأفخر أبراده، متكئاً على نمارق فروع شجر البردة، قد أعدتها له حاشيته ليلقى بها نزاله ووفده، فاظهر لهم من معجزات سمنه الواضحة، وآيات لذاته الباهرة، ولطافة كيموسه في الأعراق الكبدية، وحسن جريه في العروق البدنية، وأنه في البطون أخف من السواد في العيون، والهضم إليه أسرع من تلاقي جفنيه، فحملهم ذلك على الإسراع لإجابته، والانقياد إلى دعوته.

ونهض الأول منهم بين يديه، قائماً على قدميه، وأنشأ رافعاً عقيرته:

يا صفوة العيش هل بالعيش ينتفع ... شخص رآك وما في جوفه تقع
من لم يكن بك في المأكول معتصماً ... فليس في سائر اللذات ينتفع
من لم تزر كل يوم أنت بطنته ... فليس يألفها ري ولا شبع
فأسلم لذي بطنة سغباء ما قنصت ... منك الورى وعليك الناس تجتمع

ثم نهض الثاني، وأنشأ:

أبيت اللعن أنت أجل قدرا ... من الأغنام أو فحل الدجاج
فلحمك قال فيه الله منّاً ... وإنعاماً علينا باحتجاج
فكم أخرجتم لحماً طرياً ... شهي الطعم من ماء أجاج
وأنت بك اليهود عصته لما ... أتاها النهي عنك وأنت ناج

ثم نهض الثالث، وأنشأ:

هذي النفوس أراها اليوم جائعة ... تشتاق لحمك في سر وإعلان
ما استبدلت بك هذا اليوم بطنتها ... لحم الطيور ولا شلوا من الضان
فواغر الفم ما تنفك عن شره ... حتى تراك خضيباً بالدم القان
فانهض إليها وداوِ داء شهوتها ... أنت الدواء وما في الأرض من ثان

ثم شروه بثمن دراهم معدودة، وكانوا فيه من الراغبين، ولله جلَّت نعماؤه بما أنعم عليهم فيه من الشاكرين، فما زالوا به حتى أنزلوه دار رجل منهم، ليزيل عنه ما اكتسبه في خروجه لهذا العالم من الدنس، وما لحقه من الرجس، ثم يفد به على القوم بهياً منظره، شهياً مخبره[1]، وكان القوم قد نزلوا من أنسهم وسمرهم، على أنعم رفاهية، وأبهى سرور، وأزهى مجلس، يقطفون أزاهير الظرف، ونوار الأنس، وأقداح المسرّة بينهم ينفذها البصر، وينبو عنها اللمس، وأخو بنت العنقود قد أعدوه ليطوف عليهم في عسجدية، حبتها بأنواع التصاوير فارس:

(١) شهياً مخبره: منظره يخبر عن أنه شاوٍ. (لسان العرب).

قرارتها كسرى وفي جنباتها مها تدَّريها بالقسي الفوارس[1]

٤ ـ حنق إبليس:

وقد كان ذلك بمرأى من أبي مرة ومسمع، ينظر ما هم فيه من حبرة العيش وغبطته، وزاهي السرور وبهجته، واللَّذات قد تفتحت لهم عن أزاهيرها، وتفتقت أكمام الطيبات عن أنوارها، وخفقت في أرجاء مجلسهم نسائم المسرة، وغنت على أعواد سمرهم بلابل، والدنيا منحتهم فضل درتها، والأيام أتحفتهم برياحين زهرتها، ومتعتهم بنضارة بهجتها، وغضارة جدتها، ولم يدنسهم ما هم فيه من الإثم رجسه، ولا من المحرم نجسه، ولم يركبوا من المكروه ظهراً، ولا علوا من المباح كاهلاً، بل أصدقوا العزم، وأخلصوا النية، إسراعاً لورود مناهل الندب، وتفيُّؤاً في ظلال شجر المستحب، علماً بأن هذا يوم أحب الله فيه من عباده اتخاذ الزينة، واجتناء النعيم، وساوى في هزله وجده بين السفيه والحليم، وكره من إذا بشر به ظلَّ وجهه مسوداً من الحزن فهو كظيم، ومقت من إذا صدحت بلابل لهوه وهو على ما به من الهم مقيم، فاضطرمت لما هم به من أبي مرة نيران الحسد، واضطربت في كبده أمواج الضغن، وعصفت في فجه عواصف البغض والشنآن، وقدحت في أحشائه زناد الإحن والعدوان، وانتفخ سحره غيظاً، وتحشرج حيزومه حنقاً، وأصبح صدره ضيقاً حرجاً، وعلته كآبة أخمدت أنفاسه، وذلة أهمدت أجراسه، ولولا أنه من المنظرين، لقطع

---

(١) أبو نواس: ديوان أبي نواس.

منه الوتين، وانقطع منه الأنين، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين إلى يوم الدين.

ثم ضربت به أعراق العصبية، وعصفت في خيشومه أرياح الحمية، وخفت به قوادم الشقاوة، واستنفزته جمرات العداوة، فارتعش رعشة، وانتفض نفضة، وخبط ولبط، وأكثر الصياح واللغط، وقال: واسوء صباحاه، غلبت أباكم على جنة عرضها السماوات والأرض، وتغلبونني على لذة حقيرة فانية، وشهوة يسيرة بائدة، لا ربط جأش الجبان، ولا هدأ قلب لم يفارقه الخفقان، فما كان بأسرع من أن اكتنفته جنوده، وعكفت عليه شياطينه ومردته، فقالوا: يا أبانا ما بدهك فأفدحك؟ وانتجمك فأوجعك؟ فشكا إليهم الأمر، وأراهم حالة القوم، فأبلسوا باهتين، ونكسوا على رؤوسهم متحيرين، ثم نخر من مردتهم شيطان وقال:

لا كان ما كان، هل من جند وأعوان؟ لأطلق العنان، وأروي السنان، وأهتم الأسنان، وأكفئ الدنان، وأعطش الريان، وأكد الظمآن، وأدير الرحى، وأضيق الفلا، وأحرم الجنا، وأكدر الهنا، وأخيب المنى، وأخمد السنا، وأمنح العنا، وأقطع الرجا، وأتحف الشجى، وأهدي القذى، واكذب أمل اللهى، واللات والعزّى، واللهاة والسكرى، ما أرجع إلا وكلمتهم السفلى، وكلمتي هي العليا، ولي الحظوة العظمى، ولهم الخيبة الكبرى، ولي المحمدة والذكرى، والمثل الأعلى. ثم مضى ليأتي القوم من حيث لا يحتسبون، ويحيل بينهم وبين ما يشتهون، ثم أتى جماعة وابتلى قيادهم، فوجده منقاداً

سلساً، واختبر بصيرهم، فألفاه مفتوناً مبلساً، وجسّ عزائمهم، فوجدها أضعف من خيط الهبا، وتعرف سرائرهم، فبان له أنها بحب الشهوات مشحونة كرجل الدّبى، فقال: لاعدمتكم عند الجولة، ولافقدتكم عند الصولة، أنعم بكم فقرة للظهر، وعصمة للكاهل، ونجدة للمستنجد، وقوة للعضد ومتانة للساعد، بكم تبلغ الغايات، وتنجز الحاجات، فرافدوه على قنص السمك من قدره، وأخذه بلبه وقشره، فحاولوا من السمك الغره، حتى إذا أمكنتهم الفرصة، اختطفوه بعظمه ومخه، وديكه وفرخه، هذا والقوم في مجالس لهوهم آمنون وادعون، وعلى سمرهم وأنسهم عاكفون، فبينما هم كذلك، إذ غشيهم طارق، كأنه الفجر الصادق، فما لبث وأمهل، حتى أنشأ وارتجل:

احذر زمانك لو يجدي لك الحذر ... فإنه الأفعوان الحية الذكر
لا يخدعنك منه الصفو آونه ... فعند صفو الليالي يحدث الكدر
فلا لـه لـذة إلا بـهـا كـدر ... ولا لـه حـالـة إلا بـهـا غـيـر

العبرة

١ ـ الأماني الكاذبة:

أما بعد، أيتها العصابة المنغمسة في لهوها، المنغمرة في سكرها وسهوها، ضلت القلوب عن رشدها، وتاهت الألباب عن قصدها، أراكم لاجتناء لذاتكم مجتمعين، ولقطف أزاهير طيباتكم مترقبين، وعلى سمركم ولهوكم عاكفين، وفي لجج الغفلة عما به صلاحكم خائضين.

قد أشرف أملكم على ظل لا يتناهى مداه، فغره بعد الظل، وحسب الأمر كما يراه، وذهبت الظنون بكم من التنعم في دنياكم مذاهب أهل الخرق، وغدت أمانيكم سوارح في بيداء الطمع، كلما رأت منها برقاً يتألق، وذهب عنكم أنها منزل هم، وقلعة غم، محفوفة بالبلاء، مغمورة بالعناء. إدراك الآمال فيها فوت المأمول، وكواكب اللذات فيها كلما جدت بالإشراق أسرعت بالأفول، عيشها نكد، وروضها خضد[1]، وشملها بدد، وما لها نفد، وذهلتم عن عدوكم الذي يتربص

(١) خضد: الروض المخضد: اليابس. (أساس البلاغة).

بكم الدوائر، ويملأ من المكر والخدع لكم الغرائر، مستيقظ لا ينام، وحافظ لا يسهو، وذاكر لا ينسى، وها هو قد سدد لكم السهم، وأغرق بالنزع، ورماكم من مكان قريب، فقطع آمالكم، وخيب ظنونكم، وأكذب أمانيكم، وبدل صفوكم بالكدر، وسروركم بالحزن، وصدقه على ذلك أبناء الشهوات، وحلفاء الطيبات، وعشاق اللذات، حين أحمسهم فوجدهم غضابا، واستنهضهم فألفاهم خفافا، فاغتالوا السمك بعد نضجه، واستولوا على نهجه وفجه، فلا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما أتاكم.

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل[1]

سوى جنة الفردوس إن نعيمها سيبقى وإن الموت لا شك نازل

ومذ سمعنا ذلك، تردينا في الحيرة، وانتكسنا في الدهشة، وعدنا كأنما على رؤوسنا الطير، أو خرّ من فوقنا السقف، وبعد أن أرعوينا من الدهشة، وصحونا من سكرة الحيرة، وإذا الذي تعهد بطبخه وقليه، وتميز رشده من غيّه، قد انتظم معنا في المجلس، وكواكب تعجبه تزهر طوراً وطوراً تخنس، فأحفيناه السؤال واستنطقناه الحال وقال: الأمر كما بلغكم شرحه، وبزغ عليكم فجره وصبحه.

٢ ـ صحوة الروح:

كان قد تمّ الجمع منا وتكامل العدد، وما منا إلا ونظر في مرآة

---

(١) لبيد بن ربيعة العامري (ت. ٤٠هـ/ ٦٦١م).
ورد البيت الأول فقط في قصيدة لبيد في ديوان لبيد بن ربيعة العامري.

هذه الحال فاستبصر، وتفكّر فاعتبر، فأخذت ألسنة الحال تنطق بالحكمة، وتفيض جداولها بالموعظة.

فاندفع الأول وقال: لا زالت مصارع الرجال تحت بروق المطامع، وكم يكدح المرء في جمع شيئه، فتحول الأقدار بينه وبين التنعّم في ظلّه وفيئته، يتنعم به من لم تسع أقدامه في مذاهب طلبه، فالوزر عليه والمهنأ لغيره، ولا يجني من شجر آماله، إلا ثمر الكمد والنصب من أعماله:

غرسنا غروساً قد رجونا نتاجها ... حلاء فكان العلقم المر والصبر
رويدك يا من أنقب الخف بالسرى ... ويخبط في عشوائه السهل والوعرا
فكم من طعام قد شقينا بجمعه ... زماناً وكان الغير في أكله أحرى
أصاب الهنا من دوننا وظهورنا ... عليها حملنا العبء والثقل والوزرا

ثم اندفع الآخر وقال: من يزرع الحرص يحصد الحرمان، ومن اقتفى أثر الطمع ارتاد كل دمنه، وسام كل دنيّة، وقارف كل خسة، ومن قاده الشر، أورده وما أصدره، والأرزاق كالآجال، لا تعدو صاحبها، ولا تتعدّى أوقاتها، مقسومة على الضيق والسعة، هو الذي خلق الأرض في يومين، وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها:

لأن أُزجّيَ عند العري بالخلق ... واجتزي عن كثير الزاد بالعلق
خير وأكرم لي من أن أرى مناً ... معقودة للئام الناس في عنقي
إني وإن قصرت عن همتي جدتي ... وكان مالي لا يقوى على خلقي
لتارك كل أمر كان يلزمني ... عاراً ويشرعني في المنهل الرنق

ثم اندفع الآخر، وقال:

من وفور العقل الإجمال بالطلب، والتنزّه عن الولوج في كل مذهب، فإن الرزق سهم مرسل من حكيم، لا يخطئ الغني ولا يفوت العديم، ومن كان زمامه بيد الرغبة، كان مناخه في مهاوي المذمّة، ومن استظل بسحائب الطمع، أصهرته هاجرة الذلة، ومن قنع بما قسم، جر مطارف الجلالة والعزّة:

أطلب ما يطلب الكريم من الـ رزق لنفسي وأجمل الطلبا
قد يرزق الخافض المقيم وما شد بعنس رحلا ولا قتبا
ويحرم المال ذو المطية والـ رحل ومن لا يزال مغتربا[1]

ثم اندفع الآخر وقال: من شبت مصابيح عقله، اعتبر بمن مضى من قبله، كم مجهد في رزقه، أتعب نفسه كداً وكدحاً، ولم يفرج من ضيقه حلقه، ولم يورِ في سعته قدحاً، وآخر تظلّل بأفياء النعم، وتقلب في أرياف المواهب والقسم، ولا بسط لها يدا ولا سعى بقدم، وإذا كان الرزق جرى عليه قلم القسم، فما النهم في طلبه إلا شارد خيال أو سانح وهم، وربما أورداه موارد كان فيها لحماً على وضم، كشاء من نعم.

وما كل ما منيت نفسك خاليا تنال ولا تفضي إليه المسالك
وكم سعي ساع جر حتفاً لنفسه ولولا الخطى ما شاك ذا الرجل شائك

---

(١) الأبيات للراعي النميري (ت. ٩٠هـ/ ٧١٨م).
البيت الثاني بدل: بعنس: بعيس، وهي البعير في التعبيرين.
كما وردت الأبيات للحكم بن عبدل الأسدي (ت. ١٠٠هـ/ ٧١٨م). (موسوعة الشعر العربي).

ألا ربما حياك رزقك طالعا ورحلك محطوط ونضوك بارك[1]

ثم اندفع الآخر وقال: السيل إذا جاء أفعم وأثرى، والرذاذ إذا أنهل أروى وأغنى، وإذا كان القصد من الرزق البلغة، فالتجشم للزيادة سفه وضلّة، على أنك دابة من دواب الله، ومن اقتنى دابة فعليه علفها. والمالك قادر غني، جواد سخي، فما النظر والرمق لكل برق يتألق، ولأن تشمر ذيلك، وتعد خيلك لما كلفت طلبه لكان أولى لك وأجدر بك، وأن من دلاك في هذا الغرر، وأنت على جناح سفر، لجدير أن يقودك إلى مهاوي سقر، ولو أقمت أيها الإنسان في ظل كنفك، لسعى إليك رزقك، وأنت على أبهة شرفك.

الرزق لا تحرص عليه فإنه يأتي ولم تبعث إليه رسولا
من زاحف الأيام ثم عبى لها غير القناعة لم يزل مغلولا
من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأماني لم يزل مهزولا
لو جاز سلطان القنوع وحكمه في الأرض ما كان القليل قليلا[2]

وقال الآخر:

ماذا يكلفك الروحات والدلجا البر طوراً وطوراً تركب اللججا
كم من فتى قصرت في الرزق خطوته ألفيته بسهام الرزق قد فلجا[3]

---

(١) الشريف الرضي، ديوان الشريف الرضي.
(٢) أبو تمام، ديوان أبي تمام.
(٣) محمد بن حازم الباهلي (ت. ٢١٥هـ/ ٨٣٠م).
ووجدت نفس الأبيات لابن يسير الرياشي (ت. ٢٣٠هـ/ ٨١٨م). (موسوعة الشعر العربي).

وقال الآخر:

أي عيش عيشي إذا صرت فيه ... بين حل وبين وشك رحيل
كل فج من البلاد كأني ... طالب بعض أهله بذحول
ما أرى الفضل والتكرّم إلا ... كفك النفس عن طلاب الفضول

وقال آخر:

تأبى المطامع إلا أن تجشمه ... للرزق كدحاً وكم ممن يودعه
كأنما هو في حل ومرتحل ... موكل بفضاء الأرض يذرعه[1]
وما مجاهدة الإنسان واصلة ... رزقاً ولا دعة الإنسان تقطعه
قد وزع الله بين الخلق رزقهم ... لم يخلق الله من خلق يضيعه
والحرص في الرزق والأرزاق قد قسمت ... بغيً ألا إن بغي المرء يصرعه
والدهر يعطي الفتى من حيث يمنعه ... رزقاً ويمنعه من حيث يطعمه[2]

٣ ـ الخاتمة:

ثم انحلت من المجلس عرى أشراجه، وتقطعت من الاجتماع علابيّ[3] أوداجه، ومضى كل واحد من القوم يدرج في سننه، إلى مقره ووطنه، ولولا توفر الأشغال، لأوسعنا المجال، في الكشف عما أشرنا

---

(١) وردت في الديوان بفضاء الله بدل بفضاء الأرض عند الكاتب.
وفي البيت الثاني: توصله بدل واصلة.
وفي البيت الرابع: الحرصُ في الرزاق بدل الرزق.
وفي الخامس: والمهر يعطي الفتى بدل والدهر يعطي الفتى. (م.ن).
(٢) ابن زريق البغدادي (ت: ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م). (موسوعة الشعر العربي).
(٣) علابي أوداجه: غلظ عروق الرقبة. (جمهرة اللغة).

إليه من النفوس والقوى الباطنية، والعقل وجنوده والجهل وجنوده، وأوضحنا عن جملة مما أقمناه في هذه الرسالة إليها رمزاً، وأثبتناه للدلالة عليها ركزاً، وله الحمد والمنّة على أن وفقنا لإتمامها، وسهّل علينا المنهج إلى إكمالها، ونسأله أن يجنبنا فيها وفي غيرها الخطأ والخطل، والزلق والزلل، وله الشكر متوالياً متسقاً، ومتواتراً مستوسقاً، والصلاة والسلام على نبيه الصادع بالهدى، وعلى آله أدلة النجاة والعروة الوثقى، ما الليل دجا وعسعس، والصبح أسفر وتنفس، ورحمة الله وبركاته.

وقد وقع الفراغ في تسويد هذه الرسالة المسماة: بميزان العدل في المحاكمة بين جنود العقل والجهل في النجف الأشرف يوم السبت الساعة الثامنة منه الواقع في اثنين وعشرين من ذي الحجّة المبارك، وهو تمام السنة الخامسة عشر بعد الثلاثمائة والألف، على يد مؤلفها الراجي العفو والصفح، من الكريم المتعال، يوم يؤخذ بالنواصي والأقدام، محمد رضا فضل الله الحسني العاملي، ابن السيد رضا بن السيد نصر الله بن السيد محمد بن السيد علي بن السيد يوسف بن السيد فضل الله بن الشريف حسن المكي الحسني، تغمّدهم الله برحمته أجمعين، وجعل منازلهم في أعلى عليين، إنه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين.

المصادر والمراجع

أ

- القرآن الكريم.

- الأبشيهي، شهاب الدين بن أحمد، **المستطرف في كل فن مستظرف**، لا.ط. القاهرة، ١٩٩٠.

- ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، لا.ط. بيروت، دار الثقافة، ١٩٨١م.

- ابن أبي الحديد، عز الدين، **شرح نهج البلاغة**، الطبعة الثانية، بيروت، دار إحياء التراث، ١٩٨٨م.

- ابن أبي الدنيا، عبد الله، **الصمت وحفظ اللسان**، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٨٨م.

- ابن أبي طالب، الإمام علي، **نهج البلاغة**، لا.ط. بيروت، دار المعارف للنشر، ١٩٩٦م.

- ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي، **بستان الواعظين ورياض السامعين**، الطبعة الثانية، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

- ابن خلكان، شمس الدين أحمد، **وفيات الأعيان وأبناء الزمان**، لا.ط. بيروت، ١٩٧٢م.

- ابن دريد، محمد بن الحسن، **جمهرة اللغة**، لا.ط. حيدر آباد، دائرة المعارف، ١٣٤٥هـ.

- ابن ربيعة، لبيد، **الديوان**، لا.ط. الكويت، مطبوعات وزارة الإرشاد ١٩٦١م.

- ابن الرومي، علي بن عباس، **الديوان**، لا.ط.، القاهرة، مطبعة الاعتماد، ١٩٢٤م.

- ابن شعبة، الحسن بن علي، **تحف العقول عن الرسول** ﷺ، الطبعة الثانية، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٤هـ.

- ابن الصباغ، علي بن محمد، **الفصول المهمة في معرفة الأئمة**، لا.ط.، قم، دار الحديث، ١٣٧٩هـ.

- ابن طاووس، علي بن موسى، **سعد السعود**، لا.ط.، قم، منشورات الرضا، ١٣٦٣هـ.

- للمؤلف نفسه، **زهرة الرياض**، لا.ط. ذخائر التراث، لا.ت.

- ابن العبد، طرفه، **الديوان**، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٤١٧هـ.

- ابن عساكر، علي بن حسن، **تاريخ مدينة دمشق**، لا.ط.، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥م.

- ابن كثير، إسماعيل، **البداية والنهاية**، الطبعة الثانية، بيروت، مكتبة المعارف، ١٩٣٢م.

- ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، لا.ط.، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨م.

- ابن النجار، محمد بن محمود، **ذيل تاريخ بغداد**، لا.ط.، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

- ابن هشام، عبد الله، **مغني اللبيب**، لا.ط.، قم، منشورات المرعشي النجفي، ١٤٠٤هـ.
- أبو تمام، حبيب، بن أوس، **الديوان**، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف، لا.ت.
- للمؤلف نفسه، **ديوان الحماسة**، لا.ط. مصر، مطبعة توفيق، ١٣٢٢هـ.
- أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني العنزي، **الديوان**، لا.ط، بيروت، ١٩١٤م.
- أبو نواس، الحسن بن هاني، **الديوان**، الطبعة الأولى، بيروت، النور للمطبوعات، ١٩٩٧م.
- الأردوبادي، محمد علي، **سبائك التبر**، مخطوط.
- الأمين، محسن، **أعيان الشيعة**، الطبعة الثانية، بيروت، دار التعارف، ١٩٨٦م.

ب

- البحتري، الوليد بن عبيد، **الديوان**، الطبعة الثالثة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٨م.
- البحراني، هاشم بن سليمان، **حلية الأبرار**، لا.ط.، قم، لا.ت.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، لا.ط. بيروت، دار الفكر، ١٩٨١م.
- البرقي، أحمد بن محمد، **المحاسن**، لا.ط.، قم، لا.ت.
- البغدادي، عبد القادر بن عمر، **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.
- البيهقي، أحمد بن الحسين، **شعب الإيمان**، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

ت

- الترمذي، أبو عيسى، **سنن الترمذي**، لا.ط. بيروت، دار الفكر، لا.ت.

- التنوخي، الحسن، **الفرج بعد الشدة**، لا.ط. قم، ١٣٦٤هـ.ش.

ج

- الجوهري، إسماعيل بن حماد، **الصحاح**، الطبعة الرابعة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٧م.

ح

- حرز، محمد، **معارف الرجال وتراجم العلماء والأدباء**، لا.ط.، قم، مكتب المرعشي النجفي، لا.ت.

- الحر العاملي، محمد بن الحسن، **أمل الآمل**، لا.ط. النجف الأشرف، لا.ت.

- للمؤلف نفسه، **الجواهر السنية**، لا.ط.، بغداد، المكتبة العلمية، ١٣٨٤هـ.

- للمؤلف نفسه، **وسائل الشيعة**، الطبعة الثانية، قم، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ١٤١٤هـ.

- الحلي، أحمد بن فهد، **عدة الداعي ونجاح الساعي**، لا.ط. قم، لا.ت.

- الحلي، حيدر، **الديوان**، الطبعة الرابعة، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٤م.

خ

- الخاقاني، علي، **شعراء الغري**، لا.ط.، النجف الأشرف، دار البيان والنجفيات، لا.ت.

- الذبياني، النابغة، **الديوان**، الطبعة الأولى، بيروت، دار الفكر، ١٩٩١م.

ر

- الرازي، فخر الدين، **التفسير الكبير**، الطبعة الثالثة، لا مكان، لا.ت.

- الرضي، الشريف محمد بن أبي أحمد، **الديوان**، لا.ط.، بيروت، مؤسسة الأعلمي، لا.ت.

- الريشهري، محمد، **ميزان الحكمة**، الطبعة الثانية، قم، دار الحديث، ١٤١٦هـ.

- للمؤلف نفسه، **العقل والجهل في الكتاب والسنة**، الطبعة الأولى، قم، دار الحديث، ١٤١١هـ.

ز

- الزبيدي، محمد مرتضى، **تاج العروس من جواهر القاموس**، لا.ط. بيروت، دار الفكر، ١٤١٤هـ.

- الزركلي، خير الدين، **الإعلام**، الطبعة الخامسة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٠م.

- الزمخشري، جار الله بن محمود، **أساس البلاغة**، لا.ط. القاهرة، دار الكتب، ١٩٢٣م.

- زين العابدين، الإمام علي بن الحسين عليه السلام، **الصحيفة السجادية**، الطبعة الأولى، قم، ١٤١١هـ.

ش

- شرف الدين، عبد الحسين، **بغية الراغبين في أحوال آل شرف الدين**، الطبعة الأولى، بيروت، الدار الإسلامية، ١٩٩١م.

- الشهرودي، علي، **مستدرك سفينة البحار**، الطبعة الثالثة، قم، مؤسسة النشر، لا.ت.

- الشهيد الأول، محمد بن مكي، **الدروس الشرعية في فقه الإمامية**، الطبعة الثانية، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٧هـ.

- الشهيد الثاني، زين العابدين بن علي، **الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية**، الطبعة الثانية، النجف الأشرف، ١٣٩٨هـ.

ص

- الصدر، حسن، **تكملة أمل الآمل**، لا.ط. قم، ١٤٠٦هـ.

- الصدوق، محمد بن علي، **الأمالي**، الطبعة الأولى، قم، ١٤١٧هـ.

- للمؤلف نفسه، **الخصال**، لا.ط. قم، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، لا.ت.

- الصفدي، صلاح الدين بن أيبك، **الوافي بالوفيات**، لا.ط. القاهرة، ١٩٣٠م.

ط

- الطبرسي، الحسن بن الفضل، **مجمع البيان**، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٩٩٥م.

- للمؤلف نفسه، **مكارم الأخلاق**، الطبعة السادسة، ١٩٧٢م.

- الطوسي، محمد بن الحسن، **المبسوط**، لا.ط. طهران، المطبعة الحيدرية، لا.ت.

- عطاردي، عزيز الله، **مستند الإمام الرضا** عليه السلام، لا.ط. إيران، المؤتمر العالمي للإمام الرضا، ١٤٠٦هـ.

ف

- الفراهيدي، أحمد بن خليل، **العين**، لا.ط. بغداد، جامعة بغداد، ١٩٦٦م.
- الفرزدق، همام بن غالب، **الديوان**، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٩٦٦م.
- فضل الله، إبراهيم، **المشروع الحضاري الإسلامي**، دراسة جامعية، ١٩٩١م.
- فضل الله، عبد اللطيف، **الديوان**، الطبعة الأولى، بيروت، دار الملاك، ٢٠٠١م.

ق

- القرطبي، محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**، الطبعة الثانية، بيروت، دار إحياء التراث، ١٩٩٥م.
- القمي، شاذان بن جبريل، **الفضائل**، لا.ط. النجف الأشرف، ١٩٦٢م.
- القمي، عباس، **الأنوار البهية**، الطبعة الأولى، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٧هـ.

ك

- الكاشاني، محمد بن المرتضى، **المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء**، الطبعة الثانية، قم، لا.ت.
- للمؤلف نفسه، **التفسير الصافي**، الطبعة الثانية، طهران، ١٤١٦هـ.
- الكتبي، **فوات الوفيات**، مكتبة، قم، الإصدار الثاني، ١٤٣٢هـ.
- الكليني، محمد بن يعقوب، **الكافي**، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الكتب الإسلامية، لا.ت.

م

- المتنبي، أحمد بن الحسين، **الديوان**، لا.ط. بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٠م.
- المجلسي، محمد باقر، **بحار الأنوار**، الطبعة الثانية، بيروت، دار الوفاء، ١٩٨٠م.
- المجمع الثقافي اللبناني، **موسوعة الشعر العربي**، بيروت، إصدار ٢٠٠٣م.
- المرتضى، علي بن الحسين، **الآمالي**، لا.ط.، ١٩٥٤م.
- المفيد، محمد بن النعمان، **الآمالي**، لا.ط. قم، المطبعة الإسلامية، ١٤٠٣هـ.
- للمؤلف نفسه، **الاختصاص**، لا.ط. قم، منشورات جامعة المدرسين، لا.ت.

ن

- النابغة الذبياني، **الديوان**، لا.ط، بيروت، دار الفكر، ١٩٦٨م.
- النراقي، محمد مهدي، **جامع السعادات**، لا.ط. النجف الأشرف، لا.ت.
- النسائي، أحمد بن شعيب، **السنن الكبرى**، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩١م.
- النوري، ميرزا حسين، **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٧م.

هـ

- الهيثمي، نور الدين علي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، لا.ط. بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الخلق بلا روية اجالها ولا فكرة اضطرب اليها
وجعله نامياً بعد ان كان جماداً ومتحركاً بعد ان كان ساكناً وناطقاً
بعد ان كان صامتاً وجمع فيه بين المتضادات والف بين المباينات
فاقام الكثيف باللطيف واللطيف بالكثيف وبناه على حرارة
وبرودة ورطوبة ويبوسة واودع فيه طعماً وتنوعاً وحرصاً
وعفة وزهداً ورغبة وبغضاً وحباً وقسوة ورقة وجعل الكثيف
النميم بالكثيف ما يتناوله من مركز الأسفل وعنصره الأدنى
واللطيف ما يتناوله من الصفات الروحانية والاخلاق الربانية والصلوة
والسلام على نبيه الواقف على الحد المشترك بين عالمي الغيب والشهادة
والنمط الأوسط بين المركزين سفلي الكثيف وعلوي اللطيف
فلا مركز سفليه يلوى به عن مشاهدة علويه ولا مشاهدة علويه
يحول بينه وبين اصلاح سفليه فكان خلقه معجزة باهرة وآية
ظاهرة وعلى آله المشتقين من نبعته والمتفرعين من جرثومته القائمة
بهم صفاته واللاصقة بهم نعوته اما بعد فاني كنت في يوم عيد من الأعياد
مع زمرة من الاخوان تتضمنا حلقة الأنس في سلك السرور وذلك في
الغيف الأشرف في ظلال الصمن الشريف نقطف من زهر السرور
انفسه ومن ثمر الظرف احلاه حلاوه والمجلس يطفح باصله مناكهة بالحديث

الصفحة الأولى من مخطوطة ميزان العدل

الصفحتان ٣٨ و٣٩ من مخطوطة ميزان العدل

وقال آخر

تأبى المطامع الا ان تجشمه ... للرزق كدحا وكم من يود عه
كانما هو في حل وفي ترحل ... موكل بفضاء الارض يذرعه
وما مجاهدة الانسان واصلة ... رزقا ولا دعة الانسان تقطعه
قد وزع الله بين الخلق رزقهم ... لم يخلق الله من خلق يضيعه
والحرص في الرزق والاذراق قد جمعت ... بني الا ان بني المرء يصرعه
والدهر يعطي الفتى من حيث يطمعه ... رزقا ويمنعه من حيث يطمعه

ثم انحلت من المجلس عرى تراجمه وتقطعت من الاجتماع علائق اواجمه ومضى كل من القوم يدرج في سننه الى معرّه ووطنه ولولا توفر الاشغال لاوسعنا المجال في الكشف عما اشرنا اليه من النفوس والقوى الباطنة والعقل وحقوقه والجهل وحقوقه واوضحنا عن جملة مما افنا في هذه الرسالة اليها رمزا واثبتناه للدلالة عليها كنزا ولله الحمد والمنة على ان وفقنا لاتمامها وسهل علينا المنهج الى اكمالها وفاله الله يجنبنا فيها وفي غيرها الخطأ والخلل والزلق والزلل وله الشكر متواليا متسقا ومتواترا مستوسقا والصلوة والسلام على نبيه الصادع بالهدى وعلى آله ادلة النجاة والعروة الوثقى ما الليل دجى وسمس والصبح اسفر وتنفس

و وقد وقع الفراغ من تسويد هذه الرسالة [illegible]

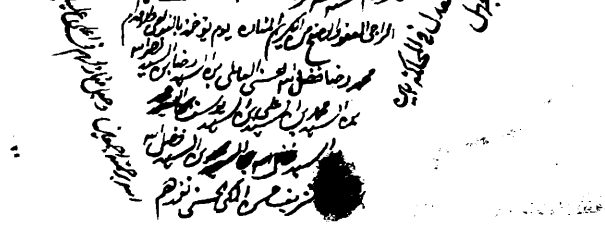

الصفحة الأخيرة من مخطوطة ميزان العدل

الفهرس

إهـداء ٥

المقدمة ٧

خطوات البحث ٩

العلاّمة السيد محمد رضا فضل اللّه ١١

ولادته ١١

دراسته ١٢

شهادات علماء وشعراء ١٣

أسرته ١٦

إضاءات على ميزان العدل ٢١

ميزان العدل «السمكيّة» ٣١

المقدمة ٣٣

جنود الجهل ٣٧

١ ـ لوازم الجسد ٣٧

٢ ـ خداع النفس ٤١
٣ ـ النفس الأمّارة ٤٧
٤ ـ الحسية الحيوانية ٦٠
٥ ـ الشَّره ٧٤
٦ ـ الشهوة ٧٦
٧ ـ أبو مرة ٨٢
جنود العقل ٨٥
١ ـ النفس المطمئنة ٨٥
٢ ـ المواجهة بين جنود الجهل وجنود العقل ٨٩
أ ـ أبو مرّة يهاجم ٨٩
ب ـ استعداد المطمئنة ٩٠
ج ـ درجات المطمئنة ونصائحها ٩٥
٣ ـ الإيمان منبر المطمئنة ١٠١
٤ ـ السعادة الأبدية ١١٣
الدار الآخرة والحساب ١١٧
١ ـ مصير أهل العصيان ١١٧
أ ـ عذاب القبر وعذاب النار ١١٧

ب ـ أبواب النار ١٢٣
ج ـ جسور وقناطر جهنم ١٢٨
٢ ـ مصير أهل الطاعات ١٣٤
أ ـ خير زاد ١٣٤
ب ـ خير دار ١٣٥
ج ـ تفاخر السعادة الأبدية بأهل الطاعات ١٣٨
د ـ الجنة، أبوابها وصفاتها ١٤٤
جنود العقل تهاجم جنود الجهل ١٥٣
السعادة الأبدية والهجوم على الأمارة والجهل ١٥٣
أ ـ خطاب القنوع ١٥٩
ب ـ خطاب العفه ١٧٣
ج ـ خطاب الزهد ١٨٠
د ـ خطاب التقوى ١٩١
هـ ـ خطاب العلم والبراهين الساطعة ٢٠٢
هجوم مضاد ٢٤١
١ ـ كيد الشيطان ٢٤١
٢ ـ حيرة جنود الجهل ٢٥٣

٣ ـ الأمارة في هيئة السمك ٢٦٥
٤ ـ حنق إبليس ٢٧٠
العبرة ٢٧٣
١ ـ الأماني الكاذبة ٢٧٣
٢ ـ صحوة الروح ٢٧٤
٣ ـ الخاتمة ٢٧٨
المصادر والمراجع ٢٨١